تاريخ القدس القديم

منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الاحتلال الروماني



الدكتور خزعل الماجدي



تاريخ القدس القديم

منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الاحتلال الروماني

المملكة الأردنية الهاشمية
رقم الإيداع لدى المكتبة الوطنية
(2016/8/3832)

الماجدي، خزعل زناد

تاريخ القدس القديم/ خزعل زناد الماجدي- عمان: دار غيداء للنشر والتوزيع 2016

(   ) ص.

ر. ا. : (2016/8/3832)

الواصفات: /القدس//تاريخ فلسطين//العصور التاريخية/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعتبر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية آخرى.

ISBN 978-9957-96-291-3

دار غيداء للنشر والتوزيع

تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله
تلفاكس : 5353402 6 962+
ص.ب : 520946 عمان 11152 الأردن
www.darghaidaa.com

مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
خلوي : 95667143 7 962+
E-mail: darghidaa@gmail.com
E-mail: info@darghaidaa.com

تاريخ القدس القديم

منذ عصور ما قبل التاريخ حتى الاحتلال الروماني

الدكتور

خزعل الماجدي

الطبعة الثانية

2017 م- **1438** هـ

فهرس المحتويات

الفصل الثالث: القدس في العصر الحديدي

الفصل الرابع: القدس في العصر الهيلنستي

الفهارس

مقدمة الطبعة الثانية

مازلتُ أنظرُ لهذا الكتاب بعينين عميقتين متجاورتين، العين الأولى أكاديمة النظرة فهو أحد أفضل ماكتبت من الكتب الأكاديمية التي تتبع، بدقّةٍ، تاريخاً أغرقتهُ المرويات بأشباح الأساطير والروايات الدينية وتنتشلهُ منها، والعين الثانية بنظرتها الجريئة في الإعتماد الكامل على علم الآثار والكفّ عن ترديد التاريخ الموروث عن فلسطين والقدس وهو مايساهم في تثبيت وقائع محددّة تؤيدها الحفريات الأركولوجية.

على هذين الأساسين لانذكر شيئاً عن دولتي إسرائيل ويهوذا القديمتين بل نذكر ماحصل، حقيقةً، عن مدينتي السامرة وأورشليم دون أن نجد ذكراً لهاتين الدولتين.

ليس هناك مايدعوني للإنكار المسبّق لكل التاريخ العبري واليهودي في القدس القديمة وفي عموم فلسطين لكني تركتُ لسان الآثار يروي قصتهما فأنكر أغلب ماتوارثناه.

أشعرُ بالرضا عن المنهج العلميّ الذي اتبعتهُ في تأليف هذا الكتاب، وهو المنهج نفسه الذي اعتمده الباحثون العلميون في هذا المجال وهو كثيرون ومنهم من يعيش في داخل دولة اسرائيل الحالية لكنه متمسكٌ بالمنهج العلميّ دون مجاملة أحد.

كل هذه الأمور تدعوني، اليوم، لإعادة طبعه ونشر هذا الكتاب بطبعةٍ ثانيةٍ بعد صدور طبعته الأولى قبل أكثر من عشر سنوات.

هذه طبعةٌ مزيدةٌ ومنقّحةٌ ومزدانةٌ بصور أكثر وأفضل.. وسعادتي كبيرةٌ بصدورها لأنها مازالت تمثّلُ وجهة نظرٍ علميةٍ دقيقةٍ عن تاريخ القدس وتبحث في طبقات الآثار عن موجوداتها ولقاها حتى لتخال أن هذا الكتاب هو في علم آثار القدس أكثر منه في علم تاريخها فرطَ اعتماده على الآثار في سرد هذا التاريخ.

هذا الكتاب أقدّمه لفلسطين الصابرة على جرحها ولشجاعتها في الصمود والقوة، وأتمنى أن يعزز من أصالة شعبها الفلسطينيّ الحاضر العربيّ الكنعانيّ الآموري الجذور فيها.

د. خزعل الماجدي

2016 /1/25

a_khazal@hotmail. com

مقدمة الطبعة الأولى

يفتح لنا تاريخ القدس القديم أبواباً مشرعة كثيرة على حقول غامضةٍ ومستعصية على البحث.. مازالت حتى يومنا هذا مثار جدلٍ واسع بين الباحثين، فهو تاريخ يشتبك ويتداخل مع ظهور مستوطنات ما قبل التاريخ الرعوية والزراعية، ثم يشتبك مع هجرات الأموريين الأولى إلى بلاد الشام، تلك الهجرات التي مازلنا نجهل عنها الشيء الكثير، ثم يشتبك مع هجرات الكنعانيين واستيطانهم في بلاد فلسطين. ولعل أعلى مناطق الاشتباك هذه، والتي مازال يحجبها ضبابٌ كثيف تظهر في مطلع العصر الحديدي في فلسطين، حيث تصادفنا المرويات التوراتية الدينية التي تحلق بالتاريخ نحو الأساطير والملاحم والحكايات الشعبية ولا يعود بإمكاننا، إذا نحنُ أخذنا هذه المرويات بنظر الاعتبار، تمييز أي ملامح تاريخية حقيقية، ولذلك توجب علينا الحذر الشديد من شباكها وفخاخها التي ظلت ومازالت تطوّح بأكثر العلماء والباحثين جدّيةً ورصانةً.

يأتي كتابنا هذا ضمن محاولة متواضعة لكتابة تاريخٍ حقيقي لسيرة مدينة القدس منذ ظهورها وحتى الاحتلال الروماني لها. ونعني بكلمة (تاريخ حقيقي) استبعاد كل المؤثرات الدينية التوراتية للتحكم بمسرى الأحداث وتوجيهها.. وخصوصاً تلك التي لها علاقة بنشوء المدينة ونموها في العصرين البرونزي والحديدي، أي خلال ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

لقد كان منهجنا في البحث التاريخي، في هذا الكتاب، معتمداً على علم الآثار وعلى ما جادت به أرض القدس من الآثار المنقولة والثابتة، مع محاولات استقرائية هنا وهناك تحاول كشف ما تخفيه الآثار والأحداث التاريخية وتجيب على بعض الأسئلة المعلّقة والحساسة.

لقد كانت الآثار مرجعيتنا الكبرى في كتابة تاريخ القدس القديم حرصاً منا على اتخاذ الطريق العلمي في تدوين التاريخ، ولذلك سيكون كتابنا مفاجئاً للذين ينتظرون بعض البديهيات التي كرّسها البحث التاريخي المشحون بخلفية توراتية والتي استبعدناها لأنها لا تمس الحقيقة بشيء.

كرّسنا الفصل الأول من الكتاب للبحث في عصور ما قبل التاريخ لفلسطين كلّها والتقاط ما يخصّ أرض القدس التي ظهرت فيها مستوطنات وقرىً رعوية وزراعية حيث لم يبدأ بعد بناء مدينة القدس وقد حاولنا، من خلال هذا الفصل، التعرف على النمو الحضاري

المتسارع الذي كان قد ظهر في مجمل أصقاع الشرق الأدنى بعد نهاية العصر الحجري القديم وظهور الحضارتين الكبارية والنطوفية في أرض فلسطين حيث انتقلت حضارة هذا البلد إلى مستوى رفيع أدخلته مبكراً في العصر الحجري الحديث ثم النحاسي وظهور المدن فيه بصورة مبكرة ورغم أن القدس كمدينة لم تنبت بعد لكن أرض القدس ومستوطناتها كانت على وشك ولادة هذه المدينة.

الفصل الثاني خصص للبحث في تاريخ القدس في العصر البرونزي وهو العصر الذي شهد في بدايته ولادة مدينة القدس على يد الأموريين، وقد ذهبنا في ذلك على عكس ما ذهب إليه كلّ الباحثين الذين رجّحوا نشوء المدينة في الفترة المتوسطة منه على يد اليبوسيين.

لقد أظهر لنا البحث الآثاري أن هناك، في العصر البرونزي، ثلاث مدن متتالية للقدس حملت كل وحدة منها إسماً مختلفاً. فقد ظهرت مدينة القدس الأولى الآمورية في العصر البرونزي المبكر ثم مدينة القدس الثانية الكنعانية في العصر البرونزي المتوسط ثم مدينة القدس الثالثة اليبوسية في العصر البرونزي المتأخر.

وكان لكل مدينة أحداثها وعمرانها رغم الإيقاع المنسجم بين هذه المدن الثلاثة والتداخل الكبير في عمرانها وآثارها. وقد حاولنا استنطاق آثار القدس في العصر البرونزي لمعرفة تاريخها وديانتها بشكل خاص. أما الفصل الثالث فقد كرسناه لتاريخ القدس في العصر الحديدي في الألف الأول قبل الميلاد والذي يشكل، من وجهة نظرنا أخطر العصور وأكثرها إثارة للجدل والخلاف لأن الروايات التوراتية هي التي صنّعته وخلّقته عند معظم الباحثين والمؤرخين وأصبح الفكاك من الوهم التوراتي مهمةً صعبة للغاية على البحث العلمي المجرد والنـزيه.

لقد تجاهنا الكثير من الأمور التي تبدو ثوابتاً بسبب المرويات التوراتية لعدم عثورنا على دليل آثاري عليها مثل غزو القبائل الإسرائيلية المزعوم لأرض فلسطين وظهور داود وسليمان ونشوء مملكتي إسرائيل ويهوذا وتوحيدهما وغيرها من الأحداث التي لا يوجد ما يشير إلى حصول أيّ منها لا في آثار القدس وفلسطين ولا في آثار منطقة الشام بل والشرق الأدنى كلّه.

ولم يكن أمامنا خيارٌ سوى اختيار تاريخٍ بديل لفلسطين والقدس في مرحلتي العصر الحديدي الأول والثاني. ومع العصر الحديدي الثالث فحصنا بروية ظهور الدين اليهودي الذي كان استمراراً للدين اليهوذي الذي سبقه، وتحدثنا عن كتابة نواة التوراة ثم توسيع هذه النواة

بأسفارٍ جديدة ظهرت في العصر الحديدي الثالث الذي يصادف الاحتلال الفارسي للقدس ثم يستمر ذلك مع الاحتلال الهيلنستي للقدس.

ونكون بذلك قد فتحنا الأبواب الموصدة التي تحيط نشأة الدين اليهودي الحقيقية (وليس التوراتية).

واستمرت رحلتنا في الفصل الرابع مع الفترات البطلمية والسلوقية التي نرى أنها صقلت الدين اليهودي وأكملت كتبه وشرائعه وطقوسه حتى وصلنا إلى الاحتلال الروماني للقدس الذي يكوّن مع الاحتلال البيزنطي لها مادة تاريخية تستحقُّ منّا كتاباً منفصلاً سنسعى إلى تأليفه لاحقاً لنكمل به تاريخ القدس القديم.

هكذا أتاحت لنا فرصة البحث في تاريخ القدس القديم الحوار العلمي مع بعض الثوابت الدينية التوراتية التي نرى أن زحزحتها مهمة ضرورية لتيسير طريق سالك نحو معرفة حقائق كثيرة تتعلق بأديان الشرق الأدنى القديم وخصوصاً الأديان الموحدة.

ولا يفوتنا، في هذه المناسبة، التأكيد على أن هناك عدداً من الباحثين الغربيين الذين شقّوا قبلنا هذا الطريق مثل طومسون ووايتلام وغيرهما والذين كانت أفكارهم مناراً لنا في البحث العلمي الجاد.

أملنا كبيرٌ جداً أن لا يقع الباحثون (والعرب منهم بشكل خاص) في شرك المرويات التوراتية وهم يتناولون تاريخ فلسطين والقدس وأن يعودوا دائماً إلى علم الآثار الذي يقف بقوة صارمة أمام المرويات ويفنّدها وهو الذي أعاننا على كتابة هذا الكتاب.

وختاماً نتقدم بالشكر الوافر والعميق لكلّ من يسّر لنا سُبل هذا البحث وللمبادرة الطيبة التي تقدمت لنا بها الدكتورة سلمى الخضراء الجيّوسي عن مؤسسة (بروتا) لدعوتنا لتأليف هذا الكتاب، ونتقدم بالشكر الجزيل للدكتور محمد مهافيف الذي أضاءت لنا ملاحظاته وتصحيحاته السبيل من أجل صورة أفضل لهذا الكتاب.

كما نود الاعتذار عن الهنات والأخطاء التي ربما نكون قد وقعنا بها.

ومن اللـه التوفيق

خزعل الماجدي

دكتوراه تاريخ قديم

2005

الـفصل الأول

فلسطين والقدس في عصور ما قبل التاريخ



أقنعة حجرية من فلسطين 7000 ق. م

http://www. jpost. com/Arts-and-Culture/Arts/Unmasking-the-masks-344937

الـفصل الأول

فلسطين والقدس في عصور ما قبل التاريخ

يقودنـا علـم دراسـة الإنـسان القـديم (البـاليو انثربولوجيـا Paleo - anthropology) إلى الـربط بـين البقايـا العضوية والثقافية للإنسان القديم، فهو يقوم، من ناحية، بدراسة المواد العـضوية للإنـسان مثـل العظـام والأسـنان وتحليلها بواسطة علماء الأنثروبولوجيا الفيزيقية. ويقوم، من ناحية أخـرى، بدراسـة المـادة الثقافيـة للإنـسان مثـل الأدوات والأسلحة والمسكن وغيرهـا وتحليلهـا بواسـطة علـماء الأنثروبولوجيـا الثقافيـة المتخصـصين في مجـال علـم الآثار[1].

وتعتمد دراسة الإنسان الأول، الذي ظهر على وجه الأرض بهيئة مقارنة، نوعمّا، لهيئة الإنسان الحالي، عـلى المقاربات البايولوجية مع الحيوانات الفقرية المرافقـة لـه في نهايـات الـدهر الجيولـوجي الثالـث وبـدايات الـدهر الجيولوجي الرابع.

أما دراسة آثار المادية والثقافية في العصور الحجريـة فتعتمـد عـلى مـا تمنحنـا إيـاه حفريـات علـم الآثـار Archaeology الذي تعتمد عليه كلياً دراسة عصور ما قبل التاريخ. أما العصور التاريخية فيزداد اهتمامهـا تـدريجياً، كلما تقدمنا باتجاه الحاضر، بالآثار والوثائق المكتوبة إضافة إلى الآثار الصامتة.

إذا كان الدهر الجيولوجي الثالث (الـسينوزوك Cenozoic)[2] قـد شـهد ظهـور النـوع الـشبيه بالإنـسان في عصره الأخير المسمى عصر البيلوسين (Pliocene) في أفريقيا بوجه خاص، فإن الـدهر الجيولـوجي الرابـع (النيـوزوك Neozoic)[3] قد شهد ظهور النـوع الإنـساني المعـروف في عـصر البيليـستوسين Pleistocene[4]، حيـث بـدأت أجناسـهُ بالظهور في أفريقيا وآسيا وأوربا متزامنةً مع ظهور العصور الجليدية في الطبيعة والعصور الحجرية في الثقافة التـي أنتجها ذلك الإنسان.

ومنذ عصر الهلوسين Holocene[5]، الذي بـدأ في حـدود 10.000 ق. م ومازلنـا نعـيش فيـه انعطفـت حيـاة الإنسان الحضارية باكتشافي الزراعة والمعادن ثم اختراع الكتابة في نهاية عـصور مـا قبـل التـاريخ أو بدايـة العـصور التاريخية.

لقد درج العلماء على تقسيم عصور ما قبل التاريخ إلى خمسة عصور حجرية عمّت أرجاء الأرض رغم وجود خصوصيات محلية لها في كل بقعة حضارية من الأرض وهذه العصور هي:

1. العصر الحجري الفجري (السحيق) Eolithic Age: ويبدأ تقريباً من ظهور الإنسان على وجه الأرض إلى حوالي نصف مليون سنة من الآن (1.000.000 – 500.000)ق. م

2. العصر الحجري القديم Paleolithic Age: وهو العصر الذي تضمن العصور الجليدية الأربعة والفترات غير الجليدية الثلاثة التي تخللتها، وبدأ قبل حوالي نصف مليون سنة وظهرت فيه ثلاثة أنواع أساسية من الإنسان هي (المنتصب، النياندرتال، العاقل) يقسمه العلماء إلى ثلاثة عصور (أدنى، أوسط، أعلى) (500.000 – 19.000) ق. م.

3. العصر الحجري الوسيط Mesolithic Age: وهو العصر الذي شهد نهاية العصر الجليدي الرابع وبداية الفترة غير الجليدية الرابعة بعد أن ذاب جليد أوربا. وكان الإنسان العاقل في الشرق الأدنى يمر بفترة من الأمطار الموسمية والمناخ المعتدل مما ساعده على ابتكار حضارة حجرية وسيطة متميزة (19.000 – 8.000) ق. م

4. العصر الحجري الحديث Neolithic Age: وهو العصر الذي بدأ الإنسان في الشرق الأدنى باكتشاف الزراعة المنظمة ثم ظهور صناعة الفخار (8.000- 5.000) ق. م.

5. العصر الحجري النحاسي Chalcolithic Age: وهو العصر الذي اكتشف فيه الإنسان المعادن وبدأ بتطويعها واستخدامها في حياته اليومية وفي هذا العصر ظهرت المدن والمعابد (5000-3300) ق. م.

فلسطين في العصر الحجري السحيق (الإيوليت)

يطلق العلماء على العصر الحجري الذي سبق العصر الحجري القديم (الباليوليت) اسم (الإيوليت Eolithic) وهو عصر الفجر الحجري (السحيق) الذي ليس له بداية محددة فهو يرتبط بظهور الإنسان على وجه الأرض والذي يمتد لأكثر من مليون سنة حتى نصف مليون سنة من الآن وساد فيه الإنسان الماهر Homo habilis وظهرت فيه الثقافة الحصوية Pebble Culture حيث هذّب الإنسان الحصى الكبيرة واستعملها كسلاحٍ وأداة للعمل وتشير أغلب القرائن الآثارية إلى أن هذا العصر ظهر بوضوح في قارة أفريقيا. ورغم أننا لم نعثر في فلسطين على

أدوات حصوية تشير إلى هذا العصر إلا أن الإنسان الماهر كان قد انتقل من أفريقيا عبر الجسر البري الذي يربط آسيا بأفريقيا واستقر في فلسطين، وتحديداً على جانبي غور الأردن، حيث تحرك باتجاه الشرق نحو الأزرق في الأردن وباتجاه الغرب نحو سواحل البحر الأبيض المتوسط في فلسطين. ويبدو أن حيوانات كثيرة انتقلت معه مثل الفيل والزرافة والظباء ووحيد القرن وغيرها.

عُثِرَ في موقع (العُبيدية) الواقع إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية، وعلى عمق 205 أمتار تحت مستوى سطح البحر على أقدام ما عرفه علم الآثار حتى الآن من المخلفات البشرية في العالم، ماعدا صخور أفريقيا الوسطى. وقد وجِدت هذه المخلفات المتحجرة مطويةً في طبقات جيولوجية، نشطَت بعد استقرار الإنسان هناك في عصر البليستوسين الأدنى. وتشير هذه التشكيلات الجيولوجية إلى أن الموقع كان يقوم على شاطئ بحيرة اختفت بفعل عوامل الطبيعة في الانهدام السوري- الأفريقي، الذي يشكل غور الأردن جزءاً منه[6].

فلسطين والقدس في العصر الحجري القديم (الباليوليت) **500.000- 19.000**ق. م

يشكل العصر الحجري القديم (الباليوليت) الجزء الأعظم من العصور الحجرية وينقسم إلى ثلاث فترات مميزة هي:

1. البليوليت الأدنى (500.000 – 100.000) ق. م.
2. الباليوليت الأوسط (100.000 – 40.000) ق. م.
3. الباليوليت الأعلى (40.000 – 19.000) ق. م.

1. الباليوليت الأدنى (500.000 – 100.000) ق. م

تتميز فترة الباليوليت الأدنى التي بدأت منذ نصف مليون سنة بظهور الإنسان منتصب القامة Homo Erectus وهو أرقى من سلفه، الإنسان الماهر، الذي ظهر في العصر الحجري السحيق. والإنسان منصب القامة له قامة متوسطة الطول وله دماغ متطور، وكان يصنع أدواته الحجرية والعظمية والخشبية عن سابق تصور ومعرفة ليجعلها تناسب حاجاته في صيد الحيوانات وحفر الأرض والصخور وقطع الأشجار.

وفي فلسطين أظهرت الحفريات أن هذا الإنسان عاش أيضاً على جانبي نهر الأردن، ومن مواقعه المعروفة موقع العُبيدية وموقع قُرب بيت لحم وموقع جسر بنات يعقوب وموقع يقع على مقربة من بحيرة الحولة، في وادي قطنة في الجنوب، وفي مغارة الطابون في جبل الكرمل وغيرها على الساحل[7].

وفي موقع العُبيدية عُثِرَ على هيكل عظمي للإنسان منتصب القامة يعود تاريخه إلى حوالي 700.000 سنة[8].

وإذا كان الباليوليت الأدنى في أوربا قد شهد ظهور أربع ثقافات متميزة فيه هي (الأبفيلية الكلاكتونية، الآشولية، اللفلوازية) فإن الباليوليت الأدنى في فلسطين وبلاد الشام عموماً قد شهر ظهور هذه الثقافات جميعها باستثناء اللفلوازية الذي ظهرت ثقافة محلية موازية لها، في فلسطين، هي الثقافة التياسية.

وبشكل عام فإن إنسان الباليوليت الأدنى منتصب القامة كان أول الأجناس البشرية ذات الدماغ الكبير التي احتلت الشرق الأدنى القديم بالتدريج، وعاش متنقلاً في أودية الأنهار والمناطق الساحلية، وكان أول من تكيف وفق المناخ المعتدل والمناخ البارد[9].

صنع الإنسان منتصب القامة، في فلسطين، أدواته الحجرية المكونة من الفؤوس اليدوية والمقاشط والسواطير والمطارق والبلطات. وكان يستعملها كأسلحةٍ لقتل الحيوانات أو لقطع الأشجار أو للدفاع عن النفس.

مغارة الطابون حوالي 24 كيلومترا إلى الجنوب من حيفا، توثق 500.000 سنة من التاريخ البشري. وهي مغارة فريدة من نوعها لأنها تمثل خطوة بخطوة تاريخ البالبوليت الأسفل وكيفية تغيير استخدام النار في الكهف. وقد عثر على أدوات حجرية رافقت اكتشاف النار تعود إلى حوالي 350.000 من الآن.



حجر الصوان يشكّل حفر دائرية تكوّن " وعاء غطاء" لموقد نار ما قبل التاريخ في مغارة الطابون.

http://www. sciencemag. org/news/2014/12/israeli-cave-offers-clues-about-when-humans-mastered-fire

وعثر في مغاوره وكهوفه على ما يشير أنه اصطاد وأكل لحـوم المـاعز والبقـر والغـزال. وفي مغـارة الطـابون "عُثِرَ على قطع فحمٍ أرجعها العلماء إلى نحو (150.000) سنة، وهناك قطع أخرى ترجع إلى الدور الأخير مـن العـصر الحجري القديم، اكتُشِفَ في مغارة الوادي (قرب الطرف الغربي للكرمل)، وهذا يـدل عـلى أن إنـسان فلـسطين قـد عرف النار"[10].

ويبدو أن هذا الإنسان الفلسطيني المنتصب القامة سكن في الكهوف خصوصاً في جبل الكرمـل وأم قطفـة (شمال غرب البحر الميت) وفي موقع الزطيّة (شمال غرب بحيرة طبريّة) ليجنب نفسه عوامل الطبيعـة القاسـية ثـم نزل إلى السهول والمنخفضات حيث تجري الأنهار وتنبت النباتات وهناك بنى الأكواخ البسيطة البدائية.

وقد أظهرت حفريات 1962 التي قام بها ستيكليس (Stekelis) إن القسم الأعلى من وادي رفائيم في القدس المسمى أيضاً (بكه) في الحي الإغريقي جنـوب غـرب وادي هنـوم ثـلاث طبقـات كانـت الطبقتـان الثانيـة والثالثـة تحتويان على فؤوس يدوية ونصال وأدوات حجرية باليوليتية تعود إلى العصر الأبيفيلي أو الأشولي المبكر[11].

ظهر اكتشاف أشباه البشر (الإنسان المبكر) موقع استيطاني قرب نيشر الرملة، الإستيطان البشري في أوقات العصر الحجري القديم الأوسط (حوالي 300.000 ل40- قبل 50.000 سنة).

على الرغم من أن نوع الإنسان لم تعرف هويته حتى الآن، وشهدت هذه الفترة الزمنية أنشطة كل إنسان نياندرتال والبشر المعاصرين في وقت مبكر. وكانت القطع الأثرية الحجرية من التقليد Mousterian، وشملت النوى ليفالوازية، والرقائق، والنقاط.



جمجمة مرممة لأنسان الباليوليت الأدنى حوالي 350.000 سنة من الآن

http://popular-archaeology. com/issue/winter-2015-2016/article/new-early-human-site-discovered-in-israel

2. الباليوليت الأوسط (100.000 – 40.000) ق. م

إذا كان الباليوليت الأوسط في أوربا متميزاً بفعل ظهور إنسان النياندرتال، فإنه في فلسطين تحديداً يغدو أكثر تميزاً بفعل ظهور نوعين من البشر هما:

1. إنسان النياندرتال Homo Neanderthalensis

2. الإنسان القديم الفلسطيني Paleo – anthropus palaestiniensis

وإذا كان إنسان النياندرتال الأوربي قد أنجز ثقافتي اللفلوازية الموستيرية والموستيرية في الباليوليت الأوسط، فإن نياندرتال فلسطين أنجز نمطاً خاصاً متطوراً من الثقافة اللفلوازية سُميت بـ(الثقافة الطابونية) (نسبة إلى مغارة طابون في جبال الكرمل الجنوبية الغربية)، أما الإنسان القديم الفلسطيني فقد أنجز بامتياز الثقافة الموستيرية في الشرق الأدنى.

وتمتاز الثقافة اللفلوازية الموستيرية بالأدوات الحجرية المصنوعة من الشظايا المصقولة أما الثقافة الموستيرية فتمتاز بالفؤوس اليدوية على هيئة القلب وبالمثقاب.

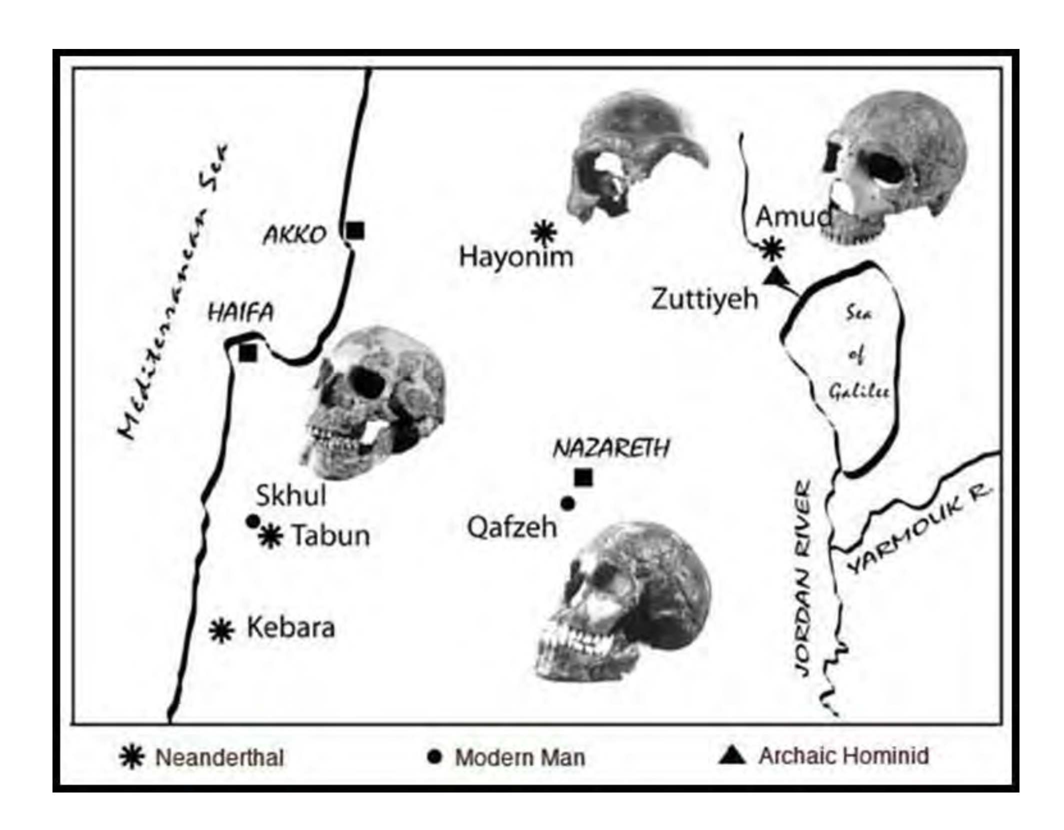
إن ظهور الإنسان القديم الفلسطيني الذي يُعرف أيضاً بـ(الجليلي) بسبب ظهور معظم آثاره في منطقة الجليل يُعدّ أمراً محيراً ونادراً في أحداث العصر الحجري القديم فقد انفردت فلسطين دون غيرها، بظهور إنسان متطور يشبه الإنسان العاقل ويسبقه زمنياً، وهو ما جعل حضارة فلسطين في الباليوليت الأوسط متميزة جداً عن مثيلاتها في الشرق الأدنى وأوربا معاً.

كان الإنسان القديم الفلسطيني (الجليلي) قصير القامة بالنسبة إلى الإنسان العاقل ويحمل على كتفيه العريضتين جمجمة كبيرة مستطيلة، عظمها سميك وصدفتا العينين واسعتان تحفّ بهما نتوءات بارزة. أما الأنف فمسطح، وعظام الحنك نافرة صلبة، والأسنان كبيرة، وفي الحنك الأسفل ذقن صغير واضح، والصدر واسع والعضلات ضخمة، وهو ما يعطيه قوة جسدية كبيرة، واليدان كبيرتان، لكن عظام الأصابع محددة الحركة. والفخذ عنده أقصر من الساق، والظهر يميل إلى الانحناء نحو الأمام، حيث يبقى الرأس مائلاً في هذا الاتجاه[12].

أما الأماكن التي عثر فيها على الهياكل العظمية لهذا الإنسان فهي:

1. مغاور جبال الجليل في وادي العمود (الزطيّة والأميرة).
2. مغاور جبال الكرمل (السخول والطابون).
3. مغارة القفزة قرب الناصرة.

ويعتقد العلماء أن الإنسان القديم الفلسطيني ينتمي لما يسمى بـ(الأشكال الوسيطة) التي لا تتوافق مع الأنماط الفيزيقية لإنسان النياندرتال أو الإنسان العاقل. وقد تمّ الكشف عنها في أوربا (يوغسلافيا) والشرق الأدنى (فلسطين) وأفريقيا (المغرب وأثيوبيا وجنوب أفريقيا)[13].



أماكن وجود بقايا الإنسان في الباليوليت الأوسط في فلسطين

http://bcrfj. revues. org/3272

ويرى فاندرميرش أن الإنسان القديم الفلسطيني يرتبط بجنس (كرومانيون) أكثر من ارتباطه بإنسان (نياندرتال) مما قد يعني أنه كان أساساً لجزء كبير من سكان أوربا الغربية بعد سنة 35000 تقريباً قبل وقتنا الحاضر، وكلا الإنسانين: إنسان كرومانيون وإنسان فلسطين ينتمي إلى جماعة تعرف الآن باسم الإنسان العاقل[14].

إن هذا يعني بوضوح أن حضارة مبكرة ذات قيمة عالية ستنسجُ خيوطها في فلسطين وستكون هذه الحضارة البعيدة الزمن قاعدة صُلبة لما ستتواتر عليه العصور القادمة وصولاً إلى الحضارتين الكبارية والنطوفية اللتين سينجزهما الإنسان العاقل في فلسطين في العصر الوسيط.

وهكذا نجدُ أن ثمة علاقة وشيجة بين الباليوليت الأوسط والعصر الوسيط (الميزوليت) في فلسطين أساسها الإنسان العاقل بنوعين المبكر (الإنسان القديم الفلسطيني) والمتأخر (الإنسان العاقل الفلسطيني).

تنحصر، بشكل عام، إنجازات إنسان الباليوليت الأوسط في فلسطين في قدرته على التكيف مع الطبيعة بشكل أفضل فقد ارتدى الجلود وطوّر الإفادة من النار وهيأ لها المواقد في الكهوف ووسع من استخدامها، وكان صيّاداً ماهراً.

واستطاع إنسان النياندرتال دفن موتاه مما يعبر عن أول المشاعر الدينية التي وجدت صداها في احترام الجسد البشري واحتمال ذهابه إلى عالم آخر مرفقاً بالأدوات الحجرية والأطعمة والحيوانات المقدسة عند الإنسان. فعمد إلى صبغ جسده بالألوان وظهرت معتقداته الروحية أيضاً في دفن الجماجم بصورة مستقلةٍ عن أجسادها مما يعكس اهتماماً بإمكانية احتوائها على الروح.

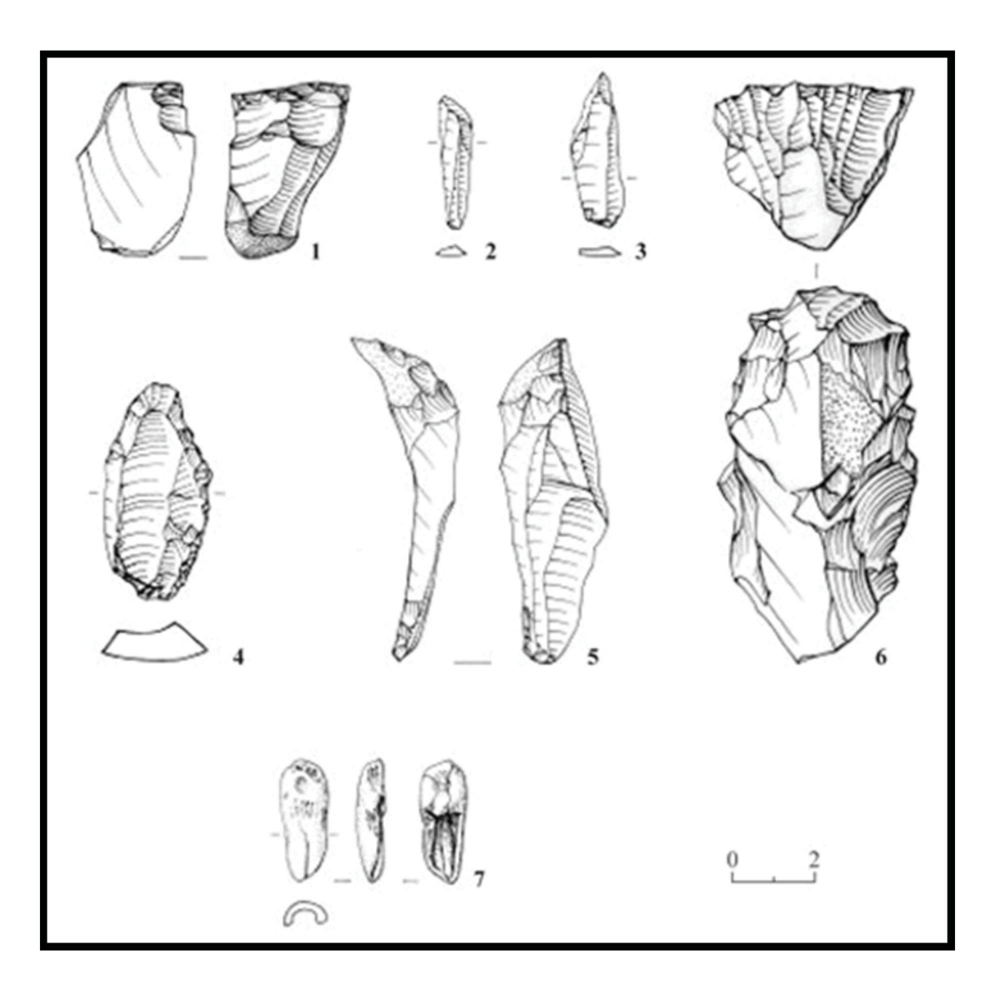
وإذا كانت المنجزات التي تحدثنا عنها أعلاه قد أُنجزت من قِبل النياندرتال الفلسطيني بشكل خاص فإن إنجازات الإنسان القديم الفلسطيني ما زالت قيد الدرس والبحث والتمحيص لكن السؤال الذي يبرز أمامنا واضحاً هو عن مصير هذا الإنسان وكيفية اختفائه من على مسرح الباليوليت الأوسط. وفي هذا الصدد وضع العلماء أربع نظريات لما آل إليه مصير الإنسان القديم الفلسطيني مع اقتراب الباليوليت الأعلى وهي:

1. أنه تطور تدريجياً ليتحول نهائياً إلى الإنسان العاقل بسبب قدرته الحضارية الفائقة وتطوره العقلي ووضوح تطور حضارته المادية وإضافاته التقنية على صناعة الأحجار.
2. أنه ذاب في جنس الإنسان العاقل عن طريق التزاوج معه والاندماج مع سلالته.
3. أنه انقرضَ نهائياً بسبب انقطاع ظهوره في العصور اللاحقة.
4. أنه انتقل إلى أوربا وربما تزاوج مع إنسان النياندرتال المحلي وقضى عليه واحتلّ مكانه.

ورغم أن هذه النظريات الأربع قائمة كلها، من حيث الاحتمال، إلاّ أن النظرية الأولى والنظرية الثانية هما الأرجح في هذه الاحتمالات.

3. الباليوليت الأعلى (40.000 -19.000) ق. م

بظهور الإنسان العاقل Homo Sapiens انتهى الباليوليت الأوسط في حدود 40.000ق.م وبذلك يكون الحد الأعلى للإنسان الحالي قد ظهر وساد وجه الكرة الأرضية، ومع ظهوره دخلت حضارة الإنسان في منعطف جديد مازلنا إلى يومنا هذا نقطف ثماره الحضارية.



أدوات حجرية من الباليوليت الأعلى

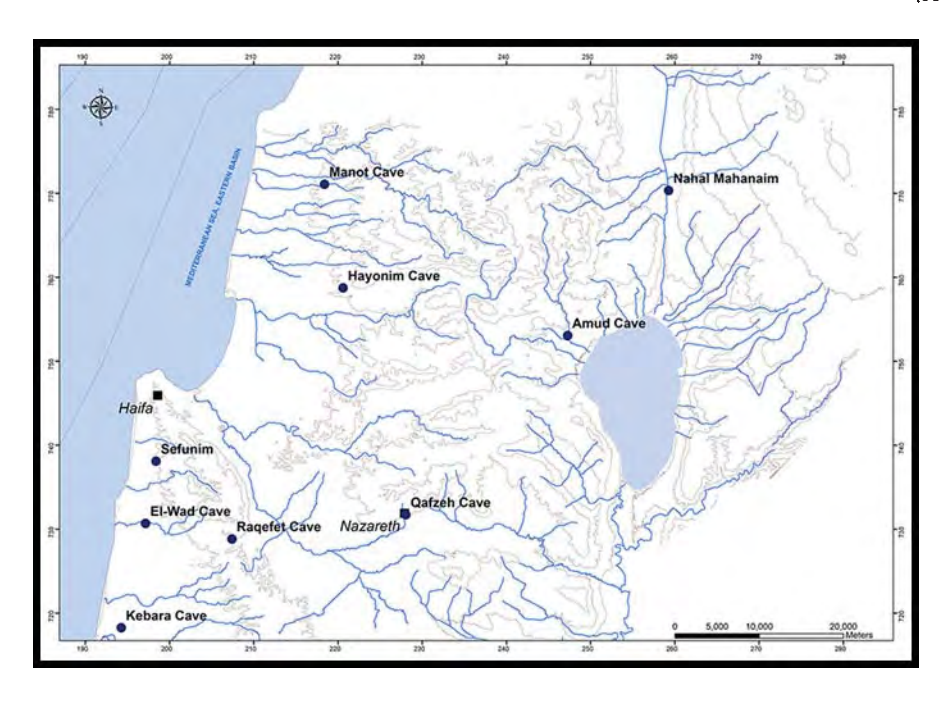
http://popular-archaeology. com/issue/march-2013/article/archaeologists-reopen-investigation-of-early-humans-at-manot-cave-in-israel

وإذا كان الباليوليت الأوسط مزدهراً في الشرق الأدنى بشكل خاص فإن الباليوليت الأعلى شهد في بدايته حدوث تغير مناخي جذري أضطر الإنسان في الشرق الأدنى وأفريقيا إلى الهجرة باتجاه أوربا وانتقال حضارته إلى هناك، وهو ما سبب جدباً حضارياً واضحاً في أصقاع الشرق الأدنى وأفريقيا وصعوداً حضارياً في أوربا.

يطلق العلماء على الأزمة المناخية في الشرق الأدنى بـ(أزمة الحيوان) والتي اضطرت الحيوانات غريزياً إلى الهجرة شمالاً باتجاه أوربا جارةً معها الإنسان الذي كان مرتبطاً بها وبوفرة النباتات والمياه على أرضه.

وهكذا رحل أو انقرض أو تطور إنسان فلسطين القديم وظهر مكانه الإنسـان العاقـل الـذي كيّـف نفـسه لمناخ صعب جديد في أرضه واستطاع هذا الإنسان، بحكم مؤهلاته البايولوجية أن ينتج حضارة جديدة مثل إنتاجه لنوعٍ جديد من النصال والأدوات الصوانية الصغيرة ذات الأشكال الهندسية المتعددة التي يمكن وضعها على سيقان من الخشب أو العظام أو القرون واستعمالها بطريقةٍ أفضل من أدواته السابقة. كما أظهر هذا الإنسان ميلاً واضحاً لبناء البيوت المستديرة، رغم أنه لم يهجر مغاور الكهوف تماماً بل ظلّ يستعملها، واستطاع إنسان الباليوليت الأعلى الأوربي، كما هو معروف، أن يُظهر مواهبه الفريدة في لوحات الكهوف والدمى الفينوسية كتعبير عن حسٍّ جـمالي وديني جديد وهو ما يفتقر له إنسان الباليوليت الأعلى الشرقي والفلسطيني.

على سفوح جبال القدس الشرقية ظهرت حضارة الباليوليت الأعلى المسماة بـ (الحـضارة الأحمريـة) نـسبة إلى كهفٍ في عرق الأحمر هناك. وهو الموقع النموذج لهذه الحضارة في فلسطين والتي توازي الحضارة الأورينياسـية في أوربا[15].



مواقع الباليوليت الأعلى في فلسطين

http://antiquity. ac. uk/projgall/marder337/

ومن المواقع الأخرى مغارة الوادي والكبارة والأميرة حيث نشهد ظهور حضارات العصر الحجري القديم الأعلى كلها. وعلى العموم، يقسّم العلماء هذه الحضارات في فلسطين إلى ثلاث مراحل على ضوء الأدوات الحجرية المستعملة:

1. المرحلة الانتقالية بين الباليوليت الأوسط والباليوليت الأعلى حيث ظهرت أدوات جديدة تعمل بعض المؤثرات الليفلوازية-الموستيرية، وتظهر آثارها في مغارة الأميرة في فلسطين (قرب بحيرة طبرية).
2. مرحلة الحضارة الأحمرية وهي باكورة حضارة الباليوليت الأعلى حيث ظهرت أدوات حجرية خاصة بهذا العصر مثل المكاشط والمخارز ذات الجبهة العريضة والنصال الطويلة والتي تسبه الأدوات الأورينياسية الأوربية، وقد ظهرت في كهف عرق الأحمر في فلسطين.
3. مرحلة الحضارة العتيليتية حيث ظهرت النصال الصغيرة والأدوات الدقيقة خصوصاً في مغارة (عتليت) في فلسطين وهي خاتمة الباليوليت الأعلى وتمهد للميزوليت.

ومن الجدير بالذكر أن الباليوليت الأعلى الأوربي ينقسم إلى أربع حضارات موازية للحضارة الفلسطينية وهي (البريگودية، الأوريناسية، السلوترية، المجدلينية) حيث تقابل البريگودية المرحلة الانتقالية في فلسطين، والأورينياسية المرحلة الأحمرية في فلسطين، والسلوترية المرحلة العتليتية في فلسطين، أما الحضارة المجدلينية الأوربية فلا يوجد ما يقابلها في فلسطين ومن المعروف أن أهم منجزات الحضارة المجدلينية الأوربية هي ظهور لوحات الكهوف والدمى الفينوسية على نطاق واسع.

فلسطين والقدس في العصر الحجري الوسيط (الميزوليت) **19000– 8000**ق.م

ما زالت الآراء متضاربَةً حول هذا العصر فمنهم من يرى أن هذا العصر يبدأ بـ(19000)ق. م ومنهم من يرى بدايته بـ (14000) ق. م ومنهم من يرى بدايته بـ(12000) ق,م ومنهم من يراها بـ (10000) ق. م وفريق آخر مختلف تماماً يرى أن لا وجود لعصر اسمه الحجري الوسيط (الميزوليت) في الشرق الأدنى، ويطلق على هذه الفترة اسم العصر الحجري القديم المجاور أو الخارجي (Epipalealithic) الذي يرتبط مباشرة بالعصر الحجري الحديث دون أن تكون هناك فترة وسيطة بين الحجري القديم والحجري الحديث.

لكننا نرى، متفقين مع فئةٍ كبيرة من العلماء، أن فلسطين شهدت عصراً حجرياً وسيطاً متميزاً جداً يـستحق أن نتوقف عنده. فالميزوليت الفلسطيني هو أساس حـضارة كانـت بمثابـة رد الفعـل عـلى الجفـاف الـذي ظهـر في الباليوليت الأعلى من جهةٍ وتقدمةً مهمة لظهور النيوليت الزراعي من جهة أخرى.

في هذا العصر انتهى جفاف الباليوليت الأعـلى في الـشرق الأدنى وفلـسطين بخاصـة وأصـبح للإنـسان، كـما للحيوان، المناخ الدافئ الذي يمكن فيه أن يمارس حياته بشكل صحيح وهكذا خرج الإنسان من الملاجـئ والكهـوف نحو ضفاف الأنهار وبنى له مساكن بدائية أدى تجمعها إلى نشوء ما يعرف بـ (قرى الصيادين) وكانت هذه القفزة الاجتماعية كفيلةً بظهور قدرات جديدة للإنسان تجلت بوضوح في الديانة من خـلال ممارسـات الـدفن والاهـتمام بالمقدسات الحيوانية، وفي الفن من خلال ظهور النقوش والدمى الطينية والعظمية.

ولعلّ أفضل تقسيم نلجأ إليه لتوضيح حضارات هذا العصر في فلسطين وبلاد الشام عامة هو تقسيمها إلى حضارتين متميزتين هما: الكبارية والنطوفية:

1. الحضارة الكيبارية

سُميت كذلك نسبة إلى مغارة كبّارة أو كبّارا في الطرف الغربي لجبال الكرمل حيث عُـثر عـلى أدوات وآثـار دالة عليها، وتمتاز هذه الحضارة الكبارية بمجموعة من الميزات الهامة التي يمكن تلخيصها بالنقاط التالية:

1. اسـتخدام الأدوات الحجريـة الدقيقـة (المايكروليثيـة Microlithic) إضـافة إلى الأدوات الحجريـة التقليديـة، وظهور الأدوات الزراعية البازلتية كالأجران والمدّقات والرحى لاستخدامها في التخزين وجرش الحبوب التي كانوا يقتاتون بها.

2. نزوح الإنسان من الكهوف إلى الوديان وبنائه للبيوت الدائريـة الـشكل المبنيـة عـلى شـكل حفـرة ذات جدران وأرضيةٍ من الطين والحجر وذات سقفٍ من الجلود والأغصان، ففـي (النقيـب) عـلى الـشاطئ الجنوبي- الشرقي لبحيرة طبرية اكتُشف أقدم بناءٍ معـروف في بـلاد الـشام حتـى الآن يعـود بنـاؤه إلى 14000 ق.م.

ومن هذه البيوت البسيطة إنـشاء الإنـسان الميزوليتـي الفلـسطيني مـا يعـرف بـــ(قـرى

الصيادين) التي أظهرت أول تجمعات كبيرة للإنسان في تلك العصور وهو ما جعله يطور قـواه الاجتماعيـة والدينية والفنية.

3. إضافة إلى صيد الحيوانات البرّية كالحصان والإبل ومحاولة استئناس بعضها كالكلب والماعز والماشـية اتجـه الإنسان نحو صيد الأسماك، واستعمال الحبوب الزراعية كوجبة في غذائه مما جعله يجمعهـا ويحفظهـا في أوعية حجرية وداخل أمكنة خاصة.

4. بعد أن كانت المرحلة الأولى من الحضارة الكبارية غـير هندسـية تطـورت إلى المرحلـة الثانيـة التـي تـسمى الكبارية الهندسية Kebarian Geometric حيث أصبحت أدواته الحجرية تأخذ أشكالاً هندسية واضحة مثل المثلث والمنحرف، وأصبحت لها قضبان خشبية أو عظمية واستخدمت في صيد الطيور والأسماك. وظهـرت أدوات جديدة كان أهمها المناجل الـصوانية التـي اسـتعملت في قطـع النباتـات وحـصاد القمـح والـشعير البريين[16].

5. تعدّ الحضارة الكبارية أول حضارةٍ شامية واسعة الانتشار انطلقت من فلسطين، فقد شملت بلاد الشام كلها من الفرات حتى سيناء وجعلتها وحدة حضارية متجانسة أظهرت تفوقـاً ماديـاً وروحيـاً واضـحاً قياسـاً إلى مقابلها أو مثيلاتها في الشرق الأدنى.



أدوات كيبارية مايكروليثية

http://www. aggsbach. de/2010/08/after-the-big-cold-kebaran-from-kebara-cave/

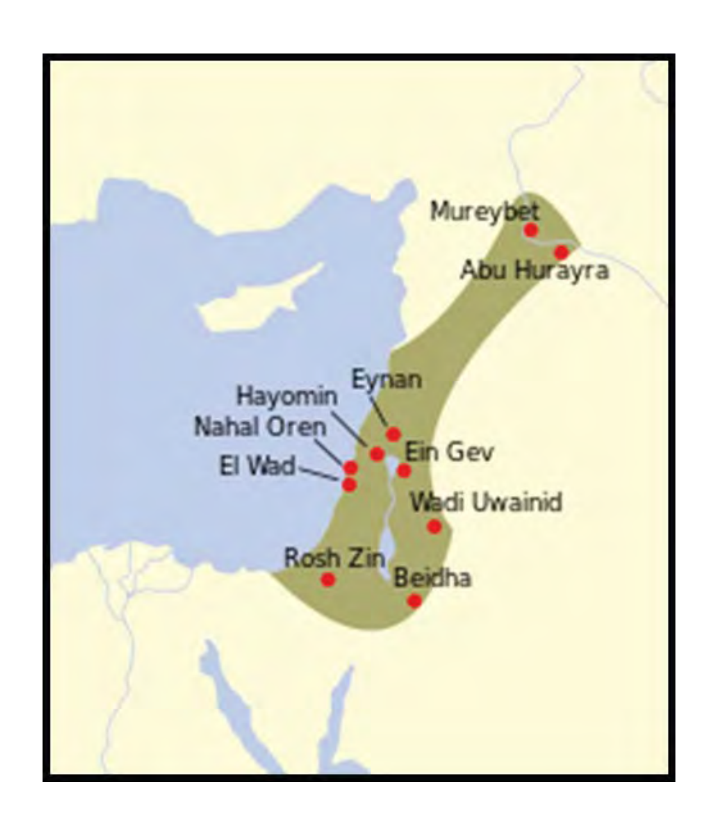
2. الحضارة النطوفية

دُعيت هذه الحضارة بالنطوفية نسبة إلى وادي (النِطوف) شمال غربي القدس الذي حوت فيه مغارة (شقبة) آثاره المتميزة، وهي استمرار نوعي للحضارة الكبارية، فقد أصبح الإنسان في وضعٍ أفضل من السابق بسبب اعتدال المناخ ووفرة النباتات المساهمة في القوت اليومي للإنسان كالقمح والشعير وانتعاش حياة الحيوانات اللبونة كالماشية والغزلان.

لقد انطلقت هذه الحضارة من فلسطين، وتحديداً من الجبال المحيطة بالقدس فعمّت غور الأردن أولاً ثم وصلت إلى سواحل المتوسط وزادت رقعتها فشملت بلاد الشام كلها، ووجدت آثارها في العراق وفي حلوان المصرية.

ويمكننا حصر ميزاتها الهامة بالنقاط التالية:

1. استخدام الأدوات المايكروليثية الهندسية المهذبة بطريقة خاصة ذات أشكال مثلثة ومربعة ومنحرفة وهلالية، ورؤوس السهام والأدوات العظمية والمخارز والإبر والصنانير وبعض العظام المزينة بإشارات ورموز وصور لرؤوس حيوانات. وهناك أيضاً الأدوات الزراعية كالمناخل والأجران.
2. استمر النطوفيون في بناء البيوت والأكواخ الكبارية الطابع وظهرت عدة قُرى نطوفية في أريحا ومغارة الواد (وادي الفلاح) القريبة من السهل الساحلي في جبال الكرمل والذي عُثِرَ فيه على بناءٍ كبير نسبياً قدّر الباحثون لأنه ربما استخدم كمعبد في العصر النطوفي، فقد وجد في جواره 14 قبراً من هذا العصر، كما وجد مقبض منجل عظمي عليه صورة غزال، عُثِرَ على مثيل له في مغارة كبّارة القريبة، أما في مغارة الواد فعُثِرَ على لوحةٍ حجرية نُحِتَ عليها رأس إنسان مبسط، فضلاً عن أدوات زينةٍ وخرزٍ وأطواق وأعلاق وحلق مصنوع من الصدف وغيرها[17].



مواقع الثقافة النطوفية في فلسطين

https://en. wikipedia. org/wiki/Natufian_culture

وقد عُثر في أريحا على نماذج من الأضرحة النطوفية وكان بعضها يحتوي على الفجوات المستديرة على الأرض المطلية بالجص والتي ربما كانت للتخزين، وكذلك الجاروشة التي اعتبرت دليلاً على إعداد الأغذية النباتية والقلائد المحارية، وقد صُبغت الهياكل البشرية باللون الأحمر (شكل 1).



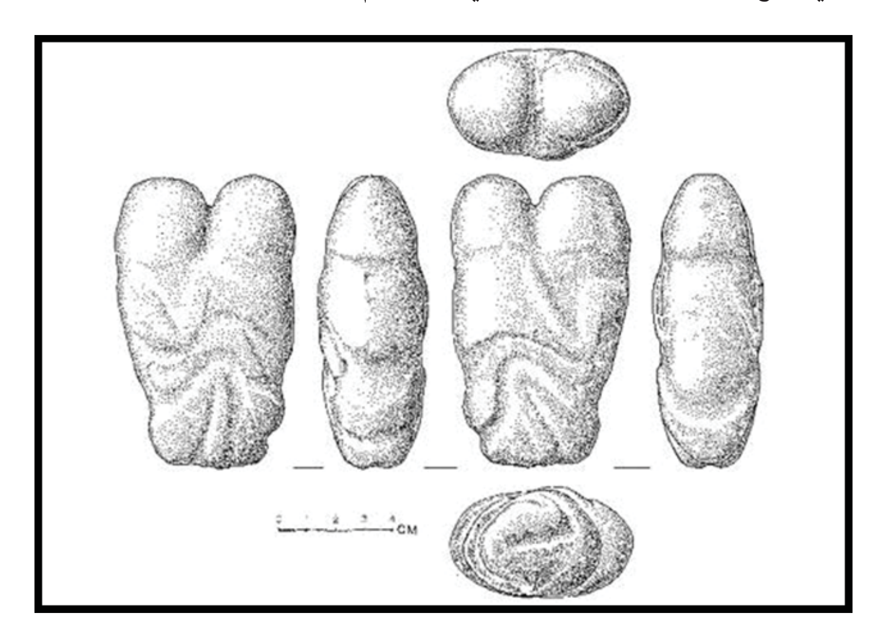
(شكل 1): ضريح نطوفي قديم في أريحا تمثل الفجوات المستديرة على الأرض المطلية بالجص حفراً للتخزين، الجاروشة دليل إعداد الأغذية النباتية وعلى زراعتها في الألف التاسع ق. م



مقبرة نطوفية في كهف الكرمل

http://www. archeolog-home. com/pages/content/carmel-caves-israel-prehistoric-men-held-wakes-for-the-dead. html

3. وهكذا تطورت القوى الفنية النطوفيـة وظهـرت تماثيـل حيوانيـة (الغـزال والكلـب) مـن ناحـال أورون وأم الزويتية، وتماثيل إنسانية مثل التمثال المتميز من موقع (عـين صـخري) الـذي يـسمى مجـازاً (العاشـقان) والذي يجمع شخصين (ربما كانا ذكراً وأنثى) في حالة التحام وعناق وجهاً لوجه (أنظر شكل 2).



شكل (2) تمثال (العاشقان) من عين صخري في فلسطين

http://www. bbc. co. uk/ahistoryoftheworld/ objects/vNEwNR8rSzGPSwSn3yeJwA

4. كذلك تطورت الحياة الروحية النطوفية وظهرت في شكلين أساسيين هما المدافن والأنصاب الميغاليثيـة، فقـد ظهرت مقابر كبيرة بُنيت جوار القرى وتزودت بأشياء عديدة تدل عـلى قداسـة الحيـاة الأخـرى، وفُـصلت الجماجم بعناية، ودُفنت تحت أرضيات البيوت مما يشير إلى تقديسهم للموتى وللأجداد.

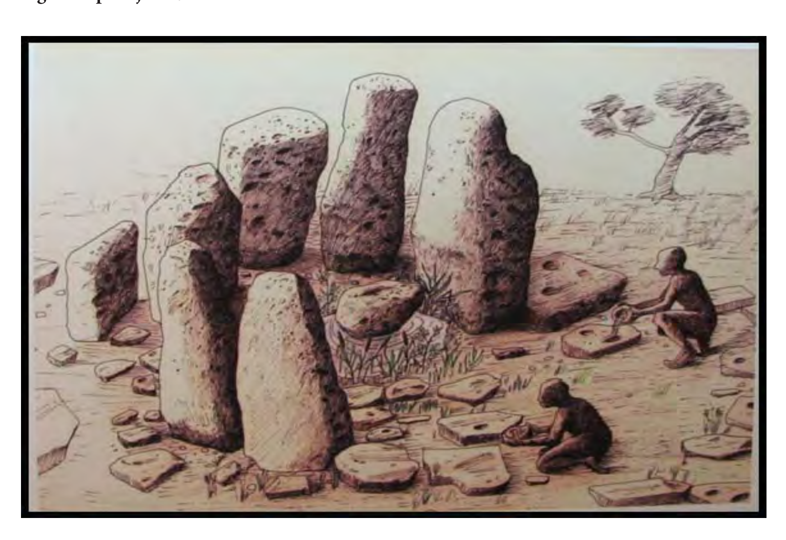
أما الأنصاب فأمر مختلف عليه إذ يرى بعض الباحثين أنها تعود للعـصر الحجـري النحـاسي لكننـا نـرى أن بداية ظهورها كانت في العصر النطوفي، حيث ظهرت الأنصاب المفردة التي تسمى المانهير (Menhir) وكذلك ظهرت بعض المناضد الحجرية أو الدولمن (Dolmen) التي تشير إلى عبادة الأحجار الكبيرة (الميغاليثية Megalithic)[18] والتي كانت غالباً ما تقرن بالتضحية والقرابين الحيوانية وأماكن عبادة العراء وربما القبور الكبيرة، ونرى أن هذه الأنصاب

(المنتشرة في الأردن وفلسطين) كانت الجذر البدائي لما ظهر فيما بعد عند الأموريين والكنعانيين تحت اسم (هياكل العراء). (شكل 3)



دولمن في فلسطين

http://www. hetgrotereplaatje. nl/atlantis. html

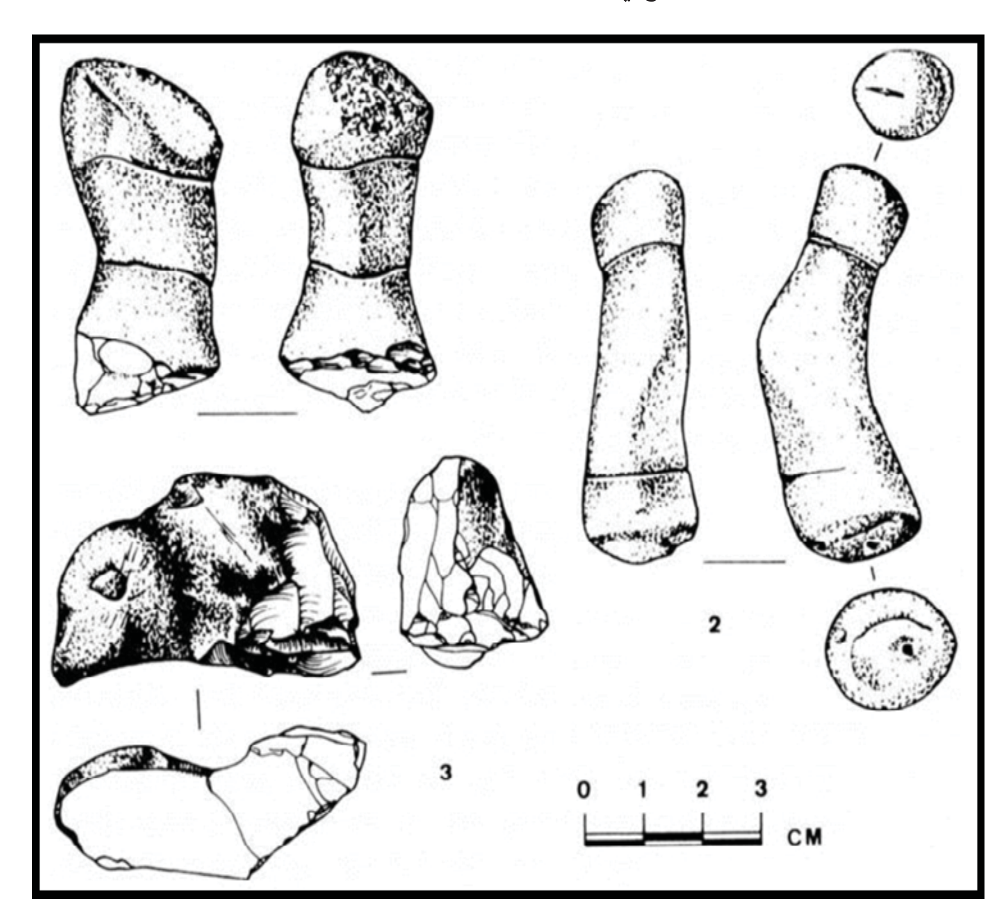


شكل (3) ميغاليث فلسطين عند أتليت يام Atlit Yam

https://en. wikipedia. org/wiki/Megalith

5. اتجه الإنسان النطوفي نحو الحيوانات المستأنسة أكثر من الحيوانات البرّية، وهو ما تدل عليه بقايا الحيوانات المتخلفة عن ذلك الزمن، وهذا يشير إلى رسوخ حياة الاستقرار وهجران حياة الترحال والصيد.

6. تُعدّ الحضارة النطوفية ثاني حضارة شامية واسعة الانتشار وقد انطلقت أيضاً، مثل سابقتها الكبارية، من فلسطين فقد شملت بلاد الشام كلها منذ مطلع الألف العاشر وامتدت آثارها بين وادي النيل غرباً (حلوان) وإلى نهر الفرات شرقاً، حيث انتشرت القرى النطوفية حول نهر الفرات في (المريبط) و(أبو هريرة)، فضلاً عن عشرات المواقع في فلسطين والأردن ولبنان وسوريا.



أدوات نطوفية من كهف الواد في فلسطين

http://www. mdpi. com/2076-0752/2/2/46/htm

فلسطين والقدس في العصر الحجري الحديث (النيوليت) **8000 – 5000** ق.م

يبدأ العصر الحجري الحديث (النيوليت) عندما بدأت ملامح الحضارة النطوفية بالتغير والانتقال التدريجي نحو اكتشاف الزراعة.

كان اكتشاف الزراعة أعظم منعطف للبشرية منذ ظهورها لأنه حوّل الإنسان من مستهلكٍ للغذاء إلى مُنتجٍ للغذاء، وفصله تدريجياً عن نمط العيش الحيواني وعن النوم الكسول في رحم الطبيعة والتقاط ثمارها، فكأنه كان جنيناً داخل رحمها وكأن الزراعة كانت بمثابة ولادته الحقيقية.

ولقد دار نقاش واسع وكبير حول مراكز اكتشاف الزراعة في العالم وأسبقيتها وهو نقاش يصعب علينا ذكره هنا، لكننا، بخلاصة شديدة، نقول أنه يرتكز على أساس أن الزراعة اكتشفت في الألف الثامن قبل الميلاد في مركزين أساسيين هما الشرق الأدنى ثم الشرق الأقصى. فقد شهد الشرق الأدنى بمراكزه المتعددة أولاً هذا الاكتشاف ثم انتقل إلى الشرق الأقصى في الصين وتايلاند عندما زُرع الرز لكنه ظلّ محدوداً هناك.

المركز الأهم هو الشرق الأدنى الذي حصل فيه اكتشاف الزراعة في عدة أماكن في وقت واحدٍ تقريباً تمتد في إيران (موقع تبه لوران) حتى شمال العراق (ملفعات وجرمو وكريم شهر) وجنوب الأناضول (شتال حيوك) نزولاً إلى (تل المريبط) على نهر الفرات في سوريا ثم إلى (أريحا) في فلسطين و(البيضا) في الأردن. وكانت الحنطة والشعير أهم المزروعات الأولى في هذه المواقع.

ويشير هذا القوس (من إيران إلى فلسطين) إلى منطقة امتداد واسعة كانت كلها مهيأة لاستقبال اكتشاف الزراعة، ولا نريد هنا أن نخوض في ذكر التفاصيل الصغيرة لأسبقيات موقع أو آخر لأن هذا خارج مبحثنا هنا. لأننا نود التأكيد على أن مواقع الشرق الأدنى هذه وغيرها كانت بؤرة انتقال الزراعة شرقاً إلى الهند وشمالاً إلى شبه جزيرة البلقان وأوربا وغرباً إلى مصر، وكلها استقبلت هذا الاكتشاف بعد مرور ألفين أو ثلاثة آلاف سنة على ظهوره في الشرق الأدنى.

ينقسم النيوليت الفلسطيني إلى عدة مراحل هي:

(1) النيوليت الانتقالي: وهو أول عتبةٍ الانتقال من الميزوليت إلى النيوليت والذي حصل في

حدود 8000ق. م وتمثله بامتياز مستوطنة (أريحا) التي عاصرت مستوطنات أخرى حصل فيها هـذا الانتقـال.

وعلى ضوء الآثار والتنقيبات ينقسم النيوليت الانتقالي في فلسطين إلى أربع حضارات متزامنة هي:

أ. حضارة أريحا: التي تمثلها مستوطنة أريحا الزراعية.

ب. الحضارة الساحلية: التي يمثلها موقع وادي الفلاح على ساحل المتوسط قرب حيفا.

ج. الحضارة الخيامية: التي يمثلها موقع الخيام غرب البحر الميت.

د. الحضارة الطاحونية: التي يمثلها موقع وادي الطاحون في جبال القدس.

وفي هذا التقسيم ما يشير إلى أن الحضارة النطوفية ذات الاستيطان المتنقل قد أخلت مكانها لـثلاث أنـواع من المستوطنات الزراعية: ساحلية في وادي الفلاح، وجبلية في وادي الطاحون وغورية في أريحا.

ويتفق الباحثون أن حضارة أريحا تمثل هذه الحضارات خير تمثيل " ففي تل السلطان، موقـع أريحـا القريـب من عين السلطان، توجد آثار المدينة الوحيدة المعروفة حتى الآن في العالم والتي يعـود تاريخهـا إلى مـا قبـل 9000 عـام وهذه المدينة المسوّرة، سبقـت بـ 4000 عام أي استيطان مدني معروف حتى الآن، ولـذلك فهـي تـشكل أُحجيـةً أثريـة، تُثير الكثير من التساؤلات التي لم يتفق الباحثون على الإجابة عنها، أو على تقـديم تفـسير متماسـك ومنطقـي لازدهـار مدينة كهذه في ذلك الزمان والمكان"[20]. والحقيقة أن التقدير الحالي لعمـر مدينـة أريحـا أقـل مـن ذلـك بكثـير. فهـي كمستوطنة زراعية ظهرت في حدود 8000 ق. م ولكنها كمدينة ذات أسوار وأبـراج ظهـرت في حـدود 5000 ق. م وهـو زمن يتوازى مع ظهور مدينة أريدو جنوب العراق. ومع ذلك فإن مدينـة أريحـا تـشكل حقـاً أعجوبـةً أثريـة سـواء في كونها مستوطنة زراعية أو مدنية عامرة ولذلك نودّ أن نثبت الخصائص الآتية حول مستوطنة أريحا الزراعية أولاً:

1. ينخفضُ موقع أريحا في تلا لسلطان بنحو 275م تحت سطح البحـر، ولا يزيـد معـدل هطـول الأمطـار عـن.. 1ملم سنوياً، وهنـاك نبـع مـاءٍ مجـاور لهـا عـثر قربـه عـلى بقايـا بنـاءٍ ربمـا كـان معبـداً ينتمـي للحـضارة النطوفية[21].

2. يحيطُ بمستوطنة حيفا سورٌ يعود إلى الألف الـسابع قبـل المـيلاد ويقـوم عليـه بـرجٌ عـالٍ ويبلغ طول السور حوالي 700م، ويبدو لنا السور وهو محصن بطريقةٍ كبـيرة ربمـا كانـت لأغراض دفاعية ويحيط به خندقٌ محفور في الصخر عرضة 3.2م وعمقه 2.75م، ويتكـون

السور من جدار سمكه 3م بقيت منه أجزاء على ارتفاع 5م. أما البرج فدائري الشكل قطر قاعدته 12م وقطر قمته 9م وارتفاعه 9.15م وفي داخله درج يحتوي على 22درجة[22].

والحقيقة أن سور وأبراج وخندق أريحا هي التي تشكل أعجوبة هذه المستوطنة إذ كيف يتأتى لقوم في العصر الحجري الحديث التفكير في بناء سور حول مستوطنة زراعية وهو ما لم نألفه في بقية مستوطنات النيوليث الزراعية في الشرق الأدنى كله، ونرى أن وجود السور حول المستوطنة الزراعية هو الذي عجّل بتحويلها إلى مدينة ظهرت في نهاية النيوليث أو مع بداية الكالكوليت. رغم أن كنيون ترى أن هذا السور هو جزءٌ من المعمار النطوفي[23].

3. تبلغ مساحة المستوطنة داخل السور أكثر من 40 دونماً يتمركز فيها معبد وخزان مياه ويقدر عدد سكانها بـ(3000) نسمة، وتظهر بيوت المستوطنة مؤلفة من غرفتين أو أكثر مبنية من اللبن المسطح المحدّب وجدرانها مائلة إلى الداخل وسقوفها مقببة وأرضياتها من الطين المدكوك، وهناك منازل مستطيلة ذات جدران مطلية بالجص، وقد عُثِرَ في غُرف البيوت والمعبد على تماثيل بشرية وحيوانية.

4. كُشف في فترة مبكرة من النيوليت في أريحا عن مجموعة من الجماجم البشرية المفصولة عن أجسادها والمطلية بالجص من الداخل والخارج وقد ثُبتت الأصداف على العيون وكان منظرها لافتاً للانتباه مما جعل العلماء يفكرون بأنها ربما تكون جزءً من (عبادة الجماجم) أو (عبادة الأسلاف).

5. كشفت (كنيون) عن بناء صغير رأت أنه يشكل مكان عبادة أسمته بـ (المصلى العائلي) ثم كشفت عن مكان أوسع دعته بـ (المزار).

ولاشك أن ظهور أريحا بهذه الطريقة في ذلك الزمن أمرٌ محيرٌ فعلاً، إذ كيف تسنى لسكانها بلوغ هذه المرحلة من التطور والنيوليث مازال في بواكيره الأولى وهل يمكن أن تظهر القرية والمدينة في مكان واحد بهذه الطريقة؟ ثم لماذا لم يستمر إشعاع مدينة أريحا الحضاري في عصر المدينات الأولى التي ظهرت في العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت)؟

هذه الأسئلة يمكن أن نجيب عليها إذا جمعنا مشهد النيوليث كاملاً في حدود الألف

السادس قبل الميلاد في الشرق الأدنى. حيث سنرى أن هناك ثلاثة مواقع كبرى للنيوليث شهدت، دون غيرها، نوعاً من التوسع والتطور الواضحين وهي: أريحا في فلسطين وشتال حيوك Catal Huyuk في جنوب وسط تركيا وسامراء في أسفل شمال العراق. لكن سامراء وحدها هي التي استمرت حضارياً ومدت عصر الكالكوليت بمادة المدينة وما يسمى بعصر المدينة ذلك لأنها كانت نتاج تطور حضاري بطئ بدأً من جرمو في شمال العراق واستمر بفعل الحاجة للتطور الزراعي. أما أريحا فقد كانت ذات طبيعة تجارية وشتال حيوك ذات طبيعة دينية.. وهذا ما جعل تقدمها إلى الأمام مشوباً بالصعوبات، أي أن القفز على النشاط الزراعي عطّل التطور التدريجي البطيء نحو المدينة حتى لو تغيرّ المكان كما حصل في سامراء.

(2) النيوليت الزراعي: وهو الزمن الذي أُكتشفت فيه الزراعة واستعملت بشكل واسع، وتكونت مستوطنات وقرى زراعية في حدود 7700 ق. م. وقد كانت بلاد الشام في طليعة الأماكن التي ظهرت فيها الزراعة مبكراً في الشرق الأدنى القديم، ولعل مستوطنات مثل المريبط وتل الشيخ حسن وتل أسود في سوريا نماذج واضحة على مثل هذا التطور، أما في فلسطين فقد تطورت مستوطنات نيوليت التحول السابقة والحضارات الزراعية الأربع بهذا الاتجاه وخصوصاً وادي الفلاح.

(3) نيوليت ما قبل الفخار: وهي المرحلة التي استغرقت الألف السابع قبل الميلاد، وقد كانت قصيرة في سوريا أما في فلسطين فقد استغرقت وقتاً أطول. ويعتبر موقع (أبو غوش) بالقرب من القدس الموقع النموذج لها حيث استغرقته الحضارة الطاحونية.

(4) النيوليت الفخاري: تأخر ظهور الفخار في فلسطين عن بقية بلاد الشام، ويرجّح أنه انتقل من سوريا إلى فلسطين، وظهرت في فلسطين ثلاث حضارات فخارية هي:

أ. الحضارة اليرموكية: التي ظهرت في دلتا اليرموك، ومثلها في فلسطين موقع (تل الاقحوانة). وفخار هذه الحضارة يشبه الفخار السوري، لكن الحضارة اليرموكية أظهرت آثاراً متميزة وتماثيل مصنوعة من الطين والحجر لرؤوس نساءٍ ودمىً نسائية تشير إلى الآلهة الأم بالإضافة إلى بعض الدمى الحيوانية وجميعها يشير إلى علاقة بالخصوبة. وفي الشكل (4) نلاحظ مجموعة كبيرة من هذه الدمى والأدوات الصوانية كالمقاشط والنصال وكسر الفخار الذي يشير إلى جرار مخططة وأنواعا لحلي والدمى البشرية التي تمثل

وجوهاً أو أجساداً منها ذلك الوجه اليرموكي المتميز ذات العينين المائلتين والرأس الطويل (رقم 1). وغيرها.



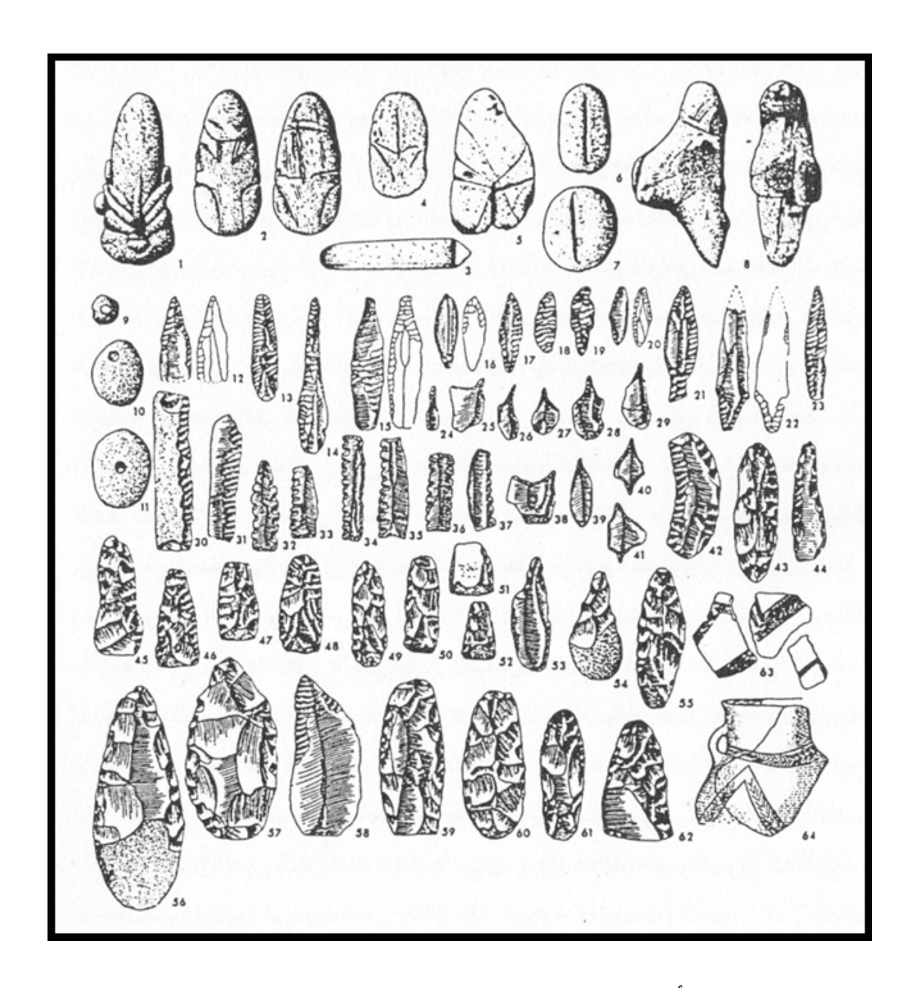
بدايات عصر الفخار مزيناً بأشكالٍ هندسية ملونة

http://www.crystalinks.com/jericho.html



جرة من الثقافة اليرموكية في شار هاجولان

https://en.wikipedia.org/wiki/Yarmukian_culture



شكل (4) مجموعة من الدمى والأدوات الصوانية والفخارية والطينية التي تمثل الحضارة اليرموكية من موقع تل الاقحوانة (شعار هاجولان) في فلسطين وهي لفترة العصر الحجري الحديث المتأخر الاول.

المرجع: إبراهيم، معاوية، الموسوعة الفلسطينية. القسم الثاني. المجلد الثاني 1990، ص46.

ب. الحضارة الساحلية: وخصوصاً في وادي رباح بالقرب من رأس العين حيث تطور الفخار في هذه الحضارة وتغيرت ألوانه وزخارفه، ومعه تطور مستوى السكن فاستبدلت البيوت المستديرة ببيوت مستطيلة ذات غرفتين أو ثلاث.

ج. الحضارة المنحطية: وتركزت في منطقة المنحطة في غور بيسان (جنوب بحيرة طبرية) ومجدّو وتل بلاطة وتل الفارعة وغيرها، وفيها ارتقت صناعة الفخار إلى مستوى جيد ظهرت فيه الزخارف.

لقد أظهر تقرير لكل من (ماكاليستر ودنكان) في حفرياتهما عند جبل أوفل في القدس وجود كسرٍ فخارية ذات حبل فخاري Cord Pattern Design تعود لمرحلة العصر الحجري الحديث. وهو ما يشير إلى وجود سكن وحضارة في مدينة القدس في هذه المرحلة[23].

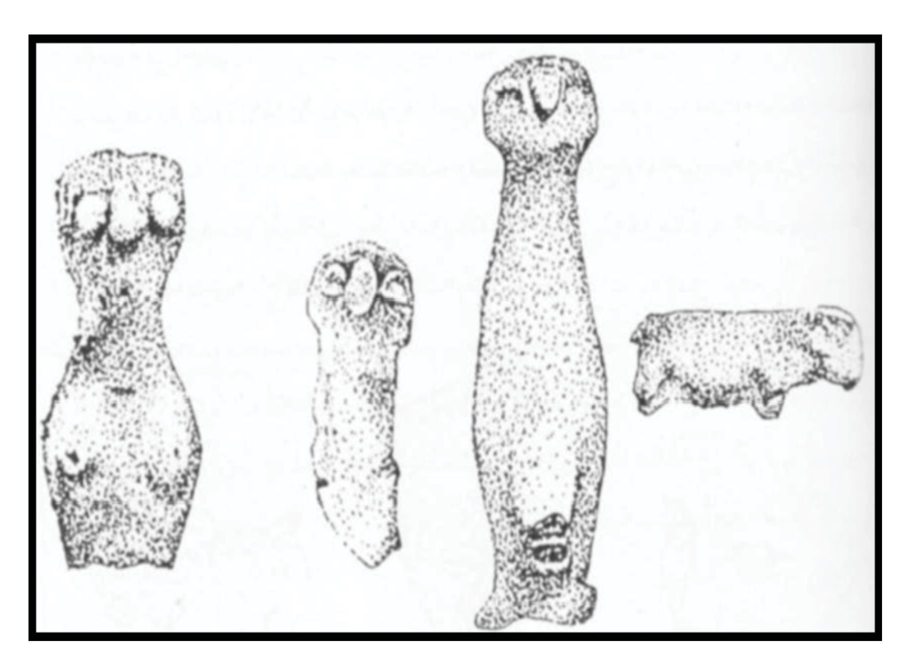
ويمكننا إجمالاً صياغة مجموعة من الميزات العامة التي يمتاز بها عصر النيوليت الفلسطيني وهي:

1. تنحصر (الثورة النيوليتية) جوهرياً في اكتشاف الزراعة وتحوّل الإنسان من الاقتصاد الاستهلاكي إلى الاقتصاد الإنتاجي، فإذا كان الإنسان يعيش على صيد الحيوانات البريّة والطيور والأسماك وجمع القوت النباتي كالثمار والحبوب والخضار، فإنه في النيوليت بدأ يتحكم في غذائه، وأخذ ينتج محاصيله التي يريد بصورة منتظمة، كذلك تحكم بالحيوانات الأليفة التي دجّنها وأخذ يستفيد من إنتاجها ومن لحومها ولعلّ أفضل هذه الحيوانات هي الماشية وأفضل هذه المزروعات هي الحنطة والشعير.
2. تحولت الحياة الاجتماعية وتماسكت العائلة ثم القبيلة ثم المجتمع القروي ونشأت العادات والقوانين وظهرت المؤسسات الإدارية والسياسية. ثم ظهرت الحرف المتخصصة كصناعة الأدوات الزراعية وصناعة الملابس وصناعة السلال والصناعات الحيوانية البدائية، وأخذت المرأة دوراً متميزاً في المجتمع النيوليتي وذلك لتقارب وظيفتها الإخصابية من الزراعة.
3. ازداد الاستقرار السكاني في القرى وبدأ الإنسان باستخدام التبن مع الطين في بناء جدران مساكنه، وبدأ يرصف أرضياتها بالحجارة، وطليت الجدران وازدادت عدد الغرف وتخصصاتها.
4. تغيرت الأدوات الحجرية وظهرت أدوات (الحجر المصقول) حيث اتسع صنع أدوات الإنسان الزراعية منها، ومن جهة أُخرى طوّر الإنسان أسلحته فاستخدم النبال والأقواس لأول مرة وبها سيطر أكثر على صيد الحيوان، وظهرت أنواع جديدة من المثاقب والمكاشط والسكاكين والأواني الحجرية الزراعية الجديدة، ثم أصبح (الفخار) أهم مبتكرات النيوليت وتنوعت استعمالاته.
5. ظهرت في النيوليت عبادة جديدة ومعتقدات دينية مختلفة عن سابقاتها، فقد تمحورت هذه العبادة حول مبدأ الخصب بسبب ما منحته الزراعة من معطيات تتعلق بالبذار والنمو والزرع. وهكذا ظهرت الديانات الطبيعية التي تنادي بالأرض كأم كبرى منها كل شئ ويعود لها كل شئ،

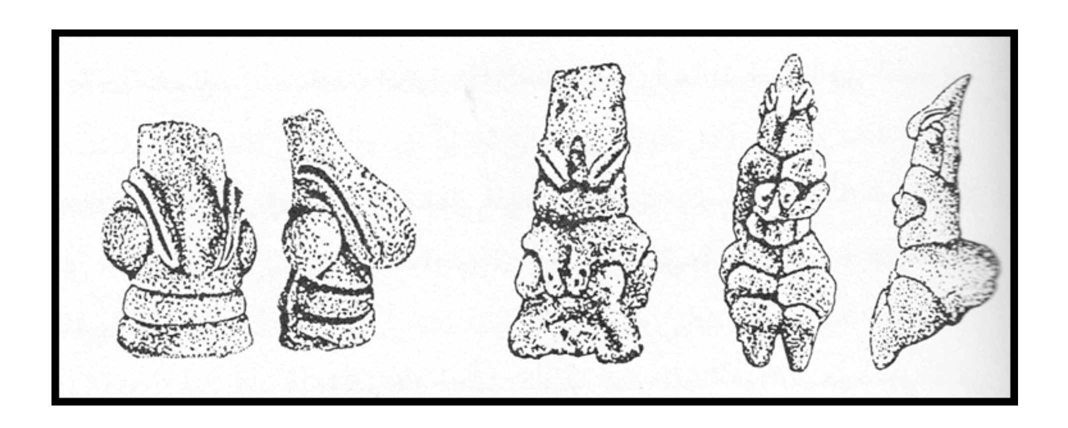
وأخذت عبادة الأرض تتماهى في شخصية المرأة الأم التي اعتبرت أمّاً كبرى أيضاً تشبه الأرض، وإنها المنجبة للأبناء مثل الأرض المنجبة للزرع (ولم يكن الرجل يعرف دوره في الإنجاب بعد). وهكذا ظهرت، من اندماج الأرض بالأم، ما يسمى بـ(الآلهة الأم) التي أصبحت مبدأ الإخصاب الكوني بأكمله.

وفي فلسطين زودتنا آثار موقع المنحطة بتماثيل شبيهة بالإنسان والحيوان من عصر ما قبل الفخار، وكانت هذه التماثيل تؤكد عل الأعضاء الأنثوية مع عيونٍ وأنوفٍ مضخمة وأجساد تشبه الديدان الكبيرة (شكل 5).

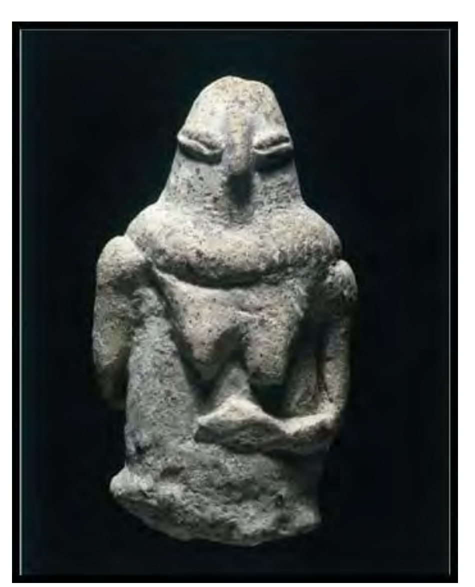
وظهرت في المنحطة وشعار هاجولان تماثيل حصوية تمثل الأنثى والذكر، ثم أطلق عليها اسم (الأم الرهيبة Mere terrible) فقد جمعت الإلهة الأم في هذه التماثيل قوى الرجل والحيوان والقوى الشيطانية التي تظهر في الشكل المخيف والغريب لهذه الإلهة، فالرأس يظهر مثل كتلةٍ هرميةٍ أو اسطوانية وهو مزود بأنف كبير مدلى وعيون عرضية مائلة إفعوانية المنظر، وتتكون قطع الجذع من أقسامٍ تتوسطه أثداء بارزة، أما قطعة الأرداف فتظهر بارزة واضحة تلتصق بها من الأسفل قطعتا الساقين المدببين من الأسفل (شكل 6).



شكل (5) تماثيل الإلهة الأم الشبيهة بالحيوان والإنسان من عصر النيوليت ما قبل الفخار/موقع المنحطة.



شكل (6) تماثيل (الأم الرهيبة) التي تجمع بين قوى الذكر والأنثى والحيوان/موقع المنحطة في فلسطين.





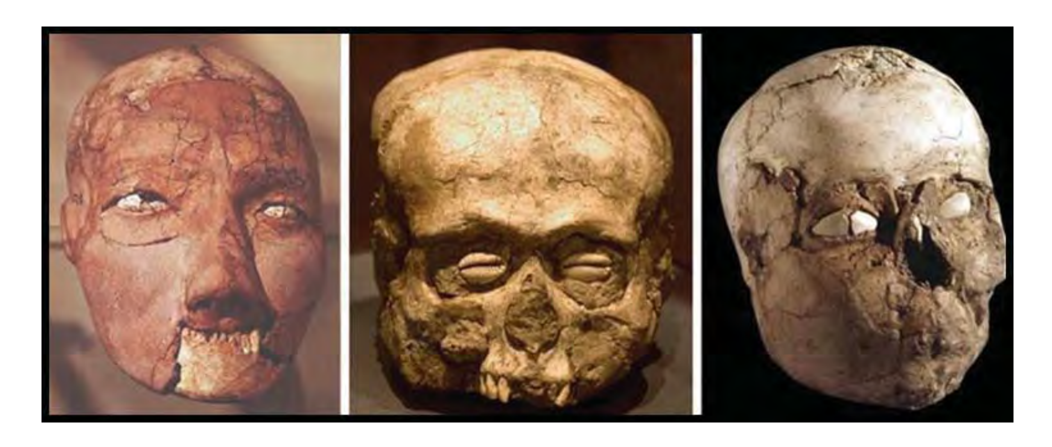
منحوتتان للإلهة الأم من شعار هاجولان

https://en. wikipedia. org/wiki/Yarmukian_culture

وكنا قد أشرنا إلى الدمى والتماثيل الصوانية والطينية اليرموكية من موقع تل الأقحوانة (شعار هاجولان) منها وجه إله أو رجل على طريقة الإلهة الأم وبعض الأجساد الأنثوية وتمثيلات الوجه على الحصى.

وظهرت مع عبادة الإلهة الأم (عبادة الجماجم) في أريحا بشكل خاص، فقد دفنت عدة جماجم مفصولة عن أجسادها بعناية خاصة وطليت من الخارج والداخل بالجص والطين وملئت

محاجر العيون بأصداف تعطي شكل البؤبؤ، ثم طلي الوجه بلون يشبه لون البشرة، وحُشّيت الجمجمة من الداخل بالطين المدكوك. (شكل 7).



شكل (7) جماجم منفصلة عن أجسادها ومحشوة بالطين عُثر عليها في أريحا (نيوليت ما قبل الفخار).

http://www. crystalinks. com/jericho. html

وهناك رأيان أو أكثر في ظهور جماجم من هذا النوع، حيث يرى (كوفان) بأنها تحملُ دليلاً على ما يمكن تسميته بـ (عبادة الجماجم) التي تجعل من الرأس مقراً للروح أو وعاءً للقوة المقدسة[24].

أما (كنيون) فترى بأن هذه الجماجم حُفظت كأوعية لقوة مقدسة غير محدودة، وعلى الأرجح فإن إجلال أرواح الأفراد الموتى أو الأجداد كان الدافع لذلك[25].

أما (فراس السواح) فيرى أن ظهور التشخيص في مثل هذه الجماجم ومحاولة الإنسان تشكيل ملامح وجه إنساني هو بدء ظهور فكرة الإله، حيث دخل الفكر الديني مرحلة التشخيص، تشخيص القوة غير المشخصة (سواء عن طريق تشكيل الجماجم أو تشكيل الحجر والصلصال فيما بعد).

وأخذ الإنسان ينظر إلى القوة من خلال تمثيلات مشخصة وشيئاً فشيئاً تحولت القوة إلى شخصيات ذات قوة، وتكسّر مبدأ القوة السارية إلى عدد من القوى، وظهرت الآلهة[26].

ونرى أن حفظ الجماجم هو نزعه باليوليتية قديمة من نزعات الخلود التي تركزت في محاولة حفظ الجزء الحيوي الذي تستقر فيه الروح، وهو الجمجمة، ولعلّ حفظها ودفنها بعناية

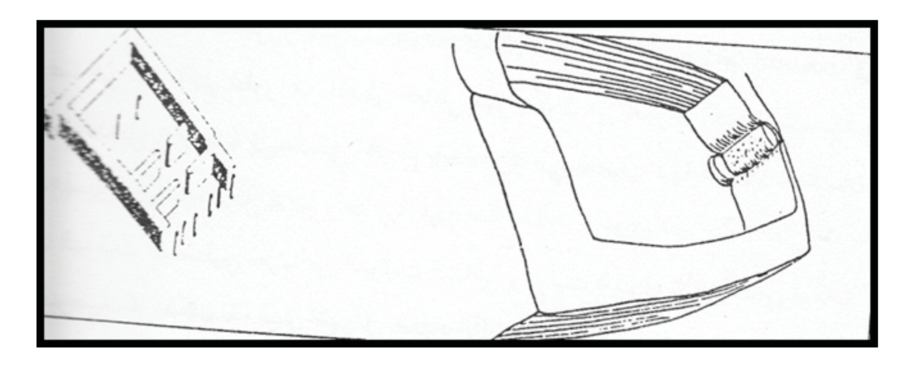
يمكّن صاحب هذه الجمجمة من العودة إلى جسده بعد الموت ومواصلة الحياة، وهم بذلك يسبقون، بكثير، المعتقد المصري الخاص بالتحنيط وحفظ الجسد لما بعد الموت.

وتشكل جماجم أريحا النيوليتية مرحلة متطورة لهذا المعتقد، بعد أن تفنن الإنسان في تزيين وطلي وحفظ الجماجم.

ومن مظاهر الديانة الفلسطينية النيوليتية ظهور المصلى العائلي في أريحا، ولا نسميه معبداً لبساطته وبدائيته، فقد كشفت (كنيون) عنه في حفرياتها بأريحا، وهو مكون من باحة مستطيلة يظهر على الجدار القصير الأمامي لها نصبٌ صغيرٌ مثبتٌ في حنية الحائط، وقد شبهته كنيون بالنُصب المسمى (مسبوث Messeboth) لدى الساميين، ثم كشفت في أريحا أيضاً عن مزار أكثر تطوراً من المصلى العائلي فهو يتكون من مجموعة أعمدة تشرف على باحة المدخل، ثم بوابة إلى مدخل آخر ثم باحة المزار التي ينتصب فيها عمودان مقدسان يشبهان المسبوث أيضاً (شكل 8).

5. كان النيوليت الفلسطيني جزءًا من النيوليت الشامي ونيوليت الشرق الأدنى بصورة عامة رغم خصوصية كل مكان، والذي ظهر في حدود الألف الثامن قبل الميلاد، وكان نيوليت الشرق الأدنى مهداً حضارياً انتشر نحو آسيا باتجاه الهند ونحو أوربا باتجاه البلقان ونحو أفريقيا باتجاه مصر، فقد انتشر اكتشاف الزراعة بهذه الاتجاهات وانتقلت معها محمولاتها الحضارية والدينية والفنية.

ولاشك أن منطقة نيوليت الشرق الأدنى، من إيران إلى تركيا إلى شمال العراق إلى بلاد الشام حتى فلسطين، كان يشكل قوساً نابضاً بالحياة والحضارة وهو الذي أصبح مهد الحضارات التاريخية اللاحقة.



شكل (8) المصلى العائلي (صورة وتخطيط) حيث يظهر المسبوث والمزار. أريحا. فلسطين.

الأقنعة الحجرية:

مجموعة نادرة من الأقنعة الحجرية تعود لحوالي 7000ق.م، وهي أقدم أقنعة معروفة حتى الآن، وعددها 12 قناعاً تعود للعصر الحجري الحديث عثر عليها عند مايعرف الآن بجبال يهوذا والقريبة في صحراء يهوذا.

أقنعة كبيرة لافتة الثقوب وأفواه فاغرة من أقنعة الحجر الجيري تبدو وكأنها جماجم بشرية. وربما كانت أقنعة تمثل جماجم بشرية لبعض الأموات وهي أيضاً تمثل شكلاً من أشكال رموز الأجداد.

يفترض الخبراء أنهم جميعا من الذكور وأن أكبر واحد منها يدل على مظهر قوي وجبهته واسعة النطاق وترمز لروح رئيس القبيلة القديمة، وأنه قد تم استخدامها في الاحتفالات الاجتماعية وطقوس الشفاء والسحر.





الأقنعة الحجرية للنيوليث 7000 ق. م

http://www. messagetoeagle. com/neolithicmasksisrael. php#. VqJHi_nhC70

العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت)(**5000– 3300** ق. م)

يعتبر العصر الحجري النحاسي خاتمة العصور الحجرية من جهة، وفاتحة العصور المعدنية من جهة أخرى، فقد سبقته ثلاثة عصور حجرية هي (الباليوليت والميزوليت والنيوليت) أتت بعدها ثلاثة عصور معدنية هي (النحاسية والبرونزية والحديدية).

ومثلما اكتشف الإنسان الزراعة في النيوليت، فإنه اكتشف المعدن في الكالكوليت، وكان أول المعادن المستخدمة هو النحاس. ولم يأتِ هذا الحدث وحيداً فقد حمل منظومة كاملة من المنجزات الجديدة التي كان أغلبها يتعارض مع المنظومة النيوليتية رغم أنه يُعد امتداداً نوعياً لها.

فقد استعاد الرجل مركزيته وأصبح هو مركز العائلة والقبيلة والمجتمع بعد أن كانت المرأة في المركز إبان عصر النيوليت، وظهرت المدينة بدلاً من القرية وظهر المعبد بدلاً من المصليات

والمزارات البسيطة، وأصبحت الزراعة معتمدةً على الري الصناعي بعد أن كانت معتمدة على الطبيعة (خصب الأرض أو المطر أو الأنهار).

واتجهت العبادة نحو السماء بدلاً من الأرض وظهرت التخصصات الحرفية في المجتمع ومعها المؤسسات الدينية والسياسية في صورتها الأولى.

وفي فلسطين جاء عصر الكالكوليت في وقته الطبيعي تقريباً (متأخراً عن وادي الرافدين بقليل). وإذا كان موقع (تُليلات الغسول) في الأردن شمال شرق البحر الميت يمثل هذا العصر بشكل نموذجي، فإن موقعي تل الفارعة (قرب نابلس) وبئر سبع يمثلان هذا العصر في فلسطين بشكل نموذجي وذلك لقربهما من وادي عربة حيث مناجم النحاس. (أنظر الخارطة1).

يمثل (تل الفارعة) الكالكوليت في سلسلة الجبال الوسطى وفيه يستمر النيوليت ليتطور إلى الكالكوليت ثم إلى العصر البرونزي.

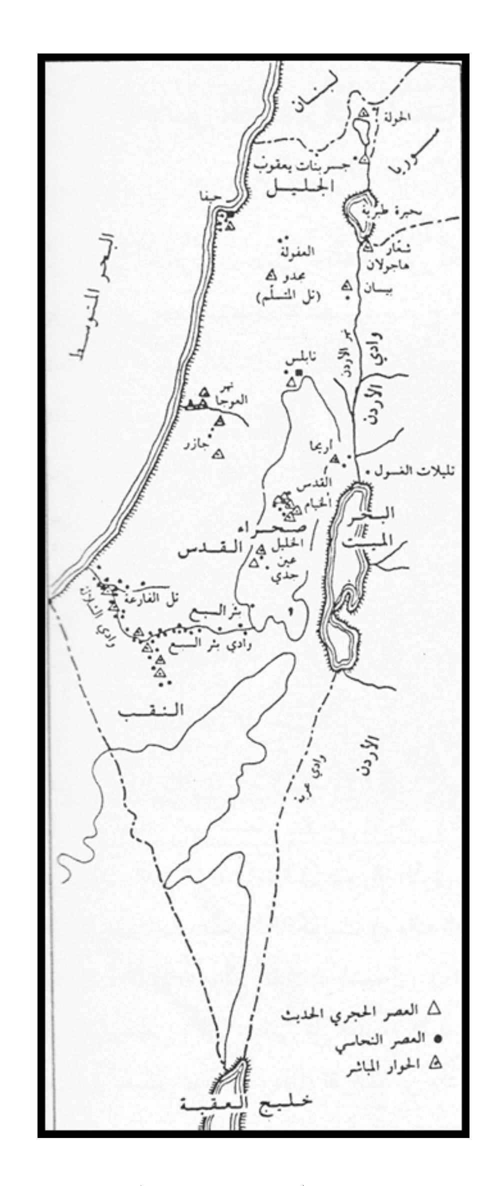
أما (بئر السبع) فيمثل الكالكوليت الجنوبي حيث كان النحاس يستخرج من (وادي عربة)، وقد وجدت فيه مواقع تحتوي على أدوات وأفران لاستخراج النحاس وتطويعه مثل (خربة البيطار) و(بئر الصفدي) و(تل أبو مطر).

وإذا أخذنا موقع (بئر سبع) نموذجاً للكالكوليت الفلسطيني فإننا نجد أن هذا الموقع يتميز بميزات فريدة يمكن أن نجدها كما يلي:

1. أفران صهر النحاس والأدوات اللازمة لذلك مما يشير إلى موقع كالكوليتي نموذجي تميز بأنه مركز تصنيع للنحاس ومن الصناعات النحاسية عُثر على فؤوس ومخارز وأزاميل وهراوات وأدوات للزينة.
2. الأدوات الصوانية التي ظلت تستخدم أكثر من الأدوات النحاسية مثل المكاشط وأدوات القطع والمثاقب والأزاميل وبعض رؤوس السهام والشفرات والفؤوس.

كما وجدت أوانٍ وأدوات حجرية أخرى كالبازلت والهيماتيت التي استعملت للصقل والدق وصنعت رؤوس الهراوات من الحجر العادي[27].

3. الصناعات الفخارية ذات اللون الباهت والسهلة الكسر بسبب خلطها بالرمل ومنها الجرار عديمة الرقبة، وبعضها مزين بزخارف على شكل أشرطة مطلية بالأحمر، وظهر نوع متميز من الفخار الأبيض على شكل مزهرية برقبة قصيرة وجسم منتفخ بمقابض تشبه الآذان البشرية[28].



خارطة (1) المواقع الأثرية للعصر الحجري الحديث والنحاسي في فلسطين. المرجع : إبراهيم، معاوية، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، 1990، ص55

4. الصناعات العاجية: والتي وجدت بشكل خاص في بئر الصفدي، فهناك عدد من التماثيل (الدمى) الآدمية من العاج تمثل رجالاً ونساءً. وتعتبر هذه التماثيل من أقدم العاجيات المصنعة في الشرق القديم وتمثل تطوراً ملحوظاً في هذه الصناعة. والجدير بالذكر أنه

وجد في بئر الصفدي مصنع للحلي والدمى العاجية والعظمية، مما يدل على أن هـذه المكتـشفات صُـنعت محلياً وبشكل مستقل عن الحضارات الشرقية القديمة المجاورة[29].

ويمكن ملاحظة نماذج من الأدوات النحاسية والعظمية والصوانية والدمى الطينية والعاجية من موقـع بـئر سبع والمواقع الكالكوليتية الأخرى في فلسطين (شكل 9).

وإذا كانت مواقع بئر السبع الكالكوليتية تمثل الجنوب وصحراء النقب (وادي غزة غربـاً وتـل عـرار شرقـاً) فإن العمق الفلسطيني شهد عـدة مواقـع مهمـة مثـل (جـسر بنـات يعقـوب) في الجليـل ومجـدّو (تـل المتـسلم) والعفولة والقدس وأريحا وجازر ولخيش وعين جدي وبيسان وغيرها.

وفي الساحل الفلسطيني ظهرت حضارة كالكوليتية متميزة "اعتبرها البعضُ وحدة حضارية مـستقلة بيـنما هي في السمات الأساسية لا تتباين كثيراً عن حضارة الغسول، أو بئر سبع وغيرها، لكن أصحابها مارسوا عادات دفـن متباينة عن تلك المعرفة في الجبل والغور وقد وجدت توابيت من الصلـصال المجفـف، عـلى صـورة بيـوت سـكنية، استعملت للدفن في كهوف كبيرة محفورة في الصخر. وقد وجـد مثـل هـذه المقـابر في منطقـة يافـا، وبـالقرب مـن أدوات نحاسية وعظمية وآنية فخارية وصوانية وتماثيـل ورؤوس دبـسات وثقـالات نـسيج مـن مواقـع متعـددة في فلسطين تمثل حضارة العصر الحجري النحاسي.



شكل (9)

المرجع: إبراهيم، معاوية، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، 1990، ص54



شكل (10)

مجموعة من الصناديق الصلصالية (الفخارية) استخدمت لحفظ عظام الموتى وآنية ومزهريات فخارية من موقع يازور وتمثل جميعها حضارة الساحل الفلسطيني في العصر الحجري النحاسي.

المرجع: إبراهيم، معاوية، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، 1990 ص57.

الخضيرة، وكذلك في يازور. كما اكتشفت بناءٌ كبير يبدو أنه استعمل كمعبد في خربة الشيخ ميصر، وهو يشبه المعبد الذي اكتشف في تليلات الغسول"[30].

وتمتاز حضارة الساحل الفلسطيني الكالكوليتية بصناعتها الفخارية المتقدمة فقد تجاوزت صناعة الأواني والجرار إلى صناعة الصناديق والمزهريات الفخارية وخصوصاً تلك القادمة من موقع بازور (شكل 10).

تطورت عبادة الكالكوليت باتجاه ظهور المعبودات الذكرية إضافة إلى المعبودات الأنثوية فقد ظهرت تماثيل ودمى ذكرية تمثل الإله الذكر، كما ظهرت طقوس الدفن الواضحة وخصوصاً الدفن في الجرار، وتوسعت المعابد وتخصصت مع ظهور أول أشكال المدن الفلسطينية المنظمة.

وفي فلسطين انقسم الكالكوليت اثنولوجياً إلى قسمين: الأول ساد فيه جنس البحر الأبيض المتوسط الذي كان الشعب الأصلي لفلسطين طيلة العصور الحجرية التي ساد فيما الإنسان العاقل (الباليوليت الأعلى، الميزوليت، النيوليت)، أما القسم الثاني الذي ظهر في حدود 4000ق. م حيث شهدت فلسطين نزوحاً جنس ساميّ نرجّح أن يكون من الأمورين وهو الجنس الذي طغى كلما تقدم الزمن حتى ذاب فيه الجنس المتوسطي.

وتشير آثار جازر إلى وجود جنس ثالث جبلي هبط من أواسط آسيا وآسيا الصغرى نحو بلاد فلسطين في مطلع العصور التاريخية والعصر البرونزي مكونة من ثلاثة أعراق مختلطة هي (المتوسطي والجبلي والأموري)، لكنّ كثافة الهجرات الأمورية صهرت في داخلها العرقين المتوسطي والجبلي فأصبحت الهوية الأساسية لفلسطين آمورية بالدرجة الأساس ولذلك لا نستغرب أن يكون أول اسم تاريخي مكتوب لفلسطين هو بلاد (المور) أي بلاد الآموريين.

خلاصة عصور ما قبل التاريخ في فلسطين والقدس

يتضح من دراستنا السابقة في عصور ما قبل التاريخ (الحجرية) الفلسطينية أن أرض القدس، حيث لم تكن مدينة القدس قد ظهرت بعد، شهدت وجوداً بشرياً منذ أقدم العصور، فقد سكن الإنسان المنتصب القامة في الباليوليت الأدنى في موقع قرب بيت لحم جنوب أرض القدس، وفي موقع (أم قطفة) شمال غرب البحر الميت.

وإذا كنا نفتقر في الباليوليت الأوسط لآثار الإنسان القديم الفلسطيني (الجليلي) في القدس، فلا شك أن ثقافته الحجرية وصلت إلى مناطق مثل أرض القدس. وما أن يأتي الباليوليت الأعلى حتى تتميز (الحضارة الأحمرية) على سفوح جبال القدس الشرقية حيث عُثر

في ملجأ في عرق الأحمر على آثار توازي الحضارة الأورينياسية في أوربا ولكنها تتميز عنها بعناصر محلية، وكان الإنسان العاقل هو الذي أسس هذه الحضارة.

ومع بداية النيوليت برزت (الحضارة الطاحونية) في جبال القدس وهي حضارة إنتقالية نحو النيوليت حملت بوادر الزراعة المنظمة.

ونشط النيوليت ما قبل الفخاري في أرض القدس، ويعبر عن ذلك موقع (أبو غوش) قرب القدس، وعند اكتشاف الفخار ظهرت مواقع آثارية قرب القدس حاملة هذا الاكتشاف المهم.

وظهرت في القدس آثارٌ تشير إلى العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) حيث عثر شيلوح (Shiloh) في الطبقة 21 من الطبقات الآثارية لمدينة القدس، وتحديداً في منطقة B عند قدم المنحدر الغربي على كسر صخرية وآثارها في التجاويف الطبيعية للصخور تعود إلى عصر الكالكوليت في النصف الثاني من الألف الرابع[31].

إن وقوع أرض القدس في قلب فلسطين تقريباً جعلها إحدى المراكز المهمة لصهر وانبثاق المراحل الحضارية القديمة، ومن الواضح أنها كانت إحدى المستوطنات الحجرية القديمة ثم الزراعية بدليل ما عثر في الجبال والوديان المحيطة بها والمكونة لها من آثار تعود لعصور ا قبل التاريخ.

ولكننا لابد من أن نشير إلى أن مواقع القدس لا توحي بعظمة مكانتها في تلك العصور فربما كانت أريحا القريبة منها أهم منها بكثير، وربما كانت تليلات الغسول المقابلة لها شرق نهر الأردن أهم منها بكثير، ولكن موقعها فيما يبدو سيرشحها في العصور التاريخية لأن تلعب دوراً بارزاً في حياة فلسطين رغم أن ذلك سيتأخر قليلاً إلى العصر الحديدي متجاوزة زمن النشأة والتكوين في العصر البرونزي.

وقد آثرنا وضع خلاصة مفصلة عبر هذا الجدول المقارن بين عصور وحضارات ما قبل التاريخ (العصور الحجرية) في أوربا والعالم من جهة وفلسطين والقدس من جهة أخرى لكي نقف على الأهمية الحضارية المتميزة لفلسطين في تلك العصور.

جدول (1) مقارنة عصور وحضارات ما قبل التاريخ (الحجرية) في أوربا وفلسطين

زمن بداية العصر (ق.م)	العصر	حضاراته في أوربا والعالم	حضاراته في فلسطين
قبل 500.000	الحجري السحيق Eolithic	الحضارة الحصوية Pebble Culture	عدم ظهور الحضارة الحصوية وظهور مخلفات بشرية للإنسان هذه الحضارة (الإنسان الماهر) على جانبي غور الأردن، وفي موقع العبيدية في فلسطين
500.000	الحجري القديم الأدنى Lower Paleolithic	الأبفيلي: الأداة الحرية المميزة هي الفأس اليدوية المصنوعة بطريقة لب الحجر. الكلاكتوني: أدوات التشظية الأشولي: الفؤوس اليدوية الأكثر دقة وحدة وانتظاماً. اللفلوازي: أدواته مصنوعة من الشظايا وذات شكل هندسي	الأبفيلي: الفؤوس اليدوية موقعها: العبيدية، القدس انسانها: منتصب القامة الكلاكتوني: المقاشط الأشولي: الفؤوس اليدوية جبل الكرمل، القدس التياسي: لفلوازية محلية (فلسطينية). مغارة الوادي.
100.000	الحجري القديم الأوسط Middle Paleolithic	لفلوازي موستيري: الأدوات الحجرية من الشظايا المصقولة الموستيري: الفؤوس اليدوية على هيئة القلب، والمثاقب	طابوني: الأدوات الحجرية مصنوعة من الشظايا، صنعها إنسان النياندرتال. مغارة طابون في جبال الكرمل الموستيري: فؤوس يدوية ومثاقب صنعها الإنسان القديم الفلسطيني. مغاور جبال الجليل (الزطية، الأميرة) مغاور جبال الكرمل (السخول،الطابون) مغارة القفزة قرب الناصرة
40.000	الحجري القديم الأعلى Upper Paleolithic	البريجودي: النصال الحادة النهاية الأورينـاسي: المقاشط والمثاقب والأدوات ذات القواعد المغلقة السلوتري: الأدوات ذات الحدين على هيئة ورقة الغار، المثاقب ذات الوجهين الصغيرة، المثاقب ذات الأكتاف، المزارف، نوع من المقاشط النصلية المجدليني: عصر لوحات الكهوف، واستعمال العظام بكثرة لصنع الأدوات، النصال الطويلة، خطاف صيد الأسماك، الإبر المصنوعة من العظام، زينة من أسنان الخيل، الأدوات الحجرية الصغيرة المثقوبة، الدمى الفينوسية	الانتقالي: أدوات جديدة فيها تأثيرات لفلوازية موستيرية مغارة الأميرة قرب بحيرة طبرية الأحمري: مقاشط ومخارز ذات جبهة عريضة ونصال طويلة كهف عرق الأحمر في جبال القدس. العتليتي: النصال الصغيرة والادوات الدقيقة في مغارة عتليت. لا يوجد استمرار العتليتي

زمن بداية العصر (ق.م)	العصر	حضاراته في أوربا والعالم	حضاراته في فلسطين
19.000	الحجري الوسيط Mesolithic	الأزيلي: المصنوعات العظمية من القرون (الهاربون)، أدوات حجرية صغيرة ذات أشكال قياسية محددة وتخطيط هندسي (فلقات، نصال، مقاشط مستديرة) الحصى الأزيلية المزخرفة التاردنوسي: الأدوات الحجرية تزداد صغراً. استخدام الأصداف البحرية اللارني: الاسطروري: يسيطر عليها استعمال الأدوات الحجرية الدقيقة (المايكروليثية).	الكباري: الأدوات الحجرية الدقيقة (المايكروليثية) التي أخذت في مرحلة الكباري الهندسية أشكالاً واضحة مثل المثلث والمنحرف وأصبح لها قبضان خشبية أو عظمية. مغارة كبارة في الطرف الغربي لجبال الكرمل النطوفي: الأدوات الحجرية مثلثة ومربعة ومنحرفة وهلالية، وظهور البيوت والأكواخ وتماثيل الحيوان والإنسان والأنصاب. وهي ثقافة متطورة جداً قياساً إلى ثقافة متطورة جداً قياساً إلى ثقافة الميزوليت الأوربية وذات انتشار واسع من مصر إلى العراق. حصلت فيها عمليات تدجين النبات والحيوان بطريقة نوعية.
8.000	الحجري الحديث Neolithic	اكتشفت الزراعة في الشرق الأدنى ومنه انتقلت إلى أوربا في حدود 7000 ق. م، وينقسم النيوليت إلى دورين: 1. نيوليت ما قبل الفخار. 2. النيوليت الفخاري.	اكتشفت الزراعة في الشام وفلسطين وانقسم النيوليت الفلسطيني إلى: 1. الانتقالي (8000ق. م) أريحا، الساحلية، الخيامية، الطاحونية في القدس. 2. الزراعي (7700 ق. م) وادي الفلاح. 3. ما قبل الفخار (7000 ق. م) أبو غوش قرب القدس. 4. الفخاري (6000-5500) ق. م أ. اليرموكية (تل الأقحوانة) ب. الساحلية (وادي رباح) ج. المنحطية (المنحطة، مجدو، تل الفارعة)
5.000 لغاية 3300	الحجري النحاسي Chalcolithic	اكتشف النحاس في الشرق الأدنى ثم اكتشف في أوربا وظهرت المدن الأولى والمعابد	اكتشف النحاس في فلسطين في حدود (4500ق. م) وظهرت مواقع حجرية نحاسية مثل تليلات الغسول في الأردن، وفي فلسطين: تل الفارعة وبئر سبع وحضارة الساحل (يافا، الخضيرة، يازور) واستثمر النحاس من وادي عربة

هوامش ومراجع الفصل الأول

1. أسامة النور وأبو بكر شلابي، تاريخ الإنسان حتى ظهور المدنيات، مالطا، 1995، ص69.
2. السينوزوك Cenozoic: هو زمن الحياة الثالث وهو زمن الثدييات التي ظهرت فصائلها البدائية محل الزواحف المنقرضة، وتميز هذا الزمن بانخفاظ مستمر في درجات الحرارة وفي نهاية هذا العصر ظهرت القردة القريبة الشبه من الإنسان واستمر هذا الزمن مدة 65 مليون سنة.
3. النيوزوك Neozoic: هو زمن الحياة الرابع وهو زمن الإنسان الذي ظهر في بدايته، وتخلل هذا الزمن أربعة عصور جليدية بينها فترات دافئة نسبياً.
4. البلستوسين Pleistocene: هو العصر الذي شغل أغلب زمن النيوزوك واستمر حتى ذاب جليد آخر العصور الجليدية وتفصلنا عنه أكثر من عشرة آلاف سنة، وظهرت فيه أنواع الإنسان الأساسية (القردي، المنتصب، النياندرتال، العاقل).
5. الهولوسين Holocene: هو العصر الذي بدأ منذ حوالي عشرة آلاف سنة من الآن ومازلنا نعيش فيه، وهو زمن العصر الحجري المتوسط والحديث والمعدني والعصور التاريخية.
6. الياس شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ط 2، بيروت،1998، ص13-14.
7. نفسه، ص 14.
8. سلطان محيسن، بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ-الصيادون الأوائل، دمشق، 1989، ص77.
9. شوفاني، المرجع السابق، ص15.
10. W. Harold Mare , The Archaedogy of the Jerusalem , Michigan , 1987 , P. 36.
11. عزمي، أبو عليان، القدس بين الاحتلال والتحرير، عمّان، 1993، ص14.
12. شوفاني، المرجع السابق، ص17.
13. النور وشلابي، المرجع السابق، ص392-393.
14. أبو عليان، المرجع السابق، ص14.
15. شوفاني، المرجع السابق، ص21.
16. أحمد هبّو، تاريخ الشرق القديم 1. سوريا، ط2، صنعاء، 1999، ص50.
17. شوفاني، المرجع السابق، ص27-28.

18. تقي الدباغ ووليد الجادر، عصور ما قبل التاريخ، بغداد، 1983، ص167.

19. النور وشلابي، المرجع السابق، ص653-654.

20. شوفاني، المرجع السابق، ص35.

21. نفسه.

22. Kathleen Kenyon , Digging up Jericho , New York , 1957 , P75 .

23. Mare Harold , OP. CIT .

24. جاك كوفان، ديانات العصر الحجري في بلاد الشام، دمشق، 1988، ص75.

25. نفسه.

26. فراس السوّاح، دين الإنسان، دمشق، 1994، ص219-220.

27. معاوية إبراهيم، "تاريخ فلسطين القديم"، الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، القسم الثاني، بيروت، 1990، ص55.

28. نفسه.

29. شوفاني، المرجع السابق، ص41.

30. نفسه.

31. Yigal Shiloh , "Jerusalem. The early periods and The first Temple period " The New Encyclopedia of Archeaology Excavations in the Holy Land, Volum2, Jerusalem, 1993 , P. 701

الفصل الثاني

القدس في العصر البرونزي



تمثال لحاكم مصري من القدس في العصر البرونزي

http://www. biblicalarchaeology. org/daily/biblical-sites-places/jerusalem/when-egyptian-pharaohs-ruled-bronze-age-jerusalem/

الفصل الثاني

القدس في العصر البرونزي

يمتاز العصر البرونزي باستعمال معدن البرونز الخليط (من النحاس والقصدير). وبهذا أصبح الإنسان يستعمل المعادن بالدرجة الأولى ثم الفخار وتراجع استعمال الأدوات الحجرية من أدوات عملٍ إلى أدوات فن وعمارة.

ظهرت مع بداية العصر البرونزي الكتابة التي تعتبر نقطة تحول عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية. وقد أصبح من الثابت أن اختراع الكتابة حصل حوالي 3200 ق. م في جنوب العراق على يد السومريين الذين طوّروا الرموز المرسومة إلى نوعٍ من الكتابة الصورية التي استُخدمت في البداية لتنظيم شؤون المعابد الاقتصادية، ثم توسع استعمالها لتشمل كلّ شؤون الحياة ورافق ذلك ظهور المدن الكبيرة التي كانت المعابد الكبيرة تشغل وسطها في الغالب.

وقد أدى نمو المدن واتساع تخصصاتها الحضرية في بلاد سومر ما بين (4000-3500)ق. م إلى التأثير في المحيط السومري ثم الانتقال إلى أصقاعٍ أبعد، فقد ظهرت المدن المصرية ثم ظهرت المدن الشامية ومدن إيران والأناضول. وكانت سومر قلب هذه المدن النابض بنواميس الحضارة الجديدة من آداب وفنون وشرائع وديانة وعمران.. إلخ.

وكان ظهور المدن الشامية مرافقاً لنمو الطموحات السياسية والاقتصادية لمدن دول العراق ومصر الضاغطة على جيرانها، وهكذا وقعت المدن الشامية تحت ظلال التوسع والهيمنة العراقية أولاً ثم المصرية ثانياً. وكان هذا عاملاً أساسياً في بقاء نظام دولة المدينة في الشام وعدم ظهور الدول أو الدولة المركزية الكبيرة فيها.

ورغم ذلك فإن مشهد ظهور المدن في الشام وغيرها لا يلغي أبداً وجود القرى والمزارع والحقول ومناطق الاستيطان الرعوية، فقد ظلت هذه بجوار تلك، ونشأت عن هذا التجاور صراعات محلية وإقليمية سنتحدث عنها بالتفصيل.

ولعل أبرز ما نلمحهُ في بداية العصر البرونزي، أي في العصر البرونزي المبكر، في فلسطين هو هذا التجانس الأثني واللغوي والذي يعود بجذوره الأولى إلى نهاية النيوليت وبداية الكالكوليت (الألف الخامس قبل الميلاد)، فقد تدفقت على فلسطين الموجات السامية الأولى

واستقرت بها، ولعلَّ جلَّها كان من الأموريين الذين اختلطوا بسلامٍ مع فلاحي النيوليت والكالكوليت الأصـليين، ولم تظهر النتائج المبدعة لهذا الاختلاط إلاّ في العصر البرونزي.

يرى ت. ل. طومسون (T. L. Thompson) إن نصوص إبـلا حـسمت موضـوع أوائـل العـصر البرونـزي عـلى الأقل، وكان تواصل الثقافة المادية وأنماط الاستيطان طوال الألف الثالث، ذا أهمية خاصة، ويوحي بـأن أصـول كـل السكان، لابد وأن تعود، كحدًّ أدنى، إلى بدايات العصر البرونزي القديم الثاني، وربما قبـل ذلـك، إلى العـصر النحـاسي المتأخر.[1]

وقد نفى طومسون وجود ثغرةٍ حضارية بين الكالكوليت (4500 ق.م) والبرونزي (3500 ق. م) ربمـا أشـارت إلى ظهور غزوات قام بها سكانٌ جدد أدت إلى اقتلاع مزارعي ورعاة العصر الحجري كما كان شائعاً. ورأى أن هنـاك تواصلاً ثقافياً مما يوحي بأحد أمرين، أمـا أن الهجـرات الـسامية وصـلت إلى فلـسطين قبـل الكالكوليـت أو بعـده. والراجح في هذا الأمر هو حصولها قبل الكالكوليت.

لكننـا نختلـف تمامـاً مـع نظريـات طومـسون وفرونـزارولي (P. Fronzaroli) وديـاكونوف (I. M. Diakonoff) التي تقول بأن الهجرات السامية جاءت من شمال أفريقيا.[2]

ونرى في النظرية التي تقول بأن الهجرات السامية جاءت من جزيرة العـرب ضـعفاً شـديداً لعـدم لياقتهـا الأركيولوجية. ونرى أن الساميين ظهروا في وادي الرافدين أولاً وأنهم بـسبب انـشطارهم الـسريع والتنـافس القـوي بينهم وبين غيرهم من الأقوام، كالسومريين عـلى حيـازة المـدن والأراضي الزراعيـة في وادي الرافـدين، لـذلك بـدأوا يتدفقون غرباً بأعدادٍ غزيرةٍ، وكانت أول وأقدم وأكبر الموجات السامية هي الموجة الأمورية التي نرى أنهـا وصـلت إلى فلسطين خلال الألف الخامس قبل الميلاد، لكنّ استقرارهم التام تحقق في شرق سوريا والأردن أكثر منه في غرب سوريا ولبنان وفلسطين التي استقبلت الموجة الكنعانية لاحقاً وهي الموجة التوأم للموجة الأمورية.

وفي جميع الأحوال استطاع العصر البرونـزي في فلـسطين أن يقـدم ثقافـةً أموريـة/كنعانيـة متميـزة بـدأت بزراعة الحبوب والأشجار وتربية الحيوان وانتهت ببناء المدن الكبيرة ومن ضمنها القدس.

يقسم الباحثون العصر البرونزي إلى ثلاثة أقسام هي:

1. العصر البرونزي المبكر (3300-2000) ق. م

2. العصر البرونزي الأوسط (2000-1550) ق. م

3. العصر البرونزي المتأخر (1550-1200) ق. م

1. العصر البرونزي المبكر (3300-2000) ق. م

القدس الأمورية

لا نعرف على وجه الدقة متى ظهر الأموريون في التاريخ، ولا المكان الأول الذي نزحوا منه ولكننا أمام القرائن الآثارية التحليل العلمي الدقيق نستطيع القول أن الأموريين ظهروا في العراق القديم وتحديداً على ضفاف نهر الفرات الأوسط وفي الصحراء العراقية السورية الأردنية الحالية، وربما كان ذلك في حدود 4000 ق. م أو قبل ذلك بقليل. لكنّ الوثائق السومرية هي التي تخبرنا في الألف الثالث قبل الميلاد عن وجودهم كقبائل غرب الفرات وتسميهم (مارتو) وباللغة الأكدية (أمورو) والتي تعني (الغرب) أو (الذين يسكنون غرباً)، ومن المؤكد أن ذلك يدل على أنهم كانوا يسكنون غرب الفرات. وقد ثبت لنا الآن أن هذه التسمية لها علاقة باسم الإله القومي للأموريين وهو (أمورو) الذي تطور عن (مُر) أو (مور) وهو إله الطقس والسماء معاً عند الأموريين، وكان السومريون يسمون جبل باسار (بِشْري) في بادية الشام بـ(مرتفعات الأموريين). وقد وضعت مدينة ماري وقلعتها عند السومريين كمدينة حدودية لصد هجماتهم رغم أن (ماري) مشتقة من اسم (مر) أو (مار) الأموري بطبيعة الحال.. وهكذا أصبحت عليه فيما بعد.

كان الأموريون، الذين لا يعرف حجمهم وتأثيرهم، أعظم الموجات السامية وأقدمها على الإطلاق. وهم، بسبب انفراط وتهشم تاريخهم، ظهروا كأقوام بدوية غازية ومهاجرة فقط لكننا عندما نجمع الحقائق المبعثرة هنا وهناك فإننا نجد أن جلّ ما كان يسمى بـ (الساميين) يمثلهم الأموريون بامتياز.

وهكذا انتشر الأموريون باتجاهات مختلفة، شرقاً نحو السهل الرسوبي لبلاد الرافدين وغرباً نحو بلاد الشام ثم نحو مصر وشمال أفريقيا وشمالاً لينشطر عنهم الآراميون وجنوباً على شكل قبائل بدوية تجوب شمال جزيرة العرب.

وصلت القبائل الأمورية إلى شمال بلاد الشام مبكرةً وأسست مدناً كثيرة مثل إبلا وماري ثم مدن يمخد (يمحاض) وألالخ وكركميش وقطنا وعمورو في سوريا.

وكان انتشار القبائل الأمورية ي جنوب بلاد الشام كبيراً أيضاً فقد دخلت إلى فلسطين واستوطنت جانبي الغور، وأسست في فلسطين مدناً لا نملك ما يوثق أسماءَها. وكذلك في الأردن التي كان حجم الاستيطان الأموري فيها أكبر بكثير من فلسطين، وفي نهاية العصر البرونزي المبكر استطاعت القبائل الأمورية أن تؤسس ثلاث ممالك كبيرة وهي (شوتو العليا، شوتو السفلى، كوشان) في شمال ووسط وجنوب الأردن.

أما في فلسطين فقد أفسحت القبائل الأمورية المجال لاحقاً للقبائل الكنعانية التي تنتمي لهجرة أمورية متأخرة قليلاً، وهو ما جعل الكثافة الأمورية في الأردن أكبر منها في فلسطين.

هكذا إذاً كان العصر البرونزي المبكر في فلسطين عصراً أمورياً ظهرت خلاله المدن الفلسطينية الأولى في العصور التاريخية التي نجهل أسماءَها بسبب غياب الكتابة وعدم ظهورها في فلسطين في هذا العصر، إلاّ أن التلال القديمة التي تملأ أرضَ فلسطين كانت بلا شك مراكز تلك المدن البرونزية المبكرة.

مع نهاية عصر الكالكوليت وبداية البرونزي المبكر في فلسطين حصل تغير مناخي كبير (في حدود 3500 ق. م) واستمر هذا التغير الإيجابي حتى (2350 ق. م) أي لغاية ما يسمى بـ(الفترة الرابعة من العصر البرونزي المبكر) وكان من مظاهر هذا التحول ما يلي[3]:

1. زيادة الأمطار.
2. انخفاض درجات الحرارة.
3. انخفاض مستوى البحر.
4. جفاف الكثير من مستنقعات الكالكوليت وتحولها لحقول زراعية خصبة.
5. دخول الزراعة إلى منطقة بيسان ووادي الأردن.
6. انخفاض بحيرة بيسان إلى المجال الحالي لبحر الجليل (بحيرة طبرية).

وبسبب هذه الظواهر نشأ مناخٌ مثالي للزراعة وظهرت مستوطنات المعادن وإقامة المؤسسات السياسية، ولكن مدينة واحدة كبيرة لم تظهر في هذه الفترة بحيث تتمكن من تكوين مركزٍ لدولة كبيرة أو حتى لإقليمٍ كبير، لكن هذا لم يمنع من ظهور "الرفاه وتعقيد الحياة لدى سكان فلسطين الزراعيين في ذلك الوقت. التجارات المتخصصة والمحاصيل النقدية (وأهمها الثمار وتربية الحيوان والحبوب أيضاً) وبضائع الرفاه (وأولها المعادن) والتجارة الإقليمية وعبر

الإقليمية (وهي مظهر هام في أي زراعةٍ متوسطةٍ متقدمة، بالإضافة إلى نخبةٍ قليلة العدد، كهنوتيةٍ وسياسية وربما عسكرية أيضاً، وجدت، ويسهل تصور إعالتها لنفسها ضمن إطار الاقتصاد الداخلي والمجتمع في فلسطين. التجارة الدولية وجدت وجلبت بعض الثروة والنفوذ الأجنبي، ولكنها كانت هامشية بالنسبة للاقتصاد المحلي".[4]

وهكذا تكون المدن البرونزية الأولى قد ظهرت بطابع أموري وثقافة تغلب عليها الزراعة وتشكل التجارة هامشاً، والسؤال الذي يجب أن نسأله هنا: وماذا بشأن القدس.. هل ظهرت مدينة أمورية على أرضها أم بقيت مستوطنة نيوليتية أو كالكوليتيةً أم ماذا؟

وسيأتينا الجواب أولاً من الأركيولوجيا (الحفريات الآثارية).

1. المرجعية الآثارية

(أركيولوجيا القدس في العصر البرونزي المبكر)

عملت البعثات الآثارية التي بدأت حفرياتها في القدس منذ القرن التاسع عشر حتى الآن على تقديم صورة جيدة عن تاريخ القدس قبل أن تتحول إلى مدينة وبعد أن صارت مدينة والمراحل التي مرت بها هذه المدينة خلال العصور التاريخية كلها. ولعلّ من المفيد أولاً التعرف على الطبقات الحفرية (Stratification) لمدينة القدس حيث قسمت طبقاتها الأرضية الآثارية إلى حوالي (21) طبقة أساسية كما في الجدول الآتي: [5]

الطبقة	الفترة الزمنية	تاريخها	ملاحظات
1	العصر الوسيط وما بعده	القرن 14-20م	
2	من العربي إلى الأيوبي	القرن 7-13م	
A3	بيزنطي	القرن 6-7م	
B3	بيزنطي	القرن 4-6م	
4	روماني متأخر	القرن 1-4م	
5	روماني مبكر	من الفترة اليهودية إلى 70م	بقايا محطمة
6	روماني مبكر	من الفترة اليهودية إلى 70م	

الطبقة	الفترة الزمنية	تاريخها	ملاحظات
A7	هيلنستي (حاشموني)	النصف الأول من القرن الأول ق. م لغاية 37 ق. م	
B7	هيلنستي (حاشموني)	النصف الثاني من القرن الثاني ق. م لغاية 37 ق. م	
8	هيلنستي مبكر	القرن 4-2 ق. م	
9	فارسي	القرن 4-6 ق. م	
A10	الحديدي الثاني	القرن السادس ق. م	معظمها نفايات حطام تعود لـ 586 ق. م
B10	الحديدي الثاني	النصف الثاني من القرن السابع ق. م	يقسم إلى 10B-C في منطقة G فقط
11	الحديدي الثاني	القرن السابع ق. م	أغلب منتصف القرن 7 ق. م
12	الحديدي الثاني	القرن الثامن ق. م	أغلب زمن حزقيا
13	الحديدي الثاني	القرن التاسع ق. م	
14	الحديدي الثاني	القرن العاشر ق. م	
15	الحديدي الأول	القرن 12-10 ق. م	
16	البرونزي المتأخر	القرن 14 – 13ق. م	
17	البرونزي المتوسط الثاني B	القرن الثامن عشر ق. م	
A18	البرونزي المتوسط الثاني B	القرن الثامن عشر ق. م	
B18	البرونزي المتوسط الثاني B	القرن الثامن عشر ق. م	
19	البرونزي المبكر الثاني والثالث	النصف الأول من الألف الثالث ق. م	

الطبقة	الفترة الزمنية	تاريخها	ملاحظات
20	البرونزي المبكر الأول	القرن 31 ق. م	
21	الحجري النحاسي	النصف الثاني من الألف الرابع ق. م	

جدول (2) الطبقات الحفرية لمدينة القدس

المرجع: Shiloh 1993: 701

الطبقة 21

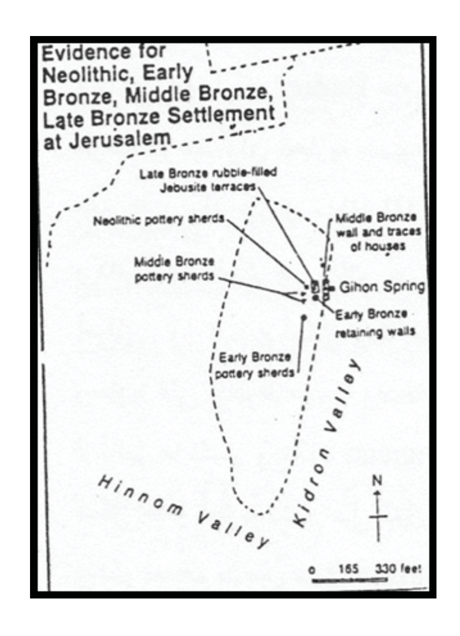
كانت كشوفات الطبقة 21 التي تعود إلى العصر الحجري النحاسي (الكالكوليت) في حدود 4000 ق. م عبارة عن مجموعة من الآبار المناظرة لما كُشف عنه في أريحا وشكيم ولخيش وتل العجول (في غزة).

وقد كشف شيلوح في المنطقة B عند قدم المنحدر الغربي على كسرها وآثارها في التجاويف الطبيعية للصخور.

الطبقة 20

اكتشفت في الطبقة 20 آثار المدينة التي تعود للعصر البرونزي المبكر عند التقاء نقطة وادي الجوز مع وادي القدرون والتي يقدر زمنها بحوالي 3200 ق. م. [6]

وهذا يعني أن مدينة القدس قد بُنيت مع بداية العصر البرونزي المبكر أي قبل مجيء الكنعانيين واليبوسيين أو بنائهم للمدينة كما هو شائع جداً. وهذا يشير إلى أن القدس الأولى كانت في العصر البرونزي المبكر وأنها على الأرجح كانت ذات هوية أمورية.



خارطة (2) مواقع آثارية للمستوطنات الحجرية الحديثة والبرونزية المبكرة والمتوسطة والمتأخرة في مدينة القدس.

المرجع: Mare 1987: 37.

وقد أظهرت الحفريات أن عمران المدينة المكتشفة يتميز بما يلي[7]:

1. التخطيط المعماري الدائري في شكل البيوت.
2. إدخال الشكل المربع في البيوت وحفر الآبار فيها.
3. الاعتماد على الأعمدة الكبيرة وسط البيوت.
4. الشكل الدائري للأسوار.

وقد عُثر فيما بعد على قواعد الأعمدة التي كانت تحملُ سقوفا لأبنية إضافةً إلى الموجودات الفخارية الدالة على حضارة تلك الحقبة. ودلت الأثريات المكتشفة كذلك على اهتمام الإنسان بالزراعة في العصر البرونزي المتقدم حيث وجدت المواد والأدوات الزراعية الدالة على أن المنطقة كانت صالحة للزراعة بكل المقاييس. وقد فوجيء العلماء كثيراً بوجود هذا العصر في القدس في حين كانوا يعتقدون بعدم وجود سلّمٍ متواصل من الحضارة في الطبقات الأرضية للمدينة ينتمي لتلك الفترات المتباعدة.

قام شيلوح بالحفر في منطقة (E1) وعثر على بنايات واسعة رسبت في كسر الأحجار التي تعود للطبقة (20)، وكانت هذه البنايات تعود للعصر البرونزي المبكر الأول والثاني، وهي تدل على استيطان دائم في مدينة القدس[8]

وكذلك قام باركر Barker عام 1919 بحفر مقابر من العصر البرونزي المبكر الأول تحت المرتفع ووجد أواني فخارية مصبوغة بالأحمر ونشر فنسنت (L. H. Vincent) نتائج هذه الحفريات. وقد عثر في منطقة EBII , III على كسر فخارية متنوعة[9].

وكانت بعثة باركر قبل ذلك بين (1909 – 1918) قد وجدت فخاراً مصبوغاً يعود إلى حوالي 3000 ق. م أسفل نهاية الحافة الجنوبية الشرقية للقدس، وكان متميزاً بعلامة قطرية وحاوياً على خطوط موجية وفتحات صليبية صغيرة وذات أيادٍ تشبه حبل العين[10]

ثم أظهر ماكلستر ودنكان Macalister and Duncan وجود كسر فخارية ذات أيدٍ على شكل حافةٍ مطوية تشبه حبل العين وذلك عام (1923 – 1925). [11]

وأشار بعدهم بنيامين مازار (Benjamin Mazar) إلى أن جبل أوفل (عند حافة وادي قدرون) يشير إلى أنه كان خلال الألف الثالث مأهولاً بالناس عند بدء العمران في العصور التاريخية واستمر هذا الوجود البشري بالتناقص خلال الألف الثاني[12].

لكن رحماني (L. Y. Rahmani) سمّى الفترة الزمنية ما بين (3100-2900)ق.م بـ(الفترة الكنعانية الأولى) ووجد في كهف قبرى عند جبل أوفل مجموعة من الهياكل العظمية وبقايا الأطعمة، وكانت العظام ملطخة باللون الأحمر (أوكر)، رمز القوة والحياة، وكانت الأوعية مصبوغة مثل تلك التي وجدت عند مصباح وجازر وأريحا (الطبقة السادسة والسابعة) وأرى أن ذلك يدل على استيطان مبكر[13]

وقد أشارت القطع الخزفية والألواح المستخرجة من تل مرديخ (إبلا) إلى ورود اسم (أورسليم) حوالي منتصف العصر البرونزي) المبكر ولكننا لا نستطيع أن نقرر على وجه الدقة فيما إذا كانت القدس تحديداً هي المعنية بذلك.

ووجد شيلوح في المنطقة التي أسماها E1 بنائين تم إدراجهما على أساس تحليل أولي للخزف في الطبقتين (20-21) أي حوالي النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد وهي نهاية فترة العصر الحجري النحاسي وبداية العصر البرونزي المبكر[14].

أما كاثلين كنيون (Kathleen Kenyon) فتذكر قبراً في جبل أوفل يحتوي على فخار من تلك الفترة، ويرجع تاريخه إلى القرون الأخيرة من الألف الرابع قبل الميلاد وهي مرحلة تسبق مرحلة تأسيس مدن العصر البرونزي المبكر في فلسطين[15].

ويمكننا من خلال كل هذه الدلائل الأثارية الحديث عن (مدينة القدس الأولى) التي ظهرت في بداية العصر البرونزي المبكر والتي كانت صغيرة جداً على مرتفع أوفل وقرب نبع عين جيحون.. ومن المؤكد أن هذه المدينة شهدت استيطاناً بشرياً محدداً ونشاطاً زراعياً واضحاً وأنها مارست طقوس الدفن إما في البيوت أو قربها.



جرار فخارية من القدس تعود للعصر البرونزي المبكر حوالي (3100- 2900)ق. م وهي مخططة بلون أحمر

http://www. ancientresource. com/lots/holyland_artifacts/holyland_pottery. Html

الدور الرابع من البرونزي المبكر (**2350-2000**) ق. م

إذا كانت الفترات الثلاث الأولى من العصر البرونزي المبكر قد شهدت رفاهاً ونمواً وازدهاراً في فلسطين بأكملها، وبُنيت مدينة القدس لأول مرة، فإن الفترة الرابعة منه شهدت فجأة جفافاً قاسياً ارتفعت فيه درجات الحرارة وشحت الأمطار وقصر فصل الشتاء وطال فصل الصيف في السنة وانخفضت مناسيب المياه.

وهكذا تناقص سكان المناطق السهلية الواطئة والوديان وقلّ النشاط الزراعي وبـدأ يحـل محلـه تـدريجياً نشاط الرعي، وازدادت عمليات هجرة الناس العـشوائية مـن فلـسطين. وهنـاك دلائـل أثاريـة تـشير إلى "تحركـات واسعة قام بها الساميون الغربيون للابتعاد عن فلسطين، أي، أنه فـيما تمكـن الـساميون الغربيـون الأساسـيون مـن المحافظة على المنطقة الزراعية داخل سوريا وشمال فلسطين وشرق الأردن (وإن بأعداد أقل كثيراً)، بعد التلاؤم مع المناخ الأكثر جفافاً أصبحت مناطق الأطراف الزراعية مضطربةً تماماً، مما أرغم مجموعات عديدة على التحـول إلى اقتصاد شبه مستقر، يعتمد على زراعة الحبوب والرعي وأجبر العديد منها على عبور سهوب شرق الأردن إلى جزيرة العرب"[16].

وبذلك يمكننا أن نفسِّر تفسيراً أركيولوجياً مقنعـاً وجـود الأمـوريين الكثيـف شرق الأردن وشـمال الجزيـرة العربية وقلته، لاحقاً، في فلسطين، حيـث سـيُظهر العـصر البرونـزي المتوسـط كثافـةً كبـيرة للكنعـانيين في فلـسطين باعتبارها منطقةً شبه مهجورة في نهاية العصر البرونزي المبكر.

وقد سقطت حالياً تلك النظرية التي كانت شائعة حول اجتياح موجات البـدو الغـزاة لفلـسطين في هـذه الفترة وتدميرهم الكاسح لمدن العصر البرونـزي المبكـر (القـديم) الرابـع، تلـك النظريـة التـي تبناهـا رايـت (G. E. Wright) وكنيون (K. Kenyon) والتي جاءت البحوث الحديثة لتنقضها تمامـاً وتبـين اخـتلاف المنـاخ مـع اسـتمرارية الثقافة الزراعية والرعوية لسكان فلسطين في مختلف أصقاعها.

وكانت كنيون قد توصلت من خلال حفرياتها في مقابر أريحا القديمة إلى نتيجةٍ تقول بـأن حـضارة العـصر البرونزي المبكر انتهت أو دُمرت من قبل غارات شنتها قبائل بدوية ذات ارتباط بالأموريين[17].

وربما كانت القدسُ قد دُمرت أو هُجرت في هذا الوقت، وكانت كنيون قد عثرت في القدس على أحد عـشر قبراً تعود لهذه الفترة.

ويؤكد آثاريون آخرون أن آثار الدمار التي أظهرتها الحفريات في المواقع (التلال) لم تكـن من فعل هذه القبائل، وإنما قام بها المصريون في حملاتهم المتكررة، ومهما يكن الأمر، فإنه ما أن بدأت السلطة المركزية في مصر تضعف، أثناء حكم الأسرة الثامنة، حتى أصـبحت هـذه القبائـل

تدق أبواب الدلتا، وفي الوقت نفسه كانت مدن جديدة تُبنى على أنقاض القديمة، مثل تل بيت مرسيم إلى الجنوب الغربي من القدس[18].

وهناك من يرى أن دماراً مناخياً شاملاً عصف بمدن الشرق الأدنى القديم مع نهاية الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد، أي في نهاية العصر البرونزي المبكر حيث سقطت هذه المدن في ظروف مناخية بالغة التعقيد.

قام ديفر (W. G. Dever)، وهو تلميذ رايت، بدراسة فترة الدور الرابع من العصر البرونزي المبكر، وأثبت أثناء تحليله لأشكال أواني هذا العصر تعدد المرجعيات الثقافية الإقليمية، وحاول شرح التسلسل الزمني للغزو الأموري المفترض ومساره، فدمج أخيراً معظم البيّنات الأركيولوجية عن البنى الاقتصادية والاجتماعية، فأدى هذا إلى تقويض فرضيات الغزو الخارجي[19].

وهذا يعني أن أشكال أواني البرونزي المبكر الرابع ترتبطُ ثقافياً مع نظرياتها في العصر البرونزي المبكر الأول والثاني والثالث، ولا يوجد نمط ثقافي جديد أظهره الغزاة المفترضون.

كذلك أظهرت ثقافة العصر البرونزي المبكر استمراراً واضحاً في الأدوات والبناء وطقوس الدفن وأنماط الاستيطان مع البرونزي المبكر الرابع.

وبذلك سقط نهائياً السيناريو القديم عن الغزو البدوي (الأموري) من السهوب السورية أو جزيرة العرب أو وادي الرافدين كسبب للدمار المفاجئ في مدن وقرى العصر البرونزي المبكر وتخلى عن مكانته للإيضاحات المناخية والإيكولوجية للانهيار التدريجي لحضارة العصر البرونزي المبكر[20].

وهكذا اتضحت هوية الفترة الانتقالية وأصبح الجميع يرى فيها حقبةً زمنيةً تمت فيها تغيرات عديدة، مناخية وثقافية واقتصادية، محددة إقليمياً إلى حدٍّ كبير، وحصلت حوادث جعلت المنطقة تعاني من ركود زراعي وتلجأ إلى وسائل عديدة ومختلفة لتأمين البقاء، قام بها سكان فلسطين، كثيرون ماتوا وكثيرون استمروا، وكثيرون غيروا النمط الاقتصادي لحياتهم، وكثيرون عاشوا في فقر مدقع، لأنهم فقدوا الكثير من قدرات أسلافهم الثقافية والتكنولوجية[21].

2. المرجعية التاريخية

مصر وعامو

علاقة مصر وفلسطين خلال العصر البرونزي المبكر

كانت وثائق مصر خلال العصر البرونزي المبكر تسمى فلسطين بأربعة أسماء هي[22]:

1. حريو شع: وتعني سكان الرمال. 2. منيتو. 3. أوتيو.	**وظهرت هذه الأسماء لغاية ظهور الأسرة المصرية الخامسة.**

4. عامو: ظهر هذا الاسم منذ الأسرة السادسة وهو ذو دلالة إثينية وأصلٍ سامي وقد يشير إلى الأموريين.

ويرى هـ ي. ديل ميديكو استناداً إلى ألواح (الملك الكبير) الأوغاريتية إن فلسطين كانت تسمى مريام (Mrym) أو موريا[23].

وكلمة (موريا) تشير بشكل واضح إلى آمور أو آموريا أي (بلاد الأموريين)، وهذا يتطابق مع الاستيطان المبكر للأموريين في فلسطين. ويشير قدم هذا الاسم إلى أنه كان سابقاً للاسم القديم الشائع عن فلسطين وهو (بلاد كنعان) الذي نرى أنه مصطلح محدود الاستعمال ولم يكن قديماً جداً بل أنه ظهر في نهاية العصر الحديدي ودلّ على قومٍ محددين من بلاد الشام.

ونرى أن جبل (موريا)، الذي تقوم عليه بقعة الحرم القدسي الشريف في مدينة القدس مازال يحتفظ باسم فلسطين القديم ويشير في الوقت نفسه إلى استيطان أموري مبكر في القدس.

وللبحث عن علاقة مصر بفلسطين في العصر البرونزي المبكر نقول أن الأسرتين المصريتين الأولى والثانية اللتين أسستا الدولة العتيقة في مصر ثم الأسر التي شكلت الدولة القديمة (وهي الأسر الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة) تطلعت، كلّها، إلى فلسطين باعتبارها عمقاً أرضياً لمناجم النحاس ومقالع الفيروز في سيناء، وذلك عن طريق حملات تجارية أو عسكرية " وأظهرت الحفريات في جبيل (بيبلوس) التي كانت تهيمن على مناطق أشجار الأرز في لبنان ومنذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد، أدوات نُقشت عليها أسماءُ ملوك مصر منذ السلالة الثانية فيما بعد. ويرد في نقش باليرمو الشهير أن سنفرو الأول، من السلالة الرابعة (القرن

السادس والعشرون قبل الميلاد) أرسل أسطولاً تجارياً عسكرياً من أربعين سفينةٍ لجلب الأخشاب في جبيل" [24].

وتصل من عصر الأسرة السادسة (حوالي 2340 ق. م) وثيقةٌ مهمة تشير إلى أن الفرعون بيبي الأول أمر العسكري (وني) بقيادة حملة عسكرية إلى فلسطين، وتشير الوثيقة إلى أنه وصل إلى منطقة تسمى (أنف الريم) التي يعتقد أنها (جبل الكرمل) على الساحل، وانتشر جيشه في فلسطين ليقضي على تمرد من يسميهم بـ (سكان الرمال) وهم (حريو شع) أي الأقوام الأمورية:

"عاد هذا الجيش في سلام بعد أن خرّب أرض ساكني الرمال

عاد هذا الجيش في سلام بعد أن اجتاح أرض ساكني السلام

عاد هذا الجيش في سلام بعد أن دمّر محلاتها المسوّرة

عاد هذا الجيش في سلام بعد أن قطع تينها وكرومها

عاد هذا الجيش في سلام بعد أن أشعل النار في كل بيوتهم الفاخرة

عاد هذا الجيش في سلام بعد أن ذبح عشرات الآلاف من رجال جيوشهم

عاد هذا الجيش في سلام بعد أن حمل معه جيوشاً كثيرة العدد كالأسرى"[25].

وحين دخلت مصر في مرحلة الضعف الأولى تعاظم شأن البدو الأسيويين الذين كانوا يطرقون أبواب مصر في جهة سيناء، وقد ترافق ذلك مع صعود الأكديين السياسي في العراق وتكوينهم أول إمبراطورية كبرى في التاريخ، وكان من أثر ذلك ضغطهم المستمر على الأموريين في غرب الفرات مما اضطر بعض هؤلاء للدخول إلى بلاد الشام وفلسطين، وربما اندفع بعضهم من هناك إلى مصر، ولذلك ترد إشارة من الأسرة العاشرة الضعيفة في (أهناسيا) تقول بطرد الأسيويين من مصر، ولكن الأموريين كانوا يبنون مدناً جديدة في فلسطين على أنقاض الدن القديمة مثل (تل مرسيم) إلى الجنوب الغربي من القدس.

2. العصر البرونزي الأوسط (2000-1550)ق. م

القدس الكنعانية

بُنيت مدينة القدس ثانيةً في العصر البرونزي الأوسط على مرتفع أوفل، وقد اعتاد المؤرخون على تسميتها بـ(يبوس) أو (القدس اليبوسية) لكننا نعتقد أن القدس اليبوسية ظهرت

في العصر البرونزي المتأخر، ونرى أن مدينة القدس في العصر البرونزي الأوسط أنشأها عموم الكنعانيين وليس طبقتهم الأرستقراطية التي كانت تتزعمها (قبيلة يبوس) الكنعانية، فقد تولى هؤلاء إعادة بناء المدينة بعد دمارها في نهاية البرونزي الأوسط.

أما قدس العصر البرونزي الأوسط، وهي القدس الثانية، فنستطيع أن نطلق عليها اسم (القدس الكنعانية) وبالتحديد (أورو سالم) التي تعني (مدينة سالم) أي مدينة الإله (سالم) الذي كان إله المدينة الحامي والرئيس لها.

وكان من تقاليد الكنعانيين الدينية عبادة آلهة كبرى تشترك في عبادتها جميع المدن الكنعانية مثل (الإله إيل، الإله بعل، الإلهة عشيرا.. إلخ) وكان لكل مدينةٍ كنعانية إله خاص بها هو الإله الحامي بها والذي تعرف به والذي، غالباً، ما تشتق اسمها منه مثل (بيت شان التي تسمى الآن بيسان فهي مدينة الإله شان، وأريحا مدينة إله القمر يرح، وكذلك أورو سالم مدينة الإله سالم).

والحقيقة أنه يمكن أن نقول أشياء كثيرة عن هذه المرحلة ولذلك فضّلنا تقسيم مبحثنا هذا إلى أربعة حقول أو مرجعيات هي المرجعيات (الأركيولوجية، التاريخية، المثولوجية، الدينية).



فلسطين في عهد الكنعانيين

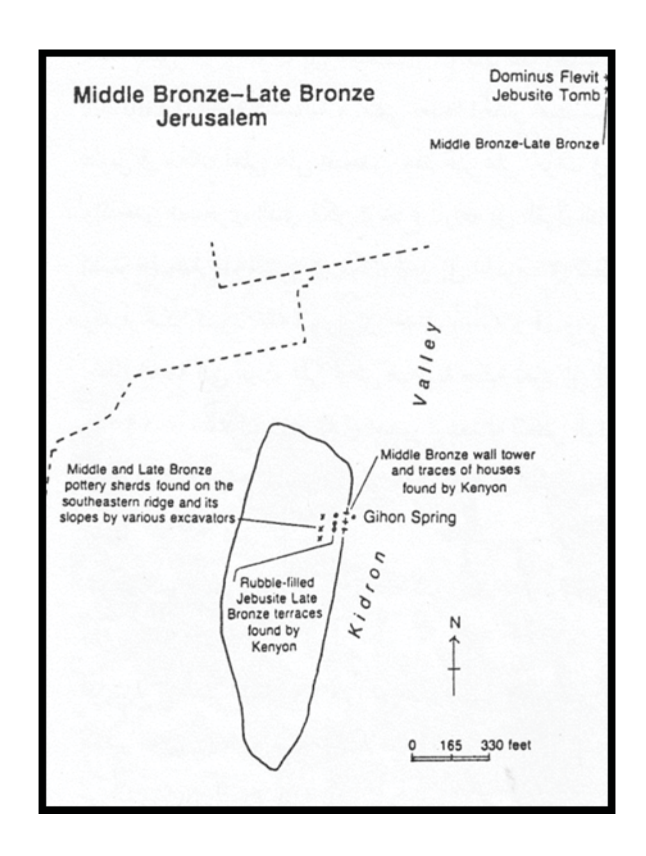
http://www. palqa. com/backup/index. php?module=old_history

1. المرجعية الآثارية

(أركيولوجيا القدس في البرونزي الأوسط)

قدمت لنا كنيون عام 1961 كشفاً أثرياً مهماً لمدينة القدس في العصر البرونزي الأوسط، فقد عثرت على أبنية تقع أسفل السفح الشرقي لجبل (أوفل) في الطبقات (17،18،19) قرب أنقاض مدينة القدس الأولى.

وقد استنتجت كنيون بعد حفرياتها في غرب قمة أوفل أن التوسع الشرقي للمدينة جعل (نبع جيحون) داخلها، في حين كان السكان قبل هذا التوسع يضطرون إلى الذهاب خارج السور لجلب الماء. (خارطة 3).



خارطة (3) القدس في العصر البرونزي

المرجع: Mare 1987: 52

1. السور

كانت القدس الكنعانية محاطة بسور من الطين والحجر من جهاتها الأربعة، وكان يبلغ سمك هـذا الـسور حوالي مترين، وأمامه خندقٌ بعرض أحد عشر متراً.

وكان لهذا السور بوابة تقع في الجهـة الـشمالية تـؤدي عـبر طـرقٍ ملتويـةٍ إلى (عـين جيحـون) الواقعـة في الجنوب، ويدعونا هذا للتساؤل لماذا كانت العين جنوب السور والباب شمال السور، في حين كانت المدينـة بأكملهـا قد بُنيت في هذا المكان بسبب هذه العين.

ويبدو أن السبب في ذلك هو رغبة أهل المدينة في إبقاء العين بعيدة عن البوابة لأغراض أمنية ودفاعية.

يتجه السور من الجنوب إلى الشمال، وكان لهذا الجدار زاوية تتجه إلى الداخل Re-entrant في الجهة الشمالية، يختفي بعدها الجدار تحت سور المدينة الذي بُني بعده بوقت طويل في مكانٍ أعلى على المنحدر. وقد عُثر على خزفٌ في الفراغ الكائن بين السور والمنحدر الصخري الذي يمكن إرجاع تاريخه إلى القرن الثامن عشر قبل الميلاد ووجد (شيلوح) بقية هذا السور في مكان أبعد إلى الجنوب في منطقته المسماة (E1)[26].

وقد أرخت كنيون هذا السور إلى حوالي (1800ق. م) وكانت قد اكتشفت أيضاً بقايا حطام القلعة التي بُنيت على أرض صخرية صلبة تعود إلى العصر البرونزي الأوسط الثاني -أ- (1950- 1750)ق. م الذي استمر استعماله لبعض الوقت. وكان هناك قرب عين جيحون بقايا أبراج السور وهناك بوابة كبيرة في السور يطلق عليها اسم (بوابة النبع). (شكل 11).

عثرت كنيون على هذا السور في الطبقتين (18، 17) وقد كشفت حوالي 12 متراً منه في قعر المنطقة A.

أما شيلوح فقد كشف 30 متراً من هذا السور في منطقة E، والذي ربما شكل نواة سور العصر الحديدي الثاني ودفن تحته.

بُني السور على ذروة طبقة المدرجات البارزة من الحجر حوالي 25 متراً فوق أرض المنحدر، وهذا السور يتكون من أحجار كبيرة، وقد بُني كسور عمودي بسمك 2. 5 متراً.

فسرت كنيون جزء السور الذي كشفته، فوق النبع، كبرجٍ بارز شرقاً، ربما قرب المدخل المائي فوق نبع جيحون. أما شيلوح فقد حدد ثلاث مراحل لبناء الجدار[27].



شكل (11) سور العصر البرونزي الأوسط عند جبل أوفل الذي حُفر مِن قِبل كنيون

المرجع: 38 :Mare 1987.

http://www. israel-a-history-of. com/ancient-jerusalem. html

2. المقبرة العالية

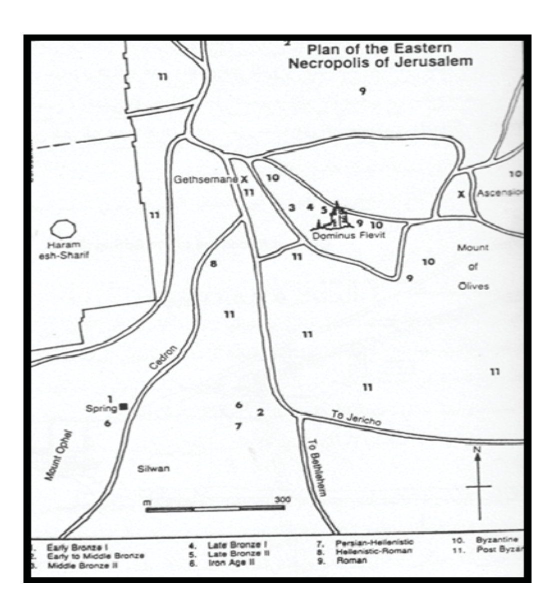
تعود المقبرة العالية (The Dominus Flevit Tomb) للعصرين البرونزي الأوسط والمتأخر وتقع على المنحـدر الغربي لجبل الزيتون، فالتقاطع مع وادي قدرون من القسم الشمالي لنقطة الحافة الجنوب شرقية، تنتمي في أغلب الآثار التي عثر عليها في هذه المقبرة للعصر البرونزي الأوسط الثاني والبرونزي المتأخر الأول والثاني.

يرى الباحثون أن هذه المقبرة يبوسية لها شكل ذات فصّين (وقد وجد مثلها في فارا وغزة ولخيش)، ووصف فلندرز بيتري Flinders Petrie هذه المقبرة فقال بأن خارطتها تفيد بوجود طريقٍ مدرج نازل من الشمال خلال طريق مجاز ضيق إلى حافة تعود إلى حجر على الجانبين، وينتصب السقف في الوسط وقد عُثر فيها على هياكل وعظام بشرية[28].

وهناك مقبرةٌ أخرى في القدس وجدت عند نحلات أخيم (Nahlat Ahim) في القطاع الشمالي الشرقي من أورشليم، وهي مقبرةٌ محفورةٌ في الصخر، وقد عُثر على محتوياتها عام 1933 ويعود زمنها إلى العصر البرونزي الثاني وحتى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد.

أما المقبرة التي تقع جنوب القدس (عند موقع المركز الرئيسي للأمم المتحدة) فربما تشير إلى خاصيةٍ أخرى تعود للعصر البرونزي المتأخر الثاني.

وفي جبل الزيتون عُثر على هياكل عظمية كاملة في كهوف قرية (هبلة الحمد) قرب سلوان، وعلى فخاريات وأحجار ثمينة وأدوات برونزية.

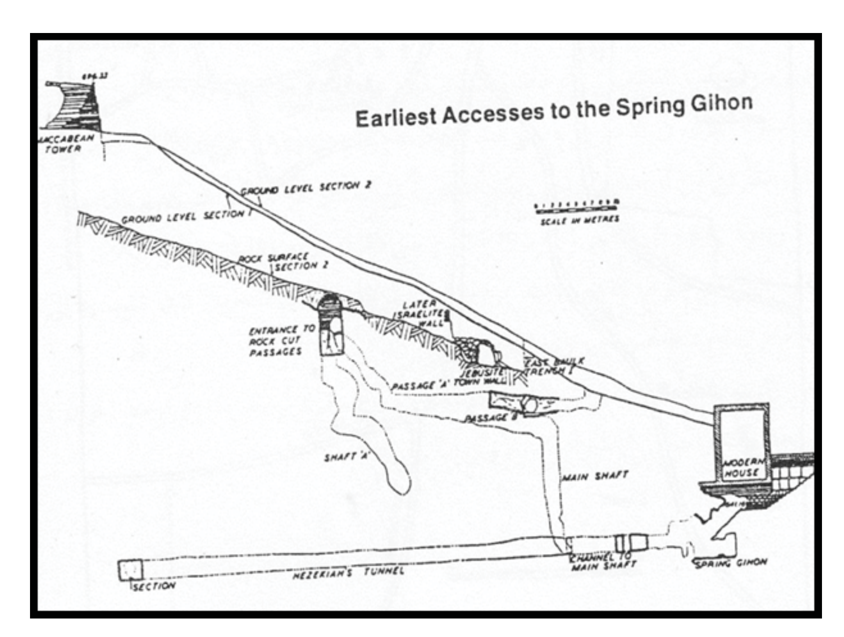


خارطة (4) مخطط المقبرة الشرقية للقدس ويتضح فيها مكان المقبرة العالية.

المرجع: Mare 1987: 45.

3. عين جيحون

كان المهندس البريطاني تشارلز وارين عام 1876 قد اكتشف القناة السردابية التي كانت تربطُ عين جيحون الواقعة على حافة وادي قدرون حيث تمتد القناة من العين حتى الحصن ثم تخترق الحصن، وتنتهي إلى خزان داخل السور وكان الماء يسقى من سطح الحصن بالسطل والحبل من البئر التي فيها الخزان. وقد سُمي هذا النفق نفق وارين (Warren's Shaft) (شكل12).



شكل (12) الموصلات المبكرة إلى نبع جيحون.

المرجع: Mare 1978: 42.

القناة عبارة عن سرداب مدرج عمقه 26 قدماً تصل أفقياً القمع المائل قليلاً والممتد شرقاً 92 قدماً. وعند هذه النقطة خارج الجدار وتحت الأرض تمتد قصبةٌ عمقها 40 قدماً قاطعاً مستوى المياه قادمةً من عين جيحون 72 قدماً أبعد شرقاً[29].

ويبدو أن السبب الرئيسي لاختيار موقع القدس الأولى والثانية فوق منحدر مرتفع أوفل (وليس فوق منحدر صهيون الذي هو أكبر من منحدر أوفل) كان بسبب عين جيحون هذه والتي كانت مصدر المياه الرئيسي لأهل القدس اليبوسيين، وكانت تبتعد نحو 300 متراً إلى الجنوب الشرقي من مدينة القدس الأولى والثانية.

أما عين روجل التي كانت تُسمى (بئر أيوب) فهي المصدر الثاني للمياه في القدس بعد عين جيحون.

4. الصخرة المقدسة

يبدو أن الصخرة المقدسة لبيت المقدس والتي بنى فوقها الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قبة الصخرة كانت مقدسة عند الكنعانيين بصفة عامة ثم عند اليبوسيين بصفةٍ خاصة.

هذه الصخرة عبارة عن قطعة ضخمة من الصخر غير منتظمة الشكل، وفي جوفها مغارة عجيبة بينما يتوسط سقفها فتحة قطرها متر تقريباً ويبلغ طول هذه الصخرة من الشمال إلى الجنوب 17 متراً و70 سنتمتراً ويبلغ عرضها من الشرق إلى الغرب 13 متراً و50 سنتمتراً[30].

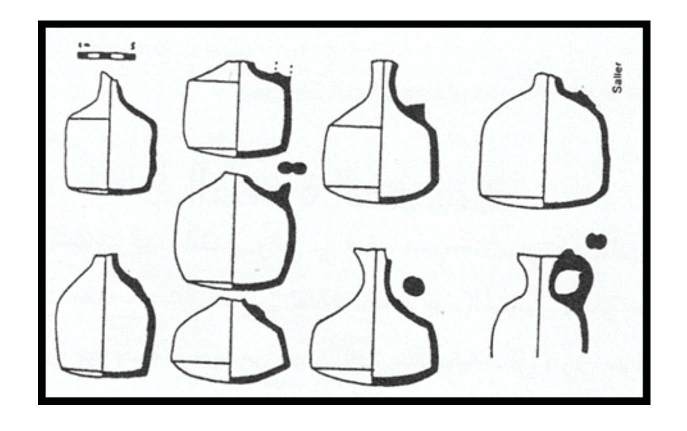
ورغم أن هذه الصخرة كانت خارج أسوار مدينة القدس الكنعانية، وعلى مرتفع موريا لكنها كانت مقدسة مثل جبل موريا نفسه.

تروى الأخبار أن (ملكي صادق) كاهن وملك القدس الثانية كان يقدم الأضاحي والقرابين ويقوم بالطقوس الدينية عند هذه الصخرة، وكذلك فداء قصة ابن إبراهيم على جبل موريا، ويؤكد هارولد مار أن هذه الصخرة كانت مميزةً عند اليبوسيين الذين اعتادوا تقديم القرابين عندها[31].

5. الآثار المادية المنقولة

ظهرت الكثير من الآثار المادية في المقابر والمدافن العائدة لمدينة القدس وأغلبها يعود للعصر الوسيط والمتأخر، وخصوصاً في المقبرة العالية ومن هذه الآثار:

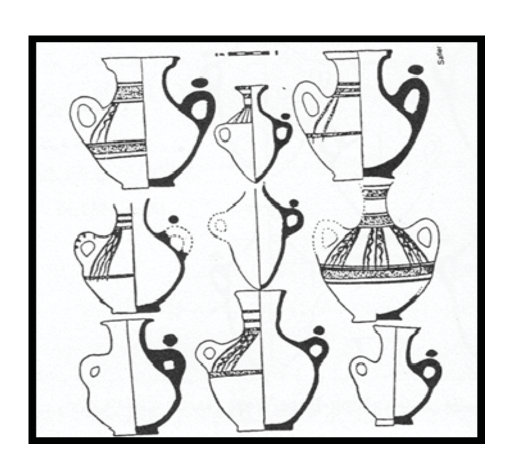
1. الجرار الأسطوانية (Cylindrical Juglet) وهي جرار فخارية عُثر على ما يشبهها في فارا وغزة ولخيش وتنتمي لفترة الهكسوس واستعملها اليبوسيون بعدهم، وقد استعمل بعضها لدفن الموتى في نهاية العصر البرونزي الوسيط واستمر ذلك إلى العصر البرونزي المتأخر[32]



شكل (13) جرار أسطوانية من المقبرة العالية في القدس

المرجع: Mare 1987: 49

2. الجرار الـصغيرة المـصبوغة والأوعيـة (Small Painted Jars Bowls): وهـي حاويـات فخاريـة عُـثر عليهـا في المقـابر اليبوسية تشير إلى العصرين البرونزي الوسيط والمتأخر، وتظهر فيها ألواح عرضية بارزة تشبه تلك التي تظهر في الجرار المسينية وهناك جرار ذات جوانب مستقيمة أو منحنية، وهي على العموم ذات قاعدة، وقـد عُـثر عـلى آلاف الجرار التي تحمل انحناءً حاداً على جوانبها. وهناك جرار ذات فم يـشبه قـرص البـوق وقاعدتـه مـدورة ومسطحة وحلقية[33].



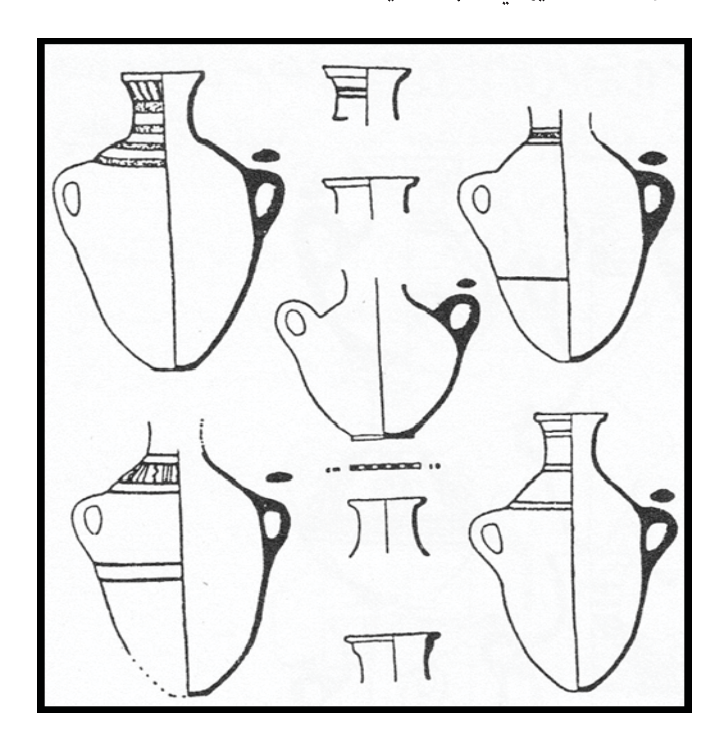
شكل (14) جرار صغيرة وأوعية

المرجع: Mare 1987: 49.

3. الأباريق (Jugs): عُثر عليها في أماكن الدفن اليبوسية وفي المقبرة المرتفعة، ولها عنق صغير أو بدون عنق تماماً ولها أيدٍ تظهر إما من الحافة أو الرقبة إلى الأكتاف، وهناك أباريق قرنفلية وثنائية التحدب، واكتشف ما يـشبهها في حازور[34].

4. الجرار المدببة (Dippers): عُثر عليها في المقبرة العالية، وبعضها له قاعدة مـدورة تغطـي قاعدتـه المدببـة وتـشبه تلك التي وجدت في لخيش.

5. الجرار الكبيرة (Large Jars): عُثر عليها في المقبرة العالية.



شكل (15) جرار كبيرة عُثر عليها في المقبرة العالية

المرجع: Mare ,1987:50

6. الأدوات والأوعية الحلقية القاعدة (Ring-Base Ware): عُثر عليها في المدافن اليبوسية، وعُـثر عـلى مـا يـشابهها في حازور وأريحا.

7. الكؤوس والأوعية القاعدية (Goblets or Pedestal Vases): وجدت في المدافن اليبوسية.

8. المصابيح (Lamps): منحتنا المقبرة العالية مئات المصابيح الفخارية وكان معظمها مكسوراً وهي من النوع الصحني ووجد ما يشبهها في مجدّو[35].

9. أدوات فخارية مختلفة: مثل الدوارق والكؤوس والكسر الفخارية لأشكال نسائية ولرموز قضيبية، والأواني ذات الأشكال الحيوانية كالثور.

10. المرمر والزجاج الخزفي (Alabaster and Faience Glass): وقد قام بن دور (Bin Dor) بدراسة المرمر والزجاج الخزفي البيوسي ولاحظ أن هناك صلات تجارية مع مصر تشير إليها هذه الصناعات. وهناك فقط قطعتان من الزجاج، كلاهما على شكل صفحتين معدنيتين، وجدتا في المقبرة العالية. وقد عُثر في تل الدوير ولخيش ومجدّو على أشياء مشابهة تعود إلى (1550-1479)ق. م. وهناك خمس أوعية خزفية مصنوعة من الرمل والطمي موجود مثلها في لخيش وأريحا. وعُثر على (28) خرزة مصنوعة من عجينة زجاجية، وأحياناً من حجر، في المقبرة العالية، ولها عدة ألوان هي الأحمر والأبيض والأزرق والبني والأسود[36].

11. الأدوات المعدنية: من الأدوات المعدنية التي وجدت في المقبرة العالية كان هناك ما يلي[37]:

أ. 75 شفرة برونزية (أو نحاسية؟).

ب. حوالي 24 حلقة (شكلها الحلقي مازال متصلاً).

ج. حوالي 40 دبوس مسماري (معظمها محفوظ في عيّنة).

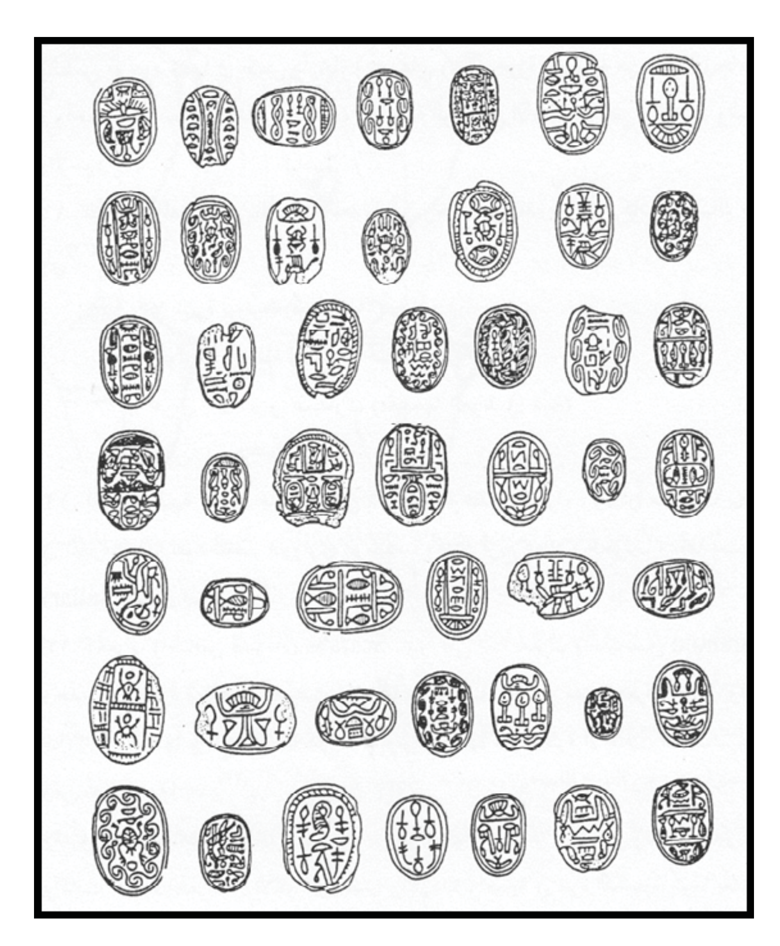
د. 3 إبر.

12. المواد العظمية: هناك ما يقرب من 16 صفحة عظمية صفراء، ونادراً ما تكون بيضاء في المقبرة العالية تعود للعصر البرونزي الوسيط، وهناك أربع عظام وحجرتان اسماها سالار (Sallar) المغزل المسطح[38].

13. الجعران (الخنافس السوداء) Scarabs: عُثر على ستة جعران وجُعيل Scaraboid وجدت في المقبرة العالية وقد صُنفت على أنها هكسوسية. ثم على سبعة جعران أخرى وقرر سالار بأن بعضها يرجع لفترة ما قبل الهكسوس وبعضها خلال فترة الاحتلال المصري في زمن تحوتمس وما بعده[39].

وقد وجد ما يشابهها في أريحا، تل بيت مرسيم، لخيش، مجدو وحاصور وتل الدوير. وكانت ظاهرة الجعران في الآثار الفلسطينية والأردنية واضحة في فترة الهكسوس وما بعدها ولا

شك أن هذه الجعران إما مصرية الصنع أو متأثرة بالـصناعة المـصرية، وكانـت الجعـران تـستخدم كأختـام وأحيانـاً كتعاويذ.



شكل (16) جعران مختلفة من أماكن متفرقة في فلسطين

المرجع: إبراهيم، معاوية، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، 1990 ص101.

2. المرجعية التاريخية

فلسطين وضعف مصر والهكسوس

انقـــسم العـــصر البرونـــزي الأوســـط للقـــدس، ولفلـــسطين بعامـــة، إلى قـــسمين أساســـيين، شـــهد

القسم الأول منذ (1950-1700) ق. م. ازدهاراً واضحاً بُنيت فيه مدينة القدس الثانية على أنقاض مدينة القدس الأولى: أما القسم الثاني منه فقد شهد تدهوراً واضحاً في حضارة فلسطين منذ (1700-1550)ق. م. وهي الفترة التي بدت القدسُ خاليةً من السكان على أثر دمار واضح.

يناظرُ القسم الأول ظهور الدولة الوسطى القوية في مصر، ويناظر القسم الثاني ظهور الهكسوس في مصر.

تذكرُ لنا (نصوص اللعنات Execration Texts) المصرية حوالي (1810-1770)ق. م أن قيادات الأمراء والشيوخ المحليين قد نشأت في مدن وقرى فلسطين، وتذكر لنا هذه النصوص المكتوبة على كسر فخارية باللغة المصرية الهيراطيقية القديمة أسماء المدن وحكامها "وكانت العادة هي كتابة أسماء الأعداء على الأواني ثم تحطيمها في أحد طقوس السحر التأثيري، أي الذي يرمي إلى التسبب في سقوط الأتباع العصاة.

وثبت أن تاريخ تلك الأواني يرجع إلى فترة حُكم الفرعون سينروستريس الثالث (1878-1842)ق.م، وكانت عليها أسماء تسع عشر مدينة كنعانية من بينها مدينة روشاليموم، وتعتبر تلك أول إشارةٍ إلى تلك المدينة في أي سجل تاريخي"[40].

كانت فلسطين تسمى في ذلك العصر عند المصريين باسم (رتينو) الغامض المعنى، ولكن المعنى الحرفي لاسم (روشاليموم) هو: شاليم وضع الأساس.

ففي العالم القديم وفي الشرق الأدنى والبحر المتوسط كان الناس يعتبرون أن الاستيطان وتخطيط المدن من الأعمال الربانية، وإذا كان تل الأكمة (أوفل) قد اجتذب المستوطنين بسبب موارده المائية ومزاياه الاستراتيجية فإن اسم المدينة يدل على أن المبادرة صدرت عن الإله[41]. ويمكننا أن نحصي الاشتقاقات التالية التي ظهرت من اسم أورسالم في جميع أدوار العصر البرونزي:

الاسم	أصله اللغوي	مكان ظهوره	معناه
أورشاليم	إبلائي	ألواح إبلا	-
أور سالم	أكدي	ألواح أكدية	أسسها الإله سالم
أور شالم	أكدي	ألواح أكدية	الإله الكامل، النور الكامل
يورو شاليم	مصري	نصوص الطهارة القرن 19 ق. م	-
أوشاميم	مصري	نصوص اللعنات القرن 18ق. م	-
روشاليموم	مصري	نصوص اللعنات القرن 18 ق. م	شاليم وضع الأساس
أو شاليم	مصري	القرن 14 ق. م	-
أور ساليمو	أموري	؟	مدينة سالم (الأمين)
كيله	أكدي	رسائل تل العمارنة	-
إيفن	؟	رسائل تل العمارنة	-
راشاليم	؟	رسائل تل العمارنة	-
يورساليم	؟	رسائل تل العمارنة	-
يابيشي	؟	رسائل تل العمارنة	-
نورمستك	أكدي	سجلات ماري	-
شهر شلايم	أوغاريتي	ألواح أوغاريت	نور الشفق، الشفق

جدول (3) أسماء القدس في العصر البرونزي

وهكذا نرى أن أغلب أسماء القدس في العصر البرونزي دارت حول الاسم (أورشليم) الذي أصبح اسمها الثابت، تقريباً، في العصر الحديدي.

والجدير بالذكر أن هناك اسماً آخر للقدس قد يكون أول اسم معروف لها، وقد يكون سابقاً على كل هذه الأسماء، هو اسم (منورتا) الذي يوحي بأصل سامي آرامي معناه (الشمعة أو الضوء) والتسمية مقصورة على ما يبدو، علماً بأن لفظة (قدرون) الآرامية السامية تعني (الظلام أو الكدر) فتصبح المدينة (منارة في الظلام)[42].

وقد تكون الإشارة السابقة موحيةً بالاسم الأقدم الذي ظهر في العصر البرونزي المبكر

عند أول بناء المدينة، وعلى ذلك يمكن أن نقول أن نقول أن اسمها (منورتا) كان هذا الاسم الأموري (وليس الآرامي) الأول الذي كان يعني النور أو الضوء وربما كان هذا يشير إلى إله أموري بهذا الاسم حلّ محله فيما بعد ما يقابله عند الكنعانيين وهو (شالم).

أما المرحلة التاريخية الثانية في العصر البرونزي الأوسط فتبدأ مع آخر ملوك الدولة الوسطى في مصر (1778-2052) ق. م من الأسرة الثانية عشر ومرحلة الضعف الثانية (1778-1675)ق. م التي شغلتها الأسرتان الضعيفتان الثالثة عشر والرابعة عشر ثم مرحلة الهكسوس (1775-1660)ق. م التي شغلتها الأسرتان الضعيفتان الخامسة عشر والسادسة عشر ثم مرحلة الأسرة السابعة عشر (1660-1570)ق. م التي كانت مرحلة الكفاح ضد الهكسوس ثم مرحلة أول ملوك الدولة الحديثة أحمس الذي طارد الهكسوس في فلسطين.

وبذلك تكون المرحلة الثانية من العصر البرونزي الأوسط مرتبطة تماماً بالتخلخل السياسي الذي حصل في مصر من خلال مجيء الملوك الضعفاء ثم الهكسوس ثم محاربتهم ومطاردتهم وهو ما حصل عبر ستة أسرٍ مصرية من (12-18). ويبدو أن اضطراب نهاية البرونزي الأوسط لم يجيء من المناخ، كما هو في نهاية البرونزي المبكر، بل جاء تحديداً من الهكسوس وهم يحضّرون لهجومهم على مصر عبر الأردن وفلسطين ثم وهم يقيمون حكماً قلقاً في مصر شمل فلسطين ثم وهم يطردون من مصر إلى فلسطين.

1. الهكسوس في الأردن وفلسطين

ظلّ العلماء يرددون كثيراً كلمة هكسوس دون أن يدركوا معناها الحقيقي، فقد ذكر كثيراً أن هذه الكلمة مشتقة من التسمية المصرية HK_3H_3ST (هك هست) وربما قُرأت (هيكا خاسوت) التي ترجموها على أنها (حكام البلاد الأجنبية). وترجمها مانيتو[43] نقلاً عن المؤرخ اليهودي يوسيفوس[44] بـ(ملوك الرعاة) لأن (هيك) تعني في اللغة المقدسة (ملك) و(سوس) تعني في اللغة الدارجة (راعي)[45].

ويتابع يوسفيوس اشتقاقاً آخر لاسم هكسوس من مصدر آخر فيذكر أنها تعني (الأسرى الرعاة) لأن كلمة (هيك) بالمصرية تعني (أسير) وهو بفضل هذا الاشتقاق لأنه يعتقد، كما يعتقد كثيرٌ من دارسي المصريات كذلك، أن قصة التوراة عن دخول الإسرائيليين إلى مصر ثم الخروج بعد ذلك لها أصولها في احتلال الهكسوس ثم طردها فيما بعد[46].

ويرى جاردنر أنه برغم وجود أسس لغوية سليمة للإشتقاقين فإنهما جانبا الصواب معاً وكلمة هكسوس مشتقة من غير شك من اصطلاح (حيق-خاسة) أي (رئيس البلد الأجنبية الجبلية) التي كانت تعني منذ عهد الدولة الوسطى (مشايخ البدو)[47].

ولكننا نرى غير ما رآه جميع الباحثين، الذين عالجوا هذا الأمر، وهو أن الهكسوس هم أقوام خليطة من الأموريين والبدو، ولكن هوية هؤلاء الأموريين هي ما نود الكشف عنه هنا. فنحنُ نرى أن العصر البرونزي المتوسط في شرق الأردن شهد ظهور ثلاث ممالك قوية هي شوتو العليا وشوتو السفلى وكوشان. ونرى أن أقوام شوتو أو سوت هي التي كوّنت الجزء الأعظم من الهكسوس عندما تحركت مع أقوام أخرى كالحوريين باتجاه مصر. ولذلك توجب تعديل تفسير لفظ ومعنى الكلمة المصرية (HK_3H_3ST هك هـ ست) ونقترح لها معنى (أمراء السوت) أو (أمراء الشوتو)، ولكي نبرهن على صحة ما ذهبنا إليه نقول أن هؤلاء الشوتو (سوت) اشتقوا اسمهم من اسم إلههم القومي (ست) وهي عادة أمورية نجدها بوضوح عندما تسموا وهم في بلاد الرافدين باسم إلههم القومي هناك (مر). لكن هذا الإله تحول لفظهُ بعد الاستقرار في مصر إلى (سوتخ) وطوبق مع إله محلي عند المصريين يقترب منه في اللفظ والوظيفة وهو (ست) إله الصحراء والليل، وهو ما حصل بالضبط مع الأموريين القدماء عندما دخلوا بابل وحوّلوا إلههم القومي (مارتو) إلى (مارتوخ) أو (مردوخ) الذي هو إله محلي سومري الاسم واحد في الحالتين (سوتخ) و(مردوخ).

والحقيقة أننا أردنا من هذا الاستنتاج الوصول إلى فكرة أن أقوام (الشوتو) كانت موجودة في شرق الأردن ولكنهم سرعان ما تحولوا إلى أقوامٍ غازية ضمت لها كل من راقت له فكرة غزو مصر من الأقوام والقبائل البدوية المحيطة بها، وقد حصل هذا فعلاً ونجح الغزو لأنهم اختاروا وقتاً دقيقاً كانت فيه مصر تتفكك إلى ولايات مستقلة عندما انتقلت العاصمة من طيبة إلى سخا التي حكمها 76 ملكاً خلال 184 سنة إبان حُكم الأسرة الرابعة عشر وبذلك تهيأ للهكسوس تشكيل الأسرة الخامسة عشر بعد هذه الفوضى.

ويقرّبنا الاستنتاج السابق من الحقيقة التي تقول أن هجوم الهكسوس كان ردّ فعل طبيعي من الأقوام الأمورية والبدوية في جنوب بلاد الشام (الأردن وفلسطين) على مصر التي كانت دائماً تحاول السيطرة على هذه المنطقة ضماناً لوضعها الاقتصادي الذي كان يعتمد عليها.

تمكن الهكسوس بعرباتهم التي تجرها الخيول وبأسلحتهم المعدنية وبجرأتهم من احتلال الدلتا وبدأوا يشيدون مدناً محصنةً بطريقة جديدة تعتمد على بناء سياج مستطيل طوله نصف ميل تحيط به أسوارٌ مرتفعة وكثيفة ومنحدرة من الطين المرصوص القاسي. وكان السياج محاطاً بخندق واسع.

وكانت مثل هذه الحصون قد ظهرت في فلسطين قبل ظهورها في مصر مثل شكيم (نابلس) بيت شمش (قرية عين شمس الخربة الكائنة على بعد عشرين ميلاً غرب القدس حيث يقيم قربها موقع تل الرميلة وهو موقع بيت شمش القديمة)[48].

2. إمبراطورية الهكسوس في مصر وفلسطين

سقطت الدلتا بأيدي الهكسوس واتخذوا أواريس (أفاريس) وهي (صان الحجر) في شرق الدلتا عاصمة لهم، ثم واصلوا زحفهم جنوباً فاحتلوا منف وأقاليم مصر الوسطى حتى بلغوا شمال أسيوط ثم احتلوا الصعيد.

وقد وردت إشارة من السلالة الخامسة عشر الهكسوسية تفيد أن ملكها أبوفيس هو (أمير ريتينو) وريتنو هنا هو الاسم المصري لفلسطين في حقبة العصر البرونزي الأوسط.

ويرى أ. كمبينسكي (A. Kempeinski) أن إمبراطورية السلالة الخامسة عشر المصرية تمركزت في جنوب فلسطين والدلتا ونافست مملكة حلب في سوريا على جنوب المشرق، وقد سبقت مباشرة سيطرة السلالة الثامنة عشر على فلسطين بالتنافس مع الحيثيين، مع المسارعة إلى ترجمة العلاقات اللغوية والثقافية والتجارية إلى نفوذ سياسي وعسكري مباشر[49].

ونرى أن هذا النفوذ السياسي والعسكري جنّد المدن الأمورية والكنعانية، وبشكل خاص، في الأردن وفلسطين لتوطيد الحكم، بل، وربما، سعى إلى تهجير بعضها إلى مصر لكي يضمن وجوداً بشرياً مسانداً له.

3. طرد الهكسوس إلى فلسطين

عندما خاضت الأسرة السابعة عشر كفاحها ضد الهكسوس كانت مصر، باستثناء طيبة، خاضعة لهم. وأخيراً تمكن أحمس من حصار عاصمتهم أواريس شرق الدلتا، وبعد أن سقطت فرّ الهكسوس من مصر ولاحقهم أحمس إلى مدينة (شاروهين) وهي تل الفارعة الجنوبي حالياً في غزة، وهناك حاصرهم ثلاث سنوات. ولم تكن نيّة مصر في البداية إقامة إمبراطورية عسكرية

وسياسية خارج مصر.. لكن وجود عمق لها يمتد إلى فلسطين (كما فعل ذلك الهكسوس) كان أمراً عسكرياً واستراتيجياً حاسماً بعد التطورات التي حصلت.. وهكذا بدأت فكرة الإمبراطورية.

وكان أن اندفع الهكسوس في المدن الفلسطينية الأخرى هرباً من المصريين وكان لهذه الهزيمة أثرها السلبي على المدن الفلسطينية وربما كانت القدس واحدة منها.

3. المرجعية المثولوجية (أسطورة الإله شالم)

عبد الكنعانيون عدداً من الآلهة على مدى تاريخهم الطويل. وكان لهم آلهة كونيون كبار يتولون شؤون مظاهر الطبيعة الأساسية، ولهم آلهة صغارٌ يتولى بعضهم وظائف صغيرة محددة وبعضهم الآخر يتولى حماية المدن.

كان الإله (إيل) كبير الآلهة وهو يقابل الإله (كرونوس) عند الإغريق و(إيا) عند البابليين و(آمون رع) عند المصريين، وكان يجمع بين صفات الهواء والماء ويلقب بالعديد من الألقاب منها: أب الآلهة والبشر، خالق الخلق، الملك، أبو السنين.. إلخ.

وقد ظهر نسلٌ كبيرٌ من الآلهة نتيجةً لزواجه أو اتصاله الجنسي من أخواته الإلهات (عشيرة وعشتارة وريّا وبعلتيس والحورية أنوبرت.. ألخ) وله عدة أساطير تدور حول قوته وقدرته في شبابه وعجزه وضعفه في شيخوخته.

ولعلّ أشهر وأقوى أبنائه هو الإله (بعل) الذي أخذ دوره فيما بعد وأصبح الإله الأقوى للكنعانيين وتمثل صفات الطقس والخصب والخليقة.

ويبدو أن الإله (إيل) كان قد عُبد مبكراً في القدس واكتسب فيها اسم (إيل عليون) أي (الله العليّ) ولاشك أنه كان على رأس الآلهة في القدس ويبدو أنه كان إله ملك القدس القديم الذي تذكر الروايات الإخبارية والتوارتية (ملكي صادق) الذي قابل إبراهيم.

وكان إله مدينة القدس المحلي والحامي لها ابن الإله إيل وهو الإله (شالم) الذي أُشتُق اسم المدينة القديم منه (أورشالم) أي (مدينة الإله شالم) وأحياناً (نور الإله شالم) وسنتحدث عنه مفصلاً.

أما صادق فنرى أنه كان اسم إله آخر لعله أحد أبناء الإله إيل ويدل على وجوده في القدس اسم (ملكي صادق) الذي ذكرناه.

أما الإلهة الرابعة التي يرجّع عبادتها في القدس (في العصر البرونزي) فهـي (هبـه) أو (حيبـا) أو (هيبـات) ونستدل من اسم ملك القدس (عبدي حيبا) على وجودها وهي إلهة من إبلا ثـم اشـتهرت كإلهـة حوريـة وحيثيـة وربما تكون قد تسربت إلى مجموعة آلهة مدينة القدس (شكل17).





Baal, the storm god, is represented holding a club in his left hand. The lance extends upward in the form of a tree, or stylized lightning. Found at Ras Shamra in 1932.





شكل(17) آلهة مدينة القدس في العصر البرونزي

1. الإله إيل يستقبل هدايا ملك أوغاريت (أوغاريت).

2. الإله بعل في العصر البرونزي (نصب من أوغاريت).

3. الإله شال وشهار يرضعان من ثديّ عناة (القصر الملكي في أوغاريت).

4. و5 الإله هبه (هيبات) وخلفها ابنها (شاروما) تتقدم بالهدايا إلى إله الطقس الحوري (تشوب)، وفي النقش الأخير رموز الآلهة لعل أهمخا الأسد والحيوان المجنح والقرص المجنح (متحف برلين).

الإله شالم

الإله شلم أو سلم أو شالم هو ابن الإله إيل ولكنه لا يأتي عن طريق الاتصال الجنسي، بل عن طريق التقبيل والعناق فقط، إذا تحدثنا الأسطورة الكنعانية المسماة (مولد السحر والغسق أو الآلهة الجميلة الوسيمة) عن ولادة زوج من الآلهة هما (شحر أو سحر أو شهر) أي إله السحر قبيل الفجر، والإله (سالم أو سلم أو شلم) الذي يعني في جميع اللغات السامية إلى التمام والكمال والنهاية وليس إلى السلام حيث يرد السلام معنىً ثانوياً لا معنى أصيلاً ويشير هذا الإله لنهاية النهار عند غياب وتسليم الشمس[50].

ويصير التفسير الدقيق لمعنى (شحر) و(شالم) هو (إله الغسق) و(إله الشفق) ويرمز لكل منهما بنجمةٍ هما (نجمة الصباح) و(نجمة المساء) وهما يشيران إلى كوكب الزُهرة الذي يسبق ظهور الشمس قبيل الفجر ويتلو غياب الشمس بعيد الغروب، ونرى أن كلمة (زُهرة) في العربية ما هي إلاّ تأنيث لكلمة (زُهر) أو (سهر) أو (شهر) التي تدل على نجمة الصباح أو الوجه النهاري للزُهرة، ونستشفُ من كل ما سبق أن هذه الأسطورة هي أسطورة ولادة كوكب الزُهرة الذي يُنظِّم ظهور الشمس نهاراً وظهور الكواكب ليلاً كما كان يعتقد سابقاً.

ولكن لهذه الأسطورة وجهاً آخر يرتبط بدوره الخصب في بلاد الشام عموماً فهي تقدم لنا تصوراً مثولوجياً عن نهاية السنوات السبع العجاف وبداية السنوات السبع السمان (دورة السنوات السبع) ويتكون نص هذه الأسطورة من حوالي إثني عشر مشهداً سنوجزها في هذه النقاط:

1. دعوة الآلهة والملك والملكة لحضور الاحتفال في الهيكل والمخصص لتحديد قوى إيل التناسلية بعد تقدمه في السن لتنتهي السنوات السبع العجاف وتعود قوى الخير والخصب إلى الأرض.

2. طقس فرك الكروم: حيث تجرى عملية تهذيب الكروم التي ترمز إلى الموت، ثم تجديد الحياة، وهي نوع من القدّاس الإلهي تجرى فيها عملية قطع وبتر شخصية إلهية تسمى (الموت والشر) صاحب صولجاني الحرمان والترمل.

3. تلاوة نشيد لولادة وحفظ الآلهة السبعة الخيرة الذي سيرعى فيه كل إله ينةً من السنين السمان القادمة.

4. طقس طبخ الجدي في لبن أمه وهو طقس كنعاني قديم معروف ويتم ذلك في حقول عشيرة الفردوسية زوجة إيل ومعها عناة ابنها.

5. صراع عناى (رحماي لاسي) مع البطل الطيب وهو مشهد يصور شخصية عناة (إبنة إيل) وقوتها أمام الأبطال.

6. مشهد مساكن الآلهة والشعائر ذات الأركان السبعة.

7. الغيرة على الأسماء الإلهية لمعبودات (أبناء شاروما) وهنّ من نسل الإله شاروما ابن الآلهة هبه أو هيبات التي يُرجّح عبادتها في القدس.

8. دعاء الآلهة الطيبة التي ستلد وترضع ثدي عشيرة، ويقوم كبار القوم بتحضير الضحايا الطيبة للمأدبة.

9. مشهد حقول الفردوس (حقول عشيرة وعناة).

10. المشهد الرئيسي الأول: مولد إلهي الغسق والشفق (شهار وشاليم) حيث يظهر الإله أيل وهو يخلق إلهتين على النار، أما الإلهتان عشيرة وعناة فيردد الراقصون أمامها نشيداً لإكثار حليب الثدي، ويظهر ضعف إيل الجنسي الذي يحاول إزالته عن طريق شوي طائر السلوى وأكله دون جدوى. ولذلك يقرر إيل أن يجرّب الاتصال العاطفي (وليس الجنسي) مع الإلهتين عشيرة وعناة فيقبلهما ويعانقهما فتحملان وتلدان إلهين جميلين هما (شهار وشاليم) وهما إلها حب وعاطفة فيرفعهما إيل إلى السماء ليكونا نجم الصباح والمساء (كوكب الزهرة) الذي يكون رمزاً للحب.

11. المشهد الرئيسي الثاني: ولادة إلهين طيبين آخرين بنفس الطريقة ويمتازان بنهمهما فيضعهما في الصحراء ويسميان (جرزيم) أي الآلهة القاطعة التي ربما كان سكنها الصحراء.

12. المشهد الرئيسي الثالث: ولادة السابوع الإلهي ليزيح إيل به جدب السنوات السبع الذي يتم عن طريق التقبيل والاحتضان أو عن طريق الكلمة حيث كلمة إيل هي المطر.

رئيس الآلهة يـدعو سـائر الآلهـة للاشـتراك بالاحتفـال، أو الوليمـة المقدَّسـة، أو المائـدة المقدَّسـة، ويبـارك الجمهور الحاضرين.

وفيما يلي النص الكامل لأسطورة مولد الآلهة الجميلة التي ترجمها عن الأصل الكنعاني أنيس فريحة[51]:

1. إنني أدعو الآلهة الصالحة .....

2. والوسيمة أبناء الملوك .... (أو أبناء السماء).

3. ليُعْطوا مجداً للعلي ....

4. في البرّية، [في] الهضاب، ليُضَع (؟) تاج (؟).

5. على رؤوسهم، ليوضع على هاماتهم.

6. هَيّا كلوا من الخبز، واشربوا من الخمر المختمرة (= المعتَّقة).

7. ليكن سلامٌ لك أيها الملك، سلامٌ أيتها الملكة والشيوخ والمردّدون.

[في الفقرة التالية فصلٌ تمثيلي رمزي على شيء من غموض الرمز فيه. رجل (أو ربما رجلان؟) يمثل الموت والقوة (حرفياً: الموت والملوكية). بيد يحمل عصا الثكل (أو عدم الإنسال) وفي الأخرى عصا أو صولجان فقدان الزوجة (أي الترمّل). ثم يقوم زابرو الكرمة ويزبرونه كدالية ويقتلعونه من الأرض كما يقتلعون كرمة].

8. جلس الموت والقوة (م ت. وش ر) بيده صولجان الثكل وباليد [الأخرى].

9. صولجان الترمُّل. [قام] الزابرون يزبرونه ككرمة (جفنةٍ).

10. والصامدون يصمدونه ككرمة، يقتلعونه من الحقل (من حقل موته؟).

11. كما [يقتلعون] كرمةً.

[سطر 12 فيه تعليمات للممثلين على المسرح].

12. سبع مرّات يُعرف على [ضرب] العود. والشيوخ (الشمامسة) يجيبون:

[اللازمة، أو القرار الذي تردده الجوقة على ضرب العود].

13. [انظروا] الثدي، الثديّ الإلهي، ثدي أشيرة و[عناة] رحمايا.

14. سبع مرّات يطبخ الفتيان على النار جدياً بحليب (أمّه) والنعناع وبالزبدة.

15. وفي القدر سبع مرّات [يُعِدُّون] القرابين (؟).

[في الفقـرة التاليـة يبـدو أن تمثـالي عنـاة وأشـيرة يُزيّنـان بـالملابس الفـاخرة ويُـسِيَّران في موكـب.

ثم إعداد ثمانية أمكنة أو مجالس للآلهة - وهناك تعليمات أن يُكرّر هذا العمل سبع مرات].

16. تتمشى رحمايا (=عناة) وتجوب اشيرة الصحراء، تصطاد في الصحراء؟).

17. تتمنطقان بنطاق الأبطال. تلبسان لباس الجمال.

18. وأناس (؟)، خدمة القداس، عُبَّاد القمر (؟).

19. ثمانية مقاعد للآلهة.

20. سبع مرَّات.

[السطران التاليان لازمة أو قرار ترددهما الجوقة].

21. إنني غيورٌ على أسماء.

22. أبناء الملوك.

[قائد الجوقة يدعو الآلهة ويبارك الشعب].

23. إنني أدعو الآلهة الصالحة (أ ج ز ر ي م) الذين لهم من العمر يومٌ واحد (أبناء البحر).

24. الذين يرضعون حلمة ثدي اشيرة.

25. (أدعو) الشمس التي تُصَفِّر (أو تنضج، أو تكثِّر) الأغصان.

26. وعنبٌ. سلامٌ أيها الشيوخ، والمردُّدون (=أعضاء الجوقة).

27. الآتون بقرابين (حرفياً: ذبائح) حسنة.

[بعد البركة تردد الجوقة لازمة أو قراراً:]

28. يا لثدي، يا لثدي إلهيّ، ثدي اشيرة ورحمايا (=عناة).

29 .... جلس ....

[والآن ينتقل الشاعر بنا إلى بيت إيل قرب شاطئ البحر. باب بيته مشقوق قليلاً بحيث يستطيع المرء أن يرى ماذا يجري في الداخل. إيل يذهب إلى البحر ليجلب ماءً. إمرأتان تراقبانه عن كثب وتعجبان من نشاطه وسرعة حركته وهو في هذه السن المتقدمة].

30. .... عند حافة البحر، ويتمشى (؟) عن شاطئ الغمر.

31. ويأخذ إيل [الماءَ] حفنةً إلى رأس القِدر.

32. [إمرأتان] هذه تنحني إلى أسفل، وتلك تنهض، هذه تصرخ: أبتي! أبتي!

33. وتلك تصرخ: أمَّاه! أمَّاه!. لتمتدّ (لتَطُل) يد إيل كالبحر.

34. ويد إيل امتدّت كالمدّ وطالت كالبحر.

35. يدُ إيل كالمدّ. [ثم إن] إيل أخذ حفنةً.

36. حفنةً إلى [أن ملأَ] القِدر إلى الرأس. ثم أخذها ووضعها في بيته.

[إيل يرمي طيراً، وينتف ريشه ويطبخه، ثم يعود إلى المرأتين المعجبتين بفتوته وقوة إغرائه بالرغم من شيخوخته. المرأتان تعرضان نفسيهما إما كبنات يقدّمن أنفسهن لأبٍ أو كزوجات].

37. وضع إيل عكّازه، واطّرح (؟) صولجانه (عصاه) جانباً، ثم رفع يده.

38. ورمى [سهماً] نحو السماء، وفي السماء [يرمي] طيراً فينتف [ريشه] ويضعه.

39. على الفحم إيل يصبي (يغري؟) المرأتين، والمرأتان صرختا:

40. يا رجلُ، يا رجلُ، [ها إنّ] عُكّازك وُضعت، صولجان [عصا] يدك وُضِع جانباً.

41. والطير يُشوى (يحترق) على النار، ينقلي على الفحم!

42. المرأتان، أمرأتا إيل، على الدوام، وهما.

43. المرأتان: صرختا: أبتاه، أبتاه، عكّازك وضعت، صولجان.

44. يدك وُضع جانباً، والطير يُشوى على النار، [ولكنَّ].

45. (الذي) ينقلي على الفحم هو بناتٌ: بنت ال، بنت إيل.

46. [وبناتك] دوماً. ثم إن المرأتين صرختا: يا رجلُ يا رجل.

47. عكازك قد وضع جانباً، صولجان (عصا) يدك وضع جانباً والطير.

48. يشوى على النار، [ولكنَّ الذي] ينقلي على الفحم زوجتان، زوجة إيل.

[إيل يتقبّل إغراءَهن كزوجات. وفيما يلي زواج رمزي مقدس يُسفر عن مولد آلهة جميلة صالحة].

49. وزوجة، زوجتان لك على الدوام. فانحنى، وشفاهَهُنَّ قَبَّل ،

50. ها إن شفاهَهُن حلوة، حلوة، كالرمَّان.

51. وهكذا بالتقبيل، حبلتا، بالعِناق الحميم، جاءَهما المخاض.

52. وولدتا السحر والغسق. جاء الخبرُ (حرفياً: كلمة) إلى إيل: إن زوجتَي.

53. أيها الإيل ايل، ولدتا. ماذا ولدتا؟ وَلَدَيَّ: السحر والغسق.

[إيل يطلب خدّامة أن يرقعوا القرابين لقربة الشمس، والكواكب الثابتة لأن السحر والغسق يـنظمان الآن ظهور الشمس نهاراً وظهور الكواكب ليلاً].

54. هيّا انهضوا! أعِدُّوا [قرابين] للربّة الشمس، للكواكب الثابتة.

[يعود بنا المشهد التالي في الملحمة إلى الزوج الآدمي].

55. ينحني وشفاههن يقبّل. ها إن شفاههن حلوة، حلوة.

56. بالتقبيل حبلتا، وبالعناق الحميم عُدْن (؟) جلسْنَ؟

57. يعُدّ خمساً .... الجمهور. كلتاهما.

58. تشعران بالمخاض وتلدان، وتلدان آلهة جميلة هائلة (؟).

59. وفي يومهم الأول يرضعان ثدي [السيدة]. وجاء الخبر إلى إيل:

60. زوجتاي، أيها الإله إيل، ولدتا. ماذا ولدتا؟ آلهة جميلة .... كَ

61. هائلة، وفي يومهم الأوّل يرضعان ثدي السيدة (=السِتّ). شفة

62. للأرض وشفة إلى السماء، فيدخل الطير إلى فَميَهما.

63. وسمكُ اليمّ، يتناوبان (؟) قطعة لقطعة (؟) يُهيّئان يميناً

64. فشمالاً لفِمَيهما فلا يشبعان. أيتها المرأتان التي تزوجتهما بمهرٍ

65. يا إبنَيّ اللذين ولدْتهما، إنهضا وهَيِّئا في وسط صحراء قدس (صحراء قادش أو الصحراء المقدسة)

66. هناك يسعيانِ (يجريان) بين الصخور والشجر مدة سبع سنوات ،

67. إلى تمام ثماني دَورات يسيرُ الإلهان ذهاباً وجيئة

68. في البرّية، يُطَوِّفان في أطراف الصحراء-وهاهما يلتقيان بناطور

69. الأراضي المزروعة، فيصيحان بناطور الزَرْع: أيها الناطور، أيها

70. الناطور افتح! ففتح شِقًّا أمامهما

71. ودخلا ..... (يوجد) خبزٌ أعطِنا

72. فنأكل ...... خمراً؟ أعطِنا فنشرب

73. فأجابهما ناطور الزرع: يوجد خبزٌ ...

74. يوج خمر للشرب ......

75. ناولهما ((لج)) خمر .....

76. فامتلأ صاحبه خمراً ..... (وهنا ينقطع النص فجأة، والظاهر أن له بقية لم يعثر عليها بعد).

تمثل لنا هذه الأسطورة المركبة الطويلة نسبياً عدداً من المشاهد الأسطورية المؤلفة في نص واحد طويل غلبت عليه الصفة الدرامية ولذلك انقسمت لوحات النص الطينية إلى "أقسام بخطوط أفقية رسمها الكاتب، أم النص ففي شكل تمثيلي مع إرشادات مسرحية تبين الموضوع وشخوص المسرحية في مختلف المناظر، وكانت أصول التمثيلية دينية حيث يقوم النص علماً من أعلام الطريق إلى فجر تاريخ التمثيلية الكلاسيكية (الإغريقية)"[52].

وهذا يعني أن هذا النص يشير إلى إمكانية تنفيذه درامياً في شكل مسرحي شرقي قديم. وقد أفادتنا كل هذه الإشارات الصغيرة وغير المباشرة بعد قراءة تحليلية معمقة في هذا النص إلى وضع فرضية جديدة حوله لعلنا نهتدي من خلالها إلى وصف حقيقة هذا النص.. وهي أن هذا النص يمثل نص (عيد رأس السنة الكنعانية الأكبر) ونرى أن هذا العيد كان يُمثل في بداية رأس السنة الكنعانية، ولنقل بشكل أدق السنة الأوغاريتية.

ويشبه هذا النص في بعض أوجهه نص الـ (أكيتو) البابلي الذي يتحدث في سيناريو شعائري محكم عن الأيام الإثني عشر لعيد رأس السنة البابلية، ورغم الخلافات الجوهرية بينهما وخصوصاً ما يتعلق بالملك وعلاقته بالإله الذي يشكل أساس عيد الأكيتو بينما يكتفي النص الكنعاني بحضور الملك والملكة والأعيان في الاحتفال دون أن يكونوا جزءًا منه أما الاستنتاج الثاني الذي نود وضعه هنا فيخص الإلهين (شهار) و(شاليم). فقد وجدنا أن هذين الإلهين المتلازمين لعبا دوراً كبيراً في مثولوجيات الأمم الأخرى كما سنرى. أما حضورهما في المثولوجية الكنعانية فمازال غمضاً ومبتسراً فهما يوصفان على التوالي بإلهي الخير والعطاء وهما إلهان جميلان خيّران. ويدل الإله شحر (سحر) على وقت السحر أو الشفق قبل الفجر وأصبح يشار له بنجم الصباح (الزُهرة قبل طلوع الشمس). أما الإله شالم (سالم) فهو إله التسليم أو الوداع ويدل على النجم الذي يطلع قبل غروب الشمس في الغسق وهو (الزُهرة قبل غروب الشمس) ويسمى نجم المساء أو نجم العشاء.

وكان الأموريون يعبدون إلهين شبيهين بهما هما (عزيز) و(منعم) وهما أيضاً إلها (الخير أو العزّ) و(الإنعام أو العطاء) ونجد لهما تسمية إغريقية باسم (أزيزوس) و(مونيموس) ويشار

لهما أيضاً بنجمي الصباح والمساء. وكانا يسميان أيضاً في مدينة تدمر بـ (عزّو) و(أرصو) (أنظر الجدول 4).

ويرد اسم مدينة القدس في النصوص المصرية في عهد الأسرة الثانية عشر بصيغة (أور شالم) أي (مدينة شالم) أو (نور شالم) ونجد أن اسم شالم يندس في اسمي ولدي داود (سليمان وأبشالم) وفي الأسماء الأشورية (شلما نصر) والملك المؤابي (شلمانو) وكان اسم (العزى) و(شالم) مرتبطاً بقوة بمدينة القدس وضواحيها منذ الألف الثاني قبل الميلاد حيث تجسّد في نجم بيت لحم[53].

ونرجّح ارتباط اسم الإلهة (إيزيس) باسم (عزيزو) و(عزّو) و(العزّى) خصوصاً أن الإلهة ايزيس ترتبط بالنجم الذي يظهر في السحر، وهي بذلك تتطابق مع الإله (سحر) وكذلك نظيرة ايزيس وأختها (نفتيس) التي يرتبط اسمها بالنجم الذي يظهر في الغسق وهي بذلك تتطابق مع الإله (شالم)[54].

وقد قادتنا هذه الاستنتاجات إلى وضع فرضيتين هامتين حول الإلهين (سحر)و(شالم) وهما:

أولاً: إن هذين الإلهين هما الجذر القديم للإله (ايروس) إله الحب الإغريقي والإله (موت) إله البيضة التي خرج منها العالم في المثولوجيا الإغريقية.

وقد حصل هذا عندما رفعت مرتبة هذين الإلهين من الهامش الكنعاني إلى القمة الإغريقية، فهكذا نجد بأن الخليقة الإغريقية تتحدث عن وجود إلهين أوليين عتيقين هما (إيريب) و(ينكس) ينفصلان عن السديم الهيولي الأكبر ويمثلان الظلام والظلمة ولكنهما ما يلبثان أن ينفصلا فينزل إيريب ويحرر أخته نيكس التي تتجوف فتصبح كرةً كبيرةً في الفلك.

ثم ينفصل نصفاها كما بيضةٍ تنشق نصفين ليخرج منها (إيروس) إله الحب وليرتفع النصف الأعلى ويشكل قبة الفضاء وينبسط النصف الأسفل ويشكل سطح الأرض.

وهكذا تكتسبُ الأرضُ والفضاء واقعاً مادياً ويصير الحب قوة طبيعتهما الروحية وصار إيروس هو الذي يؤمِّن تماسك الكون الناشئ، ومن انحناء الفضاء على الأرض، وجماعهما، بدأت السلالات الإلهية[55].

أمـا الإلـه (مـوت) فيظهـر في روايـة كوزموغونيـة أخـرى حيـث يقـوم الإلـه إيـروس (الـذي قـد

يسمى بوثوس أو الرغبة) ويُخرج (موت) وهو البيضة الكونية التي تفقس وتنقسم إلى قشرة عليا هي السماء (أورانوس) ومادة سفلى هي الأرض (جيا).

ونحنُ نرجِّح أن (إيروس) و(موت) ما هما إلاّ (سحر) و(سالم) الكنعانيين حيث يقابل اسم (موت) الغروب والأفول والغسق،بينما يقابل (إيروس) الظهور والشروق والرغبة (سحر).

ثانياً: إن هذين الإلهين هما الجذر القديم للثالوث العربي الوثني القديم (اللات وعُزى ومناة) وهن الغرانيق العُلا وبنات الله كما كانت تسميهم قريش قبل الإسلام.

وقد عرفنا أن الإله (سحر) ظهر باسم (إيزيس) و(عُزّى). أما الإله (شالم) فيدل على الغروب وموت الشمس واختفاؤها "والإلهة (مناة) في منشئها إلهة الموت والقدر عند البابليين العراقيين وعرفت بنفس اسمها العربي عندهم (مناتو)، وعن البابليين عرفها الكنعانيون والآراميون والأنباط إلى أن وصلت عبادتها العرب الجاهليين فيما بعد فعرفوها بنفس الاسم أو ما يقاربه (منى)، وذكرت مُنى متوحدةً مع الإله (جاد) إله قبيلة جاد في العهد القديم"[56].

إن ربطنا بين (سالم) و(مناة) له ما يبرره لأن كلمة سالم تعني التسليم والوداع والموت. كما أن العُزى ومناة تشكلان وجهين لعملة واحدة هي (اللات) فالعُزى إلهة الصباح ومناة إله الليل واللات هي إلهة الزُهرة، أي أن هذه الآلهة الثلاث تعبر عن إلهة واحدة كانت تمثلها الإلهة (عشتار) وهي فينوس الأكدية والبابلية والتي تلقب بـ (الإلهة) عند البابليين، أما عند الكنعانيين فتلقب الإلهة (عشيرة) زوجة إيل بـ (إيلان) أو (اللات) أي الإلهة. وهكذا نجد أن هذا الثالوث يعبر عن معنيين أحدهما شمسي تظهر فيه اللات كإلهة للزُهرة والعُزى ظهورها الصباحي كنجمة للصباح ومناة ظهورها الليلي كنجمةٍ للعشاء.

وهكذا تتفق الإيقاعات الرافدينية (السومرية والبابلية) للإلهة (إنانا، عشتار) مع الإيقاعات المصرية (إيزيس ونفتيس) مع الكنعانية (اللات، مناة) و(سحر، سالم) مع العربية (اللات، العُزى، مناة) وبذلك نكون قد أزحنا الغموض في شخصية الإلهات العربيات الثلاث وفتحنا لغز أسمائهن وأصولهن الكنعانية القديمة. وفهمنا بدقة شخصية الإلهين (شالم وشحر).

ولنتأمل هذا الجدول الذي يُظهر لنا أشكال شالم وشحر وتحولات إلهة الزُهرة في أساطير الشرق الأدنى القديم:

نوع الأساطير	نجمة الصباح		نجمة المساء	
	اسمها	مدلولها	اسمها	مدلولها
الكنعانية	شهار	السَحَر (الغسق)	شاليم	الشَفَق
الأمورية	عزيز	الخير (العزّ)	منعم	العطاء (النِعم)
البابلية	عشتار	الحب	مناتو	الموت والحرب
المصرية	إيزيس	الحب والأمومة	نفتيس	سيدة الدار
الإغريقية	إيروس	الحب	موت	البيضة الكونية الأولى
التدمرية	عزّو	النهار	أرصو	الأرض(العالم الأسفل)
العربية	العُزى	الحب، النهار، النار	مناة (مُنى)	الموت والقدر

جدول (4) أشكال شهار وشالم تحولات إلهة الزُهرة بشكليها النهاري (نجمة الصباح) والليلي (نجمة المساء)

ولاشك أن سؤالاً في غاية الأهمية لابد وأن يكون قد خطر في البال، وهو أنه مادام هناك مثل هـذا الـتلازم بين شهار وشاليم على المستوى المثولوجي فلماذا خصصت مدينة لشاليم وحده هي أورشليم بينما بقي شـهار دون مدينة؟

والجواب يكمن، في ظننا، بأن مدينة (بيت ساحور) التي يمكن أن تكـون (بيـت شـاهور) أو (بيـت شـهار) هي المدينة التوأم لمدينة أورشليم ونحن نرى أن هذه المدينة تملك عمقاً مثولوجياً قديماً، في العصر البرونزي بشكل خاص، مثلما كانت تملكه مدينة القدس في ذلك الوقت فهي مدينة الإله شهار أو سحر وربما انحرف تكوينها القديم وأصبحت مدينة لعبادة القمر لأن (شهر) يدل على القمر أيضاً وهي بذلك تقترب مـن مدينـة بيـت شـان أو بيـت سين التي هي مدينة عبادة القمر في أقدم الأزمان وهو، أيضاً، حال مدينـة أريحـا التـي هـي أقـدم مـدن فلـسطين المخصصة لعبادة القمر حيث أريحا وأريخ هو القمر وهذه هي مدينته.

ونحنُ نرى، بإصرار، أنه لابد من وجود معبد كنعاني في القدس للإلـه (شـاليم) يرجـع إلى العصر البرونزي تحديداً، ورغـم عـدم وجـود دلائـل آثاريـة عـلى ذلـك إلاّ أن هنـاك إشـارات في النصوص المصرية على لوحٍ فخاري تقـضي بوجـود معبـد كانـت تمـارس فيـه العبـادة في العـصر

المتأخر، ولكننا نؤكد وجود معبد في مدينة القدس كانت تمارس فيه عبادة الإله (شاليم)، فقد وردت عبارة (بيت شاليم) في النصوص المصرية وربما دلت على معبد شاليم.

والذي نرجحه هنا هو أن محاولة العثور على معبد أو هيكل شاليم يجب أن تسبق محاولة البحث عن هيكل سليمان، بل نذهب إلى أبعد من ذلك ونقول أن هيكل شاليم (سليم) هو نفسه هيكل سليمان وأن لا وجود لهيكل سليمان في العصور اللاحقة (العصر الحديدي) بل أن الاسم (سليم) استمر بصيغة (سليمان) في العصر الحديدي.

تذكر إحدى الرسائل التي بعث بها حاكم القدس في العصر البرونزي المتأخر عبدي حيبا إلى ملك مصر عبارة ((عاصمة أرض أورسالم التي تدعى بيت شولماني))[57].

وهذا يشير إلى شيئين: الأول أن مدينة القدس اسمها أورسالم أما مركزها فهو بيت شولماني أو هيكل شولمان الذي هو شالم (حيث لم تكن ما تسميه التوراة بـ سليمان قد ظهر بعد). والثاني هو اعتقادنا أن هيكل سليمان ما هو إلاّ هيكل الإله شالم الذي ربما ظهر في العصر البرونزي الأوسط أولاً ثم اعاد اليبوسيون في العصر البرونزي المتأخر بناءه وتوسيعه وأخذ مكانة كبيرة عندهم.

والمعروف أن الإله (سالم) كان في أماكن كثيرة من أرض كنعان (فلسطين والساحل السوري) كان مرتبطاً بزوجةٍ تدعى سولاميث Sulamith التي أدخلت أيضاً في مجمع الآلهة اليبوسي[58].

وتحيلنا هذه الإشارة إلى أن سفر (نشيد الإنشاد) في العهد القديم والذي هو محاورة غزلية طويلة بين سليمان وشولميث ذات أصل كنعاني ثابت وأن بطليه (سليمان وشولميث) ما هما إلاّ إلهين كنعانيين ويبوسيين هما شاليم وشولاميث.

فهل نجرأ على القول أن العبريين أعادوا إنتاج نشيد ديني كنعاني شهير بين أكبر إلهين في القدس وجعلوها في صيغة ملك وحبيبته! وهل يدفعنا هذا إلى وضع علامة استفهام كبيرة حول حقيقة وجود شخصية عبرية اسمها (سليمان) في بداية العصر الحديدي؟ اعتقد أن هذا ما سنتحدث به طويلاً في الفصل القادم.

3. المرجعية الدينية (إبراهيم وملكي صادق)

منذ ويلهاوزن (Welhausen)، قبل حوالي قرن من الآن، حاولت الفرضية الوثائقية لأصول الأسـفار الخمـسة الأولى من العهـد القـديم أن تقـيم توازنـاً أو تواشـجاً بـين الروايـة الدينيـة التوراتيـة وبـين المعطيـات الأركولوجيـة والتاريخية لفلسطين القديمة، ثم نشأ تيار للتوفيق بين المرويات التوراتية وتاريخ الـشرق الأدنى وسـاهم فيهـا مـاير وغونكيل وإيسفيلت.

وكانت لأعمال (ألبرت Albright) الفـصل في تأسـيس وتحديـد حقبـة تاريخيـة بطرياركيـة في سـياق تـاريخ الشرق الأدنى القديم. ورغم أن آخر نظريات ألبرايت التي حاول فيها إظهار إبراهام (إبراهيم) كراعـي قافلـة حمـير في العصر البرونزي الوسيط الأول لقيت معارضة قوية ورُفضت أواسط السبعينات[59].

ورغم كل الجهود التي بذلها الآثاريون والمؤرخون الذين حملوا معهم خلفياتهم التوراتيـة لإثبـات أحـداث الرواية الدينية للتوراة لكن جهودهم كانت تتعرض لمشكلات حقيقية تجلب لها النقد القاسي.

يضع المؤرخون التوراتيون فترة العصر البرونزي الأوسط زمناً مقترحاً لوصول إبراهيم إلى بلاد كنعـان. وتـرى التوراة (وهي كتاب ديني لا تـاريخي) قـصة رحيـل إبـراهيم مـن أور الكلـدانيين إلى حـران ثـم إلى أرض كنعـان في فلسطين ونزوله إلى بلوطة مورة (بلاطة) بالقرب من شكيم (نابلس) ومنها تنقّل وسط أرض كنعان ثم ارتحـل نحـو الجنوب إلى أن استقر في عودته من مصر إلى أرض كنعان واستقر في حبرون (أربـع) التـي عُرفـت فـيما بعـد باسـم (الخليل). أما أبن أخيه (لوط) فقد سكن شرق الأردن في سدوم وعندما تعرّض لوط للأسر والسبي مـن قِبـل (كـدر لاعومر) ملك عيلام وحلفائِه سارع إبراهيم على رأس غلمانه ومن كان معه وتبعهم فكسرهم واسـترجع لوطـاً وكـل الأملاك التي سُلبت، وعند رجوعه خرج (ملكي صادق) ملـك (شـاليم) لاسـتقباله. ويـرى بعـض البـاحثين أن (ملـكي صادق) هو ملك وكاهن القدس في فترة من فترات العصر البرونزي الأوسط، ويدل اسمه المركـب عـلى وجـود الإلـه (صادق) في شاليم، ويوصف بأنه كاهن (إيل عليون) أي (اللـه العليّ) وهو اسمٌ مركبٌ للإله إيل.

المرة الثانية التي يذكر فيها إبراهيم والقدس هي قصة التضحية بإبنه على جبل الموريا، حيث يعتقد هؤلاء الباحثون أن قصة التضحية التي تذكرها التوراة قد حصلت على (أرض المُريّا) وهي نفسها جبل الموريّـا في القـدس. وقد جاء ذكر ذلك في سفر التكوين:

"وحدث بعد هذه الأمور أن اللـه امتحن إبراهيم. فقال يا إبراهيم. فقال: ها أنذا. فقال: خُذ إبنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المُريّا وأصعِده هناك محرقةً على أحد الجبال الذي أقولُ لك. فبكّر إبراهيم صباحاً وشدّ على حماره وأخذ اثنين من غلمانه معه وإسحاق إبنه وشقّق حطباً لمحرقةٍ وقام وذهبَ إلى الموضع الذي قال له اللـه"[60].

ثم يأتي ذكر المكان بعد أن يفتدي إبنه بالكبش "فذهب إبراهيم وأخذ الكبش وأصعده محرقةً عوضاً عن ابنه. فدعا إبراهيم اسم ذلك الموضع يهوه يرى. حتى إنه يقال اليوم في جبل الرب يُرى"[61].

ويتضح من ذلك، حسب الرواية الدينية التوراتية، أن قصة التضحية حصلت على جبل المُريّا الذي صار اسمه أو اسم موضع التضحية فيه (يهوه يرأه).

ولكن توراة السامريين تذكر هذه القصة في مكان آخر وهو جبل (جرزيم) في نابلس. أما الإنجيل فيذكر أن القصة حصلت في موقع في سيناء وهو (سانتا كاترين). أما القرآن فقد قرن القصة بفريضة الحج حيث تمت في جبل التوبات ومع ابنه إسماعيل وليس إسحاق.

وهكذا نرى هذا المدى الواسع من الاختلافات في أماكن حصول قصة التضحية بابن إبراهيم.

أما ملوك وأمراء القدس في العصر البرونزي الوسيط والذي تشوب شخصياتهم روايات دينية وتاريخية غير مؤكدة فهم:

1. ملكي صادق: الذي ذكرته التوراة.
2. سالم: وهو يبوس وسّع حدود القدس، وورد اسمه في نصوص اللعنة المصرية، وقد تحدثت نصوص أوغاريت أيضاً عن مولد الإله (سالم) ملك القدس[62].
3. أدوني صادق: وقد عرفت القدس باسمه في إحدى الفترات[63].
4. سر حنّو (شايزانو): ورد هذا الاسم في نصوص اللعنة المصرية التي ترجع إلى عهد الملك سنوسرت الثالث (1879-1842)ق. م[64].
5. ياقر عمّو: أول اسم تاريخي لملك أموري[65].

العصر البرونزي المتأخر (**1550-1200**)ق. م

القدس اليبوسية

يبوس

تغير الوضعُ تماماً في العصر البرونزي المتأخر وتغيرت أحوال فلسطين والقدس من جميع النـواحي المناخيـة والسياسية والأثنولوجية، وكان هذا العصر بمثابة خاتمة عصر كامل كان في طريقه إلى الزوال.

ولعل ثمة عوامل مهمة لعبت دوراً في تشكيل هذا العصر كان أهمها ما يلي:

1. تغير المناخ: حيث أصبح مناخ فلسطين، عموماً، بعد القرن السادس عشر قبل الميلاد أكثر جفافـاً، وكـان أثـر ذلـك واضحاً على اقتصاد فلسطين وحجم الاستيطان فيها. ويمكن أن نورد مثالين عـن تحـولات الاقتـصاد والاسـتيطان نتيجةً لتغير المناخ[66]:

أ. نمط استثمار الزيتون يشير إلى أن إنتاج العصر البرونزي الثاني قد تزايد كثيراً واستمر كذلك طوال هذه الفـترة في الجزء الشمالي من فلـسطين، مـما ينـاقض بحـدة الانخفـاض الظـاهر في مـستوى الإنتـاج خـلال العـصر البرونزي الأخير.

ب. أنماط الاستيطان في موقع تلال عرون (Iron) حيث كان الاسـتيطان واسـع النطـاق خـلال العـصر البرونـزي الوسيط، تشير إلى نقص حاد في المياه خلال الصيف في هذه المنطقة (مما أدى إلى جفـاف الآبـار والينـابيع حتى في أفضل السنوات) وهو ما حال دون الاستيطان خلال العصر البرونزي المتأخر، الأكثر جفافاً.

2. الاحتلال المصري: حيث رافقت اضطراب المناخ والزراعة والاسـتيطان الـضربة العـسكرية الحاسـمة مـن مـصر التـي بدأت منذ بداية الدولة الحديثة وطرد الهكسوس تمد حدودها إلى فلسطين بأكملها لتؤسس أول كيـان إمبراطـوري لها. وكان الحيثيون قد احتلوا شمال بلاد الشام وهكذا اختار المـصريون والحيثيـون أن يتقـابلوا وجهـاً لوجـه عـلى أرض الشام. ومعروفة تماماً نتائج هذا النوع من صراعات الإمبراطوريات الكبيرة على أرضٍ ليست أرضها.

وهكذا انقرضت مدن الأطراف الفلسطينية التي كان لها وجـود واضـح في العـصر البرونـزي الأوسط، وانكمشت من السهول الوسطى وبشكل عام ظهرت "مدن العصر البرونـزي الأخـير

أصغر حجماً وأفقر مادياً، وفي الغالب غير محصنة، وربما كان ذلك نتيجة للسياسة الإمبريالية المصرية التي وجدت أن التعامل مع دول تابعةٍ غير محصنة أفضل لها عند التعامل مع ثورات معادية محتملة"[67].

3. ظهور الأقوام الرعوية، غير المستقرة، في فلسطين وارتباطها بمناطق السهوب والمرتفعات الفلسطينية، ورغم أنه من الصعب التمييز الواضح والدقيق بين أنواع هذه الأقوام إلاّ أننا نستطيع أن نصنفها إلى أربعة أنواع وهي :

أ. عابيرو Apiru: وهو لقب يستعمل لوصف مجاميع من قطّاع الطرق، ويبدو أنه يشير إلى طبقة اجتماعية أو جماعات متنازعة مع بعض حكام العصر البرونزي الأخير ولكنه لا يستعمل في أي حال للإشارة إلى أيّ مجموعة إثنية معينة في فلسطين، والأحرى، هو أن نصوص تل العمارنة تشير إلى أناسٍ دفعوا بسبب الفقر أو كارثة شخصية أخرى، إلى أطراف المجتمع، فقدوا وضعهم المعتاد وعاشوا مشردين، كمرتزقةٍ وعمالة مأجورة ولصوص، لم يكونوا فلاحين ولا رعاة، ولا هم بدو ولا هم مستقرون بل عاشوا بعيداً عن النمط المألوف والمعايير الاجتماعية[68].

ب. شاسو Shasaw: وهو اسمٌ يشير إلى مجموعات سامية غربية عاشت في منطقة جغرافية واسعة تشمل شرق الأردن وأطراف الصحراء العربية وسيناء وبعض المناطق الهامشية في فلسطين وهم بدو ورعاة مرتبطين بمناطق الأطراف الواسعة التي تشكل حدود فلسطين، وربما يكونون قد ظهروا بسبب الاضطراب الاقتصادي في العصر البرونزي الوسيط، وهم بالتالي سكانٌ مقتلعون أصبحوا يجوبون البلاد رعياً.

ج. شوتو Sutu: ربما كان لهؤلاء ارتباط إثني كبير بالشاسو ولكن هوية الشوتو الإثينية تتضح أكثر عند عودتنا إلى أقوام الشوتو العليا والسفلى في الأردن التي استوطنت شمال ووسط الأردن في العصر البرونزي الأوسط، والتي كانت عماد منظومة الهكسوس الرعوية، كما قلنا، وربما يكونون في البرونزي المتأخر بقايا هؤلاء الأقوام الذين اضطرتهم الظروف المناخية أو العسكرية الجديدة إلى التشرد والنكوص نحو البداوة.

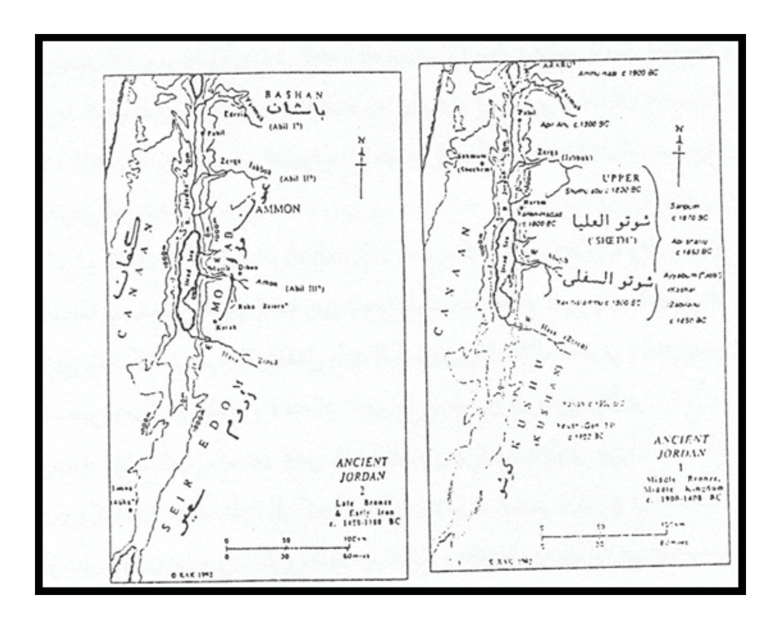
د. كوشو Kushu أو كوشان Kushan: وهم سكان جنوب الأردن وفلسطين في المنطقة الممتدة من خليج العقبة حتى البحر الميت منذ العصر البرونزي الأوسط والذين ربما

يكونون قد تدفقوا بفعل طرد الهكسوس والاحتلال المصري باتجاه العمق الفلسطيني ومتأثرين بالمناخ والاقتصاد المتغير الذي طرأ في البرونزي المتأخر.

ولابد لنا من إبداء ملاحظتين أساسيتين تخصّ هذه الأقوام وحركتها، الأولى هي أن هذه الأقوام تبدو لنا وكأنها كانت مستقرة إلى كبير في الأردن (شرق نهر الأردن) في العصر البرونزي الأوسط الأول والثاني والثالث ولكنها منذ الرابع ومطلع البرونزي المتأخر اضطربت وتحطمت كياناتها السياسية والاجتماعية فاضطرت إلى الهجرة والتشظي باتجاه فلسطين، بدليل أن شرق الأردن في العصر البرونزي المتأخر شهد ظهور ممالك جديدة هي باشان وعمون في الشمال وحشبون ومؤاب في الوسط وسعير وآدوم في الجنوب ثم اختفت ممالك (باشان وحشبون وسعير) مع نهاية العصر البرونزي المتأخر وبرزت (عمّون ومؤاب وآدوم) في مطلع العصر الحديدي. أنظر الخرائط (5، 6، 7).

أما الملاحظة الثانية فهي أن هذه الأقوام ظهرت بعد التحلل والتفسخ السياسي والأِثني للهكسوس إبان طردهم من مصر، أي أنهم الأقوام الناتجة من هذا التحلل بدليل أن أغلبهم من الأموريين الذين كانوا أساس الهكسوس عند دخولهم إلى مصر.

وتلتقي الملاحظة الأولى مع الثانية إذا اعتبرنا تاريخ الهكسوس دائرة تتلاقى بداية انطلاقها مع نهاية إقفالها، فقد كانوا من أصل أموري شامي وعادوا إلى أصلهم بعد طردهم من مصر، ولكنهم كانوا ذوي كيانات سياسية واضحة في حين انتهوا إلى قبائل بدوية رعوية تجوب جنوب بلاد الشام.





خارطة (5) الأردن في العصر البرونزي المتوسط

خارطة (6) في العصر البرونزي المتأخر

خارطة(7) في العصر البرونزي الحديدي

4. النـــزوح التــدريجي الــذي بــدأه الحوريــون نحــو بــلاد الــشام عامــة وفلــسطين خاصــة منــذ انــضمام

بعضهم إلى الهكسوس، ولكنهم ازدادوا ترسخاً في فلسطين منذ بداية القرن الخامس عشر، ومعروف أن الحوريين يشكلون جنساً إثيناً مختلفاً عن السيادة السامية على بلاد فلسطين فهم ينتمون إلى الأقوام الآرية "ورغم أنهم لم يدخلوا البلد فاتحين أو غزاة، فقد كان لهم نفوذهم القوي وتأثيرهم السائد، حتى أن المصريين بدءوا يطلقون اسم (حورو) أو (الأرض الحورية) على أرض كنعان، وكثيراً ما كان الحوريون يصلون إلى مناصب السلطة في (المدينة الدولة) ويقيمون جنباً إلى جنب مع الأهالي، ويعلمونهم لغتهم الأكادية التي أصبحت اللغة الرسمية للدبلوماسية، والكتابة الصنوبرية كذلك" [69].

ويبدو أن التسلل الحوري كان متواصلاً وأن صعودهم للمناصب العليا كان متأتياً من ثقافتهم ومعرفتهم الكتابة، خصوصاً أن اللغة التي يستخدمونها لم تكن الحورية بل الأكدية التي كانت قريبةً جداً من الكنعانية أو الأمورية لأنها من عائلة اللغات السامية. وتوضّح ذلك ألواح تل العمارنة التي هي عبارة عن رسائل من أمراء فلسطين إلى ملوك مصر مكتوبة باللغة الأكدية وبالكتابة الصنوبرية (المسمارية).

وهكذا أعيد تشكيل البناء الإثني لفلسطين في العصر البرونزي المتأخر، فالكنعانيون يمثلون الأكثرية الساحقة للمدن والقرى الأكثر استقراراً منذ العصر البرونزي الأوسط، ثم الحوريون الذين بدأوا يحتلون، في المدن، المناصب العليا بسبب ثقافتهم ومعرفتهم للقراءة والكتابة، ثم البدو والرعاة المشردون المكونون من الشاسو والشوتو والكوشو والعابيرو في الصحراء والأراضي الزراعية الجافة والسهوب.

كل هذه المقدمة لنتوغل في المرجعيات الأربعة الجديدة للعصر البرونزي المتأخر وهي المرجعيات (الآثارية، التاريخية، المثولوجية، الدينية).

1. المرجعية الآثارية

(أركيولوجيا القدس في البرونزي المتأخر)

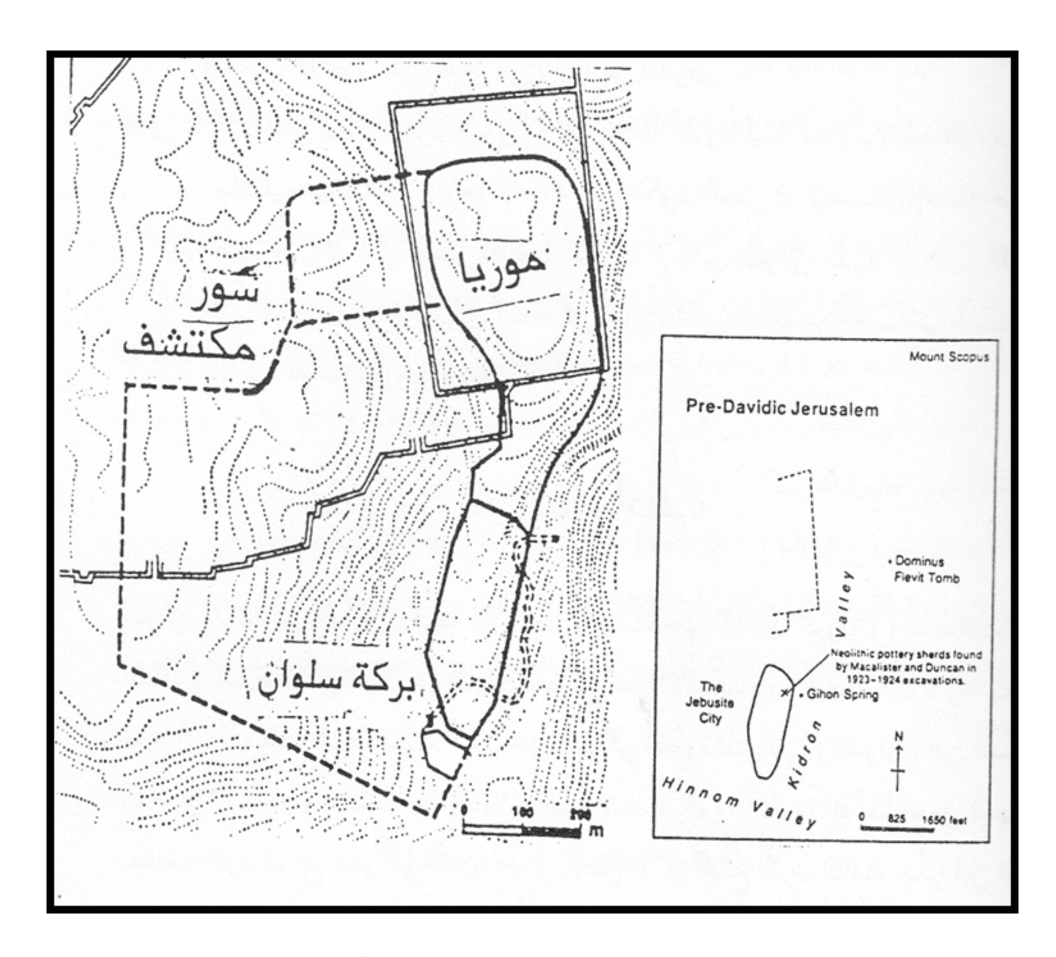
1. السور

أعاد الكنعانيون اليبوسيون، وربما كان معهم الحوريون النازحون لفلسطين، بناء مدينة القدس بعد أن هُجرت في نهاية العصر البرونزي الأوسط فقد " يكون اليبوسيون أعادوا بناء

الموقع في أوائل القرن الرابع عشر وشغلوه طوال 400 سنة، وارتأت كنيون أن سور المدينة اليبوسي كان هو نفسه سورها في العصر البرونزي المتأخر أو أن السور اليبوسي كان إعادة لبناء هذا السور، وحيث توقعت كنيون أن تجد القسم الشمالي من هذا السور كشفت سلسلة من المصاطب التي أضافت في رأيها إلى حيز البناء داخل المدينة وجعلت المنحدر الحاد قابلاً للسكن، ومن المحتمل أن هذا البناء كان جزءاً من القلعة على قمة الجبل ومن دفاعاتها"[70].

ويبدو أن الميزة الرئيسية للقدس اليبوسية هو توسعها باتجاه الغرب وإقامة حصن جديد على جبل صهيون، في حين انسحب السور الشرقي قليلاً عن سور العصر البرونزي الأوسط " ومن المحتمل إذاً أن يكون اليبوسيون هم الذين أصلحوا التحصينات القديمة على تل الأكمة، وقاموا ببناء الحي الجديد على المنحدر الشرقي بين السور وقمة التل"[71].

وصفت كنيون هذا السور بأنه جدار محشو بقطع من الحجارة، واكتشفت منه بقايا افترضت أنها تسوّر كل المدينة وتقع داخل سور العصر البرونزي الأوسط.



خارطة (8) القدس (يبوس) في العصر البرونزي المتأخر.

المراجع: Mare 1978: 50. غوشة 1996: 58-59.

2. الحصون والقلاع

هناك حصنان يبوسيان:

الأول: شرقي عبارة عن معقل ينتصب على جبل أوفل في منحدره الشرقي، وعندما امتد عبر حرف الجبل إلى الغرب تطور إلى قلعة حقيقية وقد قام اليبوسيون ببناء هذا الحصن الذي لا يقهر دفاعاً عن المدينة من الشرق.

الثاني: كان على جبل صهيون ويبدو أنه الذي أسمته التوراة فيما بعد بـ (قلعة داود). وقد بناه اليبوسيون أولاً. وبوجود هذا الحصن تكون القدس قد توسعت باتجاه جبل صهيون "وقد

ذكر البعض أن لفظ صهيون لم يكن يشير إلى مدينة أورشليم كلها بل كان يشير في الأصل إلى القلعة التي كانت تحمي المدينة من الجانب الشمالي الأكثر تعرضاً للغزو والاقتحام"[72].

3. المصاطب

ظهرت سلسلة من المصاطب المليئة بالأحجار كشفت عنها كاثلين كنيون، وقد مكنت هذه المصاطب السكان من العيش في تلك المنطقة التي تتميز بالمرتفعات والمنخفضات، وقالت إنها تعتقد أن هذه المصاطب المستوية حلت محل المساكن القديمة المتفرقة، والشوارع التي تتسم بالإنحدار الشديد. وقالت الباحثة إن بناء المصاطب استغرق وقتاً طويلاً إذ بدأ العمل فيها في منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ولم يكتمل إلاّ في مطلع القرن الثالث عشر قبل الميلاد وكانت بعض جدران المصاطب يصل ارتفاعها إلى 33 قدماً، وهي بالإضافة إلى كونها مساكن كانت تقوم كتحصينات للمدينة وترى كنيون أن هذه المباني قد تكون هي (القلعة) التي ذكرتها التوراة[73].

وعُثر في المنطقة المسماة (G) في مساحة تبلغ حوالي 650 قدماً مربعاً في القسم الشمالي من المدينة قرب قمة الجبل على دكة أو مصطبة مكشوفة مع دفاعات مناسبة عُملت في العصر البرونزي المتأخر كقلعة أو مدافن.

4. الآثار المادية المنقولة

عُثر على كسر فخارية من القرن الرابع عشر والثالث عشر في المدينة في مواقع داخل جدار السور، ووجدت آثار كثيرة في المقبرة العالية التي تحدثنا عنها في العصر البرونزي الأوسط والمتأخر.

وقد وجدت كنيون ما يشير إلى الاستقرار في العصر البرونزي المتأخر عند المقابر حيث ظهرت فخاريات كثيرة محلية ومستوردة تعود للقرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد، وهذه المقابر ليست بعيدة عن مدينة العصر الحديدي الأول (التي تسمى مدينة داود) قرب المقبرة العالية على المنحدر الغربي لجبل الزيتون وقرب المبنى الحكومي في شمال المدينة وفي نحلات أحيم المجاورة للغرب[74].



جرة فخارية من القدس في العصر البرونزي المتأخر 1550ق. م

http://www. trocadero. com/stores/TheAweidahGallery/items/1049637/item1049637. html

وكذلك عثر شيلوح في 1968 في منطقة (G) (عند قمة منطقة A التابعة لحفريات كنيون) على آثار تعود للقرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد من الطبقة (16)، وفيها شبكة بناء واسعة وجدران معادة البناء لتكوين ما يشبه المضلع من الأحجار تشغل مساحة واسعة ومسطحة[75].

2. المرجعية التاريخية

(فلسطين ومصر الأمبراطورية)

ينقسم تاريخ العصر البرونزي المتأخر لفلسطين إلى مرحلتين زمنيتين وذلك على ضوء الاحتلال المصري لفلسطين وبدء العصر الإمبراطوري لمصر، وهاتان المرحلتان هما:

1. مرحلة الأسرة المصرية الثامنة عشر (1570-1304) ق. م حيث بدأت بعد منتصف القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد أي أنها استمرت زهاء القرنين ونصف. وهي المرحلة التي سادها حكم مصري مباشر للقدس وكان للحوريين أثر كبير فيها.

2. مرحلة الأسرة المصرية التاسعة عشرة (1304-1195) ق. م حيث بدأت مع بداية القرن الثالث عشر إلى بداية القرن الثاني عشر تقريباً أي أنها استمرت زهاء قرن كامل. وهي المرحلة التي استمر فيها الحكم الإمبراطوري المصري وكان لليبوسيين والحيثيين الأثر الأكبر فيها وتنتهي هذه المرحلة مع ظهور أقوام البحر في الشرق الأدنى في حدود 1190 ق. م حيث يبدأ عصر جديد.

القدس والأسرة المصرية الثامنة عشرة

لا يمكننا قراءة تاريخ فلسطين عموماً، وتاريخ القدس خصوصاً، في هذا الجزء من العصر البرونزي المتأخر إلاّ من خلال تاريخ الدولة المصرية الحديثة التي أصبحت إمبراطورية بضمها فلسطين وبعض أطراف الشام إليها.

لقد أدركت مصر أن أمان حدودها الشرقية لا يمكن في شرق الدلتا أو سيناء بل في فلسطين وإذا كان أحمس، الذي قضى على الهكسوس في مدينة شاروحِن وشردهم في فلسطين والأردن، قد عاد سريعاً إلى مصر لينظِّم أمورها الداخلية ويُدخلها في عصر جديد، ولكن إبنه أمنحتب الأول (1546-1526) ق. م مدّ نفوذه السياسي المباشر إلى جنوب فلسطين وبعض بلاد الساحل الفينيقي.

أما شمال فلسطين وسوريا فقد كان مستقلاً أحياناً وواقعاً تحت نفوذ الحوريين أو البابليين أحياناً أخرى.

واستمرت السيطرة المصرية في عهد تحوتمس الأول (1525-1495) ق. م الذي جهز جيشاً كبيراً باتجاه آسيا وسار نحو فلسطين في السنة الثانية من حكمه حتى وصل إلى نهر الفرات الذي أسماه معاصروه (ذو المياه المعكوسة) إشارة إلى أنه يجري من الشمال إلى الجنوب بعكس نهر النيل[76].

وعندما ظهر الملك تحوتمس الثاني (1495-1490) ق. م وظهرت معه زوجته حتشبسوت انفصل النصف الشمالي من بلاد الشام عن السلطة المصرية وتعاظم نفوذ المملكة الحورية الميتانية في شمال شرق بلاد الشام.

وأهملت حتشبسوت شأن فلسطين مثلما أهملت شؤون بلاد الشام كلها، وكان من نتائج هذه السياسة أن قام أمراء فلسطين وسوريا بقيادة أمير قادش بالتمرد على الحكم المصري.

وما أن تولى تحوتمس الثالث (1490-1436) الحكم حتى جهّز حملة لسحق هذا التمرد واستطاع بعد معركة مجدو فعل ذلك واستولى على كل فلسطين، وكانت حملته على مجدو فاتحة لحملات أخرى بلغ عددها ستة عشر حملة رسخ فيها النفوذ المصري في الشام وشعر الحوريون ثم الحيثيون بالحاجة إلى صداقة مصر لا معاداتها وتراخى نفوذها في بلاد الشام.

ووجد تحوتمس الثالث بعد هذه الحروب أن الحاجة باتت ضرورية لإنشاء حصن دعاه (حصن طيبة) لتربية أمراء فلسطين والشام منذ طفولتهم على الولاء لمصر وطريقة الحكم المصرية حتى يكونوا حكّام المستقبل، وربما كان (عبدي حيبا) حاكم القدس في عهد أخناتون أحد هؤلاء.

وظلّ الحال على ما هو عليه في فلسطين أثناء حكم أمنحتب الثاني (1436-1411) ق. م ثم تحوتمس الرابع (1411-1397) ق. م الذي هادن الميتانيين وتزوج منهم وهدأ الصراع المصري الميتاني على بلاد الشام، ثم انفردت المملكة الحورية الميتانية بالنصف الشمالي من بلاد الشام (ريتينو الشمالية) وأحكمت مصر سيطرتها على النصف الجنوبي من بلاد الشام (ريتينو الجنوبية).

وما أن ظهرت الدولة الحيثية حتى دخلت في صراع حاسم مع الدولة الحورية الميتانية وزالت الدولة الحورية الميتانية، الصديقة لمصر، من الوجود. وبذلك يكون الصراع المصري الحيثي قد حلّ محل الصراع الحوري الحيثي، وكانت بلاد الشام، أيضاً، ساحته الكبرى.

عندما تولى أمنحتب الرابع (إخناتون) (1370-1349) ق. م الحكم في مصر كان يحكم فلسطين ولاة محليون تربوا في (حصن طيبة) على الولاء المطلق لمصر. ولعلّ أبرز ما يمكن أن نتحدث عنه في هذا المكان هو ما عرف بـ (ألواح أو رسائل تل العمارنة).

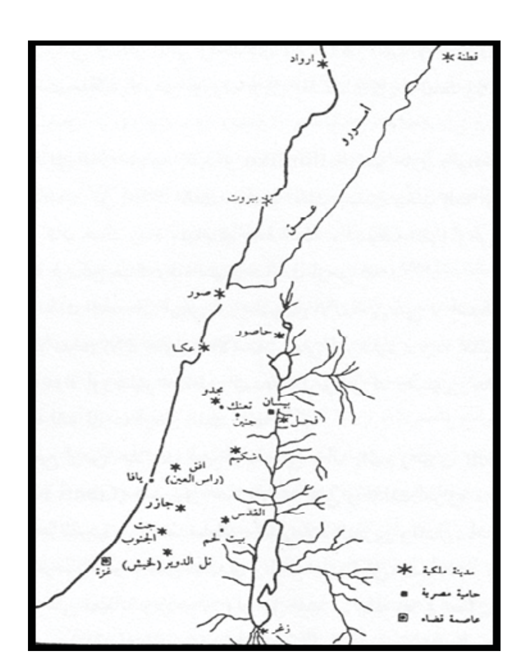
ألواح تل العمارنة

في عام 1887م اكتشف الآثاريون في تل العمارنة بمصر (أخيتاتون) مجموعة من الألواح التي كانت جزءًا من أرشيف أمنحتب الثالث وإبنه أمنحتب الرابع (اخناتون) وتضم هذه الألواح ما يقرب من 337 رسالةً[77]. وكانت هذه الرسائل مكتوبة من أمراء كنعان إلى الملك المصري باللغة الأكدية والكتابة المسمارية (الصنوبرية)، وكانت هذه الرسائل قد أُرسلت بالدرجة الأساس لإخناتون وقليل منها أُرسل إلى أبيه وبعضها أُرسل إلى خليفته (سمنخ كارع)

الذي هو (توت عنخ آمـون). وتلقـي هـذه الألـواح الـضوء عـلى الأوضـاع الـسياسية الـسائدة في فلـسطين في زمـن إخناتون، وتوضّح ضعف هذا الملـك في الـسياسة الخارجيـة لمـصر بـسبب مـن انـشغاله في إرسـاء عقيدتـه الدينيـة التوحيدية وعبادته للإله أتون بدلاً من آمون.

ترد في هذه الألـواح إشـارة إلى وجـود اتفاقيـات سياسـية وعـسكرية وتجاريـة جمعـت بـين بعـض المـدن الفلسطينية منها: شكيم (نابلس) ولخيش وكيله (القـدس). كـما تـذكر هـذه الرسـائل القـدس بأسـماء أخـرى مثـل (إيفن) أو (راشاليم) و(يورساليم)[78].

كان عدد الرسائل التي أرسلها حاكم القدس (عبدي حيبا) إلى اخنـاتون سـت رسـائل تحمـل الأرقـام (289، 290، 291، 292، 293، 294) وكانـت القـدس في عهـده تـسمى أورسـالم وتـسمى أيـضاً (أرض حيبـا) أو (أرض هِبـه) و(مملكة كيله) التي سيطرت على التلال الشمالية للقـدس مثـل تـل الفـول وتـل النـصبه وشـعفاط وبيـت حنانيـا والجيب[79].



خارطة (9) المدن الكنعانية التي ورد ذكرها في رسائل تل العمارنة.

المرجع: معاوية، إبراهيم: الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني، 1990، ص102.

وكان (عبدي حيبا) يعبر عن ولائه لسيده أخناتون بعبارات رنّانة ومستجدية مثل هذه المقتطفات من رسائله:

1. إن هذه الأرض، أرض أوروسالم، لم يعطني إياها أبي ولا أمي، ولكن أيدي الملك القوية هي التي ثبتتني في دار آبائي وأجدادي، ولم أكن أميراً بل جندياً للملك وراعياً تابعاً للملك.. منحت ملكية الأرض أوروسالم إلى الملك إلى الأبد ولا يمكن أن يتركها للأعداء[80].

2. لقد ثارت كل البلاد، فهذا الميلكو Ilimilku حاكم جازر (الواقعة غربي القدس) قد كان سبباً في فقدان كل أملاك الملك.. ليت الملك سيدي يبعث إلينا بوحدات من رماة السهام، وإذا كان هناك رماة سهام في هذه السنة، لسوف تبقى أرض الملك دون أن يمسها سوء ولكن إذا لم يكن هناك رماة سهام ضاعت أرض الملك[81].

3. لقد وضع الملك اسمه على أرض أورشليم إلى الآن حتى أنني لا أستطيع ترك أورشليم[82].

4. إنهم (أي الأعداء) الآن يحاولون الاستيلاء على أورشليم، وإذا كانت هذه الأرضُ ملكاً للملك.. هل تترك أورشليم تسقط، ليت الملك يرسل لنا خمسين رجلاً كحاميةٍ ليقوموا بحراسة البلاد، لقد ثارت أرض الملك كلّها[83].

5. ستضيع جميع أرض جلالتك التي ثارت عليّ، أما إقليم (شيري Seir) الواصل إلى (جنتي كرمل Genti Kirmil) فقد شقَ عصا الطاعة عليّ وكذلك أمراؤه، لقد كانت سفن جلالتك الساعد القوي في بسط سلطتك على بلاد النهرين وقادش. أما الآن فقد احتل بدو الخابيري بلاد فرعون، ولم يبقى لسيدي والٍ مطيع فالكل عصاه..

ليحترس الملك على قطعائه وبلاده.. وليرسل المدد.. لأنه إذا لم تصل جنود هذه السنة ذهبت ممتلكات جلالة فرعون سيدي وإذا تعسّر إرسال جنود هذه السنة فليرسل جلالة فرعون ضابطاً يلازمني للحضور أنا وأخوتي كي نموت مع سيدنا الملك[84].

ومن خلال قراءتنا لهذه الرسائل يتضح لنا أن القدس كانت عاصمة إقليمية في بلاد فلسطين تضمّ إليها جازر وشيري وما يحيط بها من المدن وأن سبب اضطراب الأوضاع في فلسطين متأتٍ من ثلاثة أمور:

1. انفراط إقليم القدس واستقلال مدنه.

2. توسع إقليم نابلس (شكيم) في عهد حاكمه (لبعايو) وضغطه على القدس.

3. ظهور طبقة (الخابيرو) أو (ساجاز = قاطعو الرقاب) وهم (العابيرو) "وهو إصطلاح شامل أُطلق على المنبوذين أو العصابات التي لا تنتسب إلى أية مجموعة جنسية محددة وهم يظهرون في النصوص المصرية كأسرى أسيويين يستخدمون في المحاجر"[85]. ولا نعتقد أن لهؤلاء علاقةٍ بالعبريين كما يذهب إلى ذلك باحثون كثيرون.

ويبدو أن إخناتون استجاب لنداء (عبدي حيبا) فأرسل حملةً بقيادة (بيخورو) لإعادة النظام في فلسطين لكن الحملة وصلت إلى شمالي الجليل واضطرت إلى الانسحاب، ثم تقدمت نحو القدس وانسحبت إلى غزة بسبب المقاومة العنيفة التي لاقتها، كما أن (عبدي حيبا) فشل في حربه مع شكيم، وظهرت ثورات متتالية في القدس نفسها لكنه لم يرسل، مرة أخرى، رسالة لكي تنجده القوات المصرية، وربما كان السبب ما يؤكده هو من أن هذه القوات اقتحمت قصره في إحدى نجداتها له وحاولت قتله. ولذلك أرسل إلى الفرعون ليطلب منه إنجاد جازر أو لخيش أو عسقلون وحذره من أن سقوط القدس وشيك إذا لم تأتِ هذه القوات "ويكاد يكون من المؤكد أن القوات التي طلبها عبدي حيبا لم ترسل إليه مطلقاً، بل أن منطقة التلال كانت تتحول بسرعة في تلك الآونة إلى منطقة منزوعة السلاح، إذا هجر السكان مدينة شيلو، مثلاً، وهي المدينة الحصينة كما اختفت نسبة تقارب 80 في المائة من المستوطنات القائمة على المرتفعات في أوائل القرن الثالث عشر قبل الميلاد"[86].

وهكذا تردى الحال في جنوب فلسطين وانهار الولاة الموالين لمصر في المدن الفلسطينية فقُتلوا أو أُعدموا أو انضموا إلى الأعداء، وخرجت فلسطين قُبيل وفاة إخناتون عن طاعة مصر تماماً إليها واستقلت ممالك سورية وفلسطينية وفينيقية بنفسها وأصبحت إمبراطورية مصر على حافة الإنهيار.

ولم يتغير الأمر مع سمنخ كارع ثم توت عنخ آمون (1348-1337) ق. م ولا مع خليفته (آي) ولا مع (حور محب) الذي عالج اضطرابات سوريا بمعاهدة مع الملك الحيثي مورسيل الثالث، لكنه ترك فلسطين مسرحاً للاضطرابات الأهلية.

القدس والأسرة المصرية التاسعة عشرة

نرجّح ظهور اليبوسيين في القدس عند نهاية فترة حكم الأسرة الثامنة عشر وبداية حكم

الأسرة التاسعة عشرة، ورغم أننا لا نتفق مع الرأي الذي يربط اليبوسيين مع الحيثيين بصلةٍ إثنية (عرقية) لكننا نرجّح ظهورهم المرافق للحيثيين.

لقد ذكر البعض أن اليبوسيين لم يكونوا سوى أسرة أرستقراطية تعيش في قلعة القدس وفي عزلة عن سكان البلدة نفسها[87].

ومن المحتمل أنهم يشكلون أشراف أو زعماء الكنعانيين في القدس والذين ظهرت قيادتهم للحكم في القدس بعد انهيار حكم (عبدي حيبا) وانفراط ولاء القدس لمصر.

وترى كارين أرمسترونج أن من المحتمل أن يكون اليبوسيون هم الذين أصلحوا التحصينات القديمة على تل الأكمة (أوفل)، وقاموا ببناء الحيّ الجديد على المنحدر الشرقي بين السور وقمة التل. وقد أدت الحفريات التي قامت بها كاثلين كنيون إلى الكشف عن سلسلة من المصاطب المليئة بالأحجار والتي مكنت السكان من العيش في تلك المنطقة التي تتميز بالمرتفعات والمنخفضات وقالت إنها تعتقد أن هذه المصاطب المستوية حلت محل المساكن القديمة المتفرقة والشوارع التي تتسم بالانحدار الشديد[88].

وترى كنيون أن بناء المصاطب استغرق وقتاً طويلاً إذ بدأ العمل بها في منتصف القرن الرابع عشر قبل الميلاد واكتمل في مطلع القرن الثالث عشر، ولعلّ سبب هذه الفترة الطويلة ظهور الكوارث الطبيعية كالزلازل أو تآكل التربة والحجم الكبير لجدران المصاطب التي وصل ارتفاع بعضها 33 قدماً.

اليبوسيون إذاً من شغل تاريخ القدس في النصف الثاني من العصر البرونزي المتأخر، فهم لم يظهروا في العصر البرونزي الأوسط كما تذهب معظم آراء الباحثين في هذا الشأن، ولذلك يتوجب علينا تصحيح هذه القضية والقول بأن الكنعانيين بعامة هم من شغل القدس في العصر البرونزي الأوسط أما أشرافهم من اليبوسيين فهم الذين حكموا القدس في العصر البرونزي المتأخر وفي قرنه الأخير تحديداً (القرن الثالث عشر) وما بعده. فهم الذين بنوا القدس الثالثة (يبوس) ووسعوها باتجاه جبل صهيون. ومع صعود الأسرة التاسعة عشرة في مصر وبدء الضابط (رمسيس الأول) بقيادة دفة البلاد بعد وفاة زميله (حور محب) اتجهت الأنظار لإعادة السيادة المصرية إلى فلسطين لكن ذلك لم يتحقق إلاّ عند تولي ابنه (سيتي الأول) (1303-1290) ق. م عرش مصر الذي قاد حملة هزم فيها بدو سيناء وأقام مذبحة كبيرة بين البدو الرحل الثائرين من الشاسو ثم استولى على الحصون التي كانت تمتد من القنطرة حتى رفح، وكان سكان بيسان

بمؤازرةٍ من الحيثيين وتحالف من الكنعانيين وقد تمردوا عليه "ولم يجد سيتي صعوبة في دحر هـذا التحـالف عـلى الرغم من الإزعاج الذي سببه العابيرو لمؤخرة جيشه. وفي (ينوعام) تقبل مراسم طاعة حكام لبنان، ما عـدا عمـورو التي استظلت بحماية الحيثيين. ثم قام بحملةٍ أخرى، غـير حاسـمةٍ، ضـد قـادش وعمـورو التـي اسـتظلت بحمايـة الحيثيين.

وترك سيتي مسلتين إحداهما مكسورة، في قلعة بيسان تمجـدان انتـصاره عـلى تحـالف ملـوك كنعـان، وفي المسلة المكسورة التي يصعب تحديد زمانها بالدقة، يرد ذكر العابيرو بين القوى التي هزمها الفرعون العظيم"[89].

واستمر سيتي الأول في إعادة سيطرة مصر على فلسطين وفينيقيا وجنوب سوريا، ثم عقـد معاهـدة صـلح مع الحيثيين.

وحين خرق الحيثيون هذه المعاهدة دارت معركة قادش الطاحنـة بـين رمـسيس الثـاني (1290-1223)ق. م، ومن تجمع من الإمارات المنفصلة مع الحيثيين، وكان أن اكتسح رمـسيس أولاً بـلاد فلـسطين ليـصل إلى قـادش. ولم يمضِ عامان على معركة قادش حتى كانت فلسطين نفسها قد ثارت بأسرها وامتدت الثورة حتى وصـلت إلى حـدود مصر فسارع رمسيس الثاني إلى إخمادها. ثم عقد معاهدة صلح مع الحيثيين لمواجهـة أعـداءٍ مـشتركين لهـما وهـم شعوب البحر التي بدأت بالتحرك نحو آسيا الصغرى وسواحل المتوسط الشامية والمصرية. وأصبحت الأرض التابعـة لمصر تُعرف باسم (أرض كنعان) والتي كان أهم مراكزها هما موقعي تل القدح (تل وقاص) وحاصور.

وهذا يعني أن مصطلح كنعان ظهر في الوثائق المصرية تحديـداً في سـنة 1280 ق. م. أي قبـل أن يظهـر في التوراة بزمن طويل.

ومصطلحُ (كنعان) أمرٌ خلافي جرى إطلاقه لاعتبارات كثيرة فهو أولاً يميـز بـين فلاحـي الـسهول المـستقرين (كناخي) والبدو الرحل حولهم (شاسو وعابيرو وشوتو)، ثم أنه أطلق على تجار الأرجوان (كنع) الـذين هـم التجـار وليس الفلاحين أو البدو فتاجر الكنعان هو الذي يتاجر بصبغة الكنعان الأرجوانية بحراً إلى مصر والعالم، ثم أطلـق الاسم بسبب البحر على المدن الشامية الساحلية وكان قد أُطلق على المدن والقرى السهلية، وهكذا تحول المصطلح الجغرافي التجاري إلى مصطلح إثني ليدَّل على قومٍ بعينهم.

لكن مصطلح (كنعان) كان محدداً ولم يكن شائعاً أو رسمياً ولذلك يبرز السؤال المهم: ماذا كان يطلق على هؤلاء الأقوام قبل أن ترد بعض الإشارات عن اسم (كنعان) هذا؟

كنا قد تعرفنا على الأسماء المختلفة لفلسطين بلغة المصريين، ولكننا نعتقد أن اسم الكنعانيين كان قبل ذلك هو (شام) لاعتبارات كثيرة وفرضيات مختلفة ناقشناها مطولاً في كتابنا (المعتقدات الكنعانية)[90].

ثم اندثر هذا الاسم بعد استقرارهم في أرض الشام (التي أخذت الاسم منهم) وتوزعوا في المدن وأخذوا أسماءَهم من أسماء هذه المدن (أوغاريت، جبيل، صور، صيدا، يبوس، ... إلخ).

بل أن أصقاع بلاد الشام كانت تعرف بأسماء مختلفة فمثلاً عندما جاء الملك مرنبتاح إلى العرش المصري (1222-1211) ق. م توجه بعد ثلاث سنوات من حكمه لإخماد ثورات في فلسطين سجلها لنا على لوحةٍ أصبحت تعرف عند الآثاريين (لوحة إسرائيل) حيث يرد اسم فلسطين بصيغة (حورو) وهو الاسم الذي كان يطلق عليها سابقاً، ويرد لأول مرة في التاريخ اسم (إسرائيل) وهي المرة الوحيدة التي يُذكر فيها هذا الاسم على الآثار المصرية. أما ترجمة لوحة مرنبتاح هذه فهو كما يلي:

"الأمراء منبطحون يصرخون الرحمة وليس بين الأقواس التسعة من يرفع رأسه، لقد دمرتُ أرض تحنو، خاتي هادئة، كنعان قد استلبت في قسوة، عسقلون تم الاستيلاء عليها، وجازر قد أُخذت، ينوعام أصبحت كأن لم تكن، إسرائيل أقفرت وليس بها بذرة.. حور عُدت أرملة لـ توميري"[91].

وهناك ترجمة أخرى للمقطع الأخير كما يلي:

"ينعم أصبحت كأن لم تكن، وإسرائيل أُبيدت ولن يكون لها بذرة وأصبحت حورو أرملةً لمصر"[92].

وقد أثارت كلمة (إسرائيل) في هذه اللوحة مخيلة بعض العلماء مثل ألستروم وإيلدمان اللذين رأوا فيها تعبيراً جغرافياً استعمل بتوازٍ متقاطع مع كنعان ليدل على جزءٍ كبير من فلسطين أو سكانها، ويعتقدان أنها تقوم في إفرايم وأنها نواة إسرائيل التي ظهرت في العصر الحديدي الثاني. أما ستاغر فقد قام بربط هذه اللوحة بتاريخ لاحق عليها وغير ممكن لـ(أغنية دبوره) في سفر القضاة.. وهكذا.

لكن طومسون يرى أن مجموعة (إسرائيل) التي هزمها مرنبتاح ليست (إسرائيل) ستاغر المذكورة في القضاة (5)، ولا إسرائيل ألستروم وإيلدمان في مرتفعات إفرايم، إنهم بالأحرى، مجموعة محدودة تماماً ضمن سكان فلسطين تحمل الاسم الذي يرد هنا، لأول مرة، وفي مرحلة لاحقة متأخرة من تاريخ فلسطين أصبح يحملُ معنىً مختلفاً إلى حد كبير[93].

توصف (لوحة مرنبتاح) بأنها لوحة كبيرة من الجرانيت موجودة في المعبد الجنائزي لرمسيس الثاني في الضفة الغربية من طيبة وتتضمن ما يشبه النشيد الفخري لانتصارات الفرعون على أعدائه من الليبيين والفلسطينيين ولا تذكر كلمة إسرائيل آثارياً، في جميع منطقة الشرق الأدنى، مرة أخرى إلاّ بعد ذلك بزمن طويل في مسلة الملك ميشع ملك مؤاب حوالي عام (842 ق. م) حيث حارب ميشع إسرائيل. ولم تُذكر إسرائيل خلال القرون الأربعة بين مرنبتاح وميشع رغم كل الضجة الكبيرة التي تثيرها أسفار العهد القديم حول مملكة داود وسليمان.. إلخ. فكيف نفسر ذلك؟

ونقول ببساطة شديدة أن إسرائيل الواردة في لوح مرنبتاح لا تتعدى أن تكون مدينة كنعانية فلسطينية صغيرة سكنها وأسسها الكنعانيون ولم تحفل بأية أهمية تاريخية بعد ذلك. ولا علاقة لها إلاّ بالاسم مع ما خلقه التوارتيون من (إسرائيل) المملكة الشمالية الوهمية، ونرى أن إسرائيل هذه لها علاقة بإقليم ومدينة (شيري أو سير Seir) التي ذكرها عبدي حيبا في رسائله إلى فرعون مصر وسنناقش ذلك مفصلاً في الفصل القادم.

يبدو أن الهدوء ساد العلاقات وحرية التنقل من فلسطين إلى مصر وأصبحت قائمة بدليل ما ورد في يوميات ضابط مصري يصف حركة قبائل الشاسو في مصر:

"انتهينا من السماح لقبائل الـ (شوسو) الأدومية بتخطي قلعة مرنبتاح التي في زيكو حتى بحيرات بي توم مرنبتاح التي في زيكو ليظلوا هم وقطعانهم أحياءاً بفضل إحسان فرعون الشمس المشرقة على كل أرض"[94].

بل إننا نرى أن نهاية الأسرة التاسعة عشر (التي ينتهي معها العصر البرونزي المتأخر) تُختتم بتولي شخص سوري (شامي) إسمه (إرسو) عرش مصر بعد أن دبت الفوضى وأعلن كثيرون من كبار حكام الأقاليم استقلالهم عندما اختفى الفرعون الشرعي لمصر (رعمسيس سي بتاح) فدبت الفوضى في مصر حتى تولى (ست نخت) والد رعمسيس الثالث الحكم وأسس الأسرة العشرين.

إن ما نود التأكيد عليه، بعد هذا العرض السريع لعلاقة مصر بفلسطين، هو ظهور التوتر الشديد بينهما وعمليات الغزو الكاسحة التي كان يقوم بها الجيش المصري لشمال وجنوب بلاد الشام وكيف أنه كان يسيطر على المدن الفلسطينية. لكن اللافت للانتباه أن القدس ظلت في مرحلة الأسرة التاسعة عشرة بعيدة عن أحداث العنف هذه، ويبدو أن الأسرة اليبوسية حكمت المدينة بهدوء وكانت التجارة هي عمل المدينة الرئيسي، وقد أمن حكام القدس مدينتهم من خلال دفع الجزيةِ للمصريين مقابل السلام معهم. ولهذا السبب تطورت القدس اليبوسية (يبوس) كثيراً خلال هذه الفترة وما بعدها فقد انتعشت الطرق التجارية المرتبطة بها وكان أهمها طريقين: الأول يربط البحر بالصحراء ويمر بالقدس والثاني يربط الخليل (حبرون) بيت إيل ويمر بالقدس.

وكان من حسن حظ القدس أن أغلب الهجومات المصرية كانت تمر بمحاذاة ساحل البحر المتوسط مارة بغزة وعسقلون وجازر ثم يتجه بعضها إلى وسط فلسطين الذي تقع فيه أغلب المدن الفلسطينية الثائرة. ومع ذلك فقد حسّن اليبوسيون من حصن مدينة القدس وسلكوا سلوكاً سياسياً رصيناً وتجنبوا الحروب عن طريق إقامة الاتفاقيات والعلاقات الحسنة مع دول مدن الجوار.

3. المرجعية المثولوجية

(بعل وصهيون: الإله وجبله المقدس)

ظلَّ تقديس الإله (شاليم) قائماً في القدس اليبوسية باعتباره إله المدينة الرئيسي وحاميها لكننا لا نعرف على وجه الدقة مكان (هيكل شاليم) وفيما إذا جُدِّد بناؤه أم لا في العصر البرونزي المتأخر!

لكننا نرى أنه ليس من الغريب عبادة الإله بعل في المدينة، فقد عُبد أبوه في العصر البرونزي المبكر، ولكن مجيء الحوريين ثم الحيثيين إضافة إلى الكنعانيين اليبوسيين في العصر البرونزي المتأخر جعلت من مجتمع مدينة يبوس يفكرون بإله مشترك بينهم كانوا يتعبدونه قبل مجيئهم إلى المدينة ولم يجدوا أفضل من الإله (بعل) فهو إله الطقس عندهم جميعاً ثم أنه الإله القومي لكلٍّ منهم تحت أسماء مختلفة، فإذا كان اسمه الصريح عند الكنعانيين هو (بعل) فإنه

كان يسمى عن الحوريين (تاهوندا) وعنـد الحيثيـين (تيـشوب) وأصـبح عنـد الآراميـين، وهـم الـسكان المجـاورون للكنعانيين، باسم (حدد). ويشترك جميعهم في صفات متقاربة لعلّ أهمها أنهم آلهة طقس وعاصفة وآلهة قوميـون لشعوبهم ويظهرون بمظهر المحاربين (شكل 18).

وكان لقب (بعل) الذي يعني (السيد أو الرب) هو الذي يجمعهـم ويـشير إلى الحيويـة والخـصب والقـوة وركوب السحاب وإرسال البروق والرعود التي تبشر بنـزول المطر.

وكان لبعل دورة حياة تبدأ بولادته فهو ابن الإله إيل (وأحياناً ينسب للإله داجون) وتستمر الـدورة بـذكر صباه وتألقه وقوته ثم صراعه مع إله البحر (يم) (الذي نرى أنه الإلهة الكنعانية الأم يمّو)[95].

وينتج عن تغلبه على الإله (يم) مطالبته ببناء قصر فخم لـه وتتـدخل الآلهـة عنـد إيـل لـكي يفعـل ذلـك فيتردد إيل أول مرة ثم يأمر ببناء قصر له، ولعل أهم أساطيره هـي أسـطورة صراعـه مـع إلـه العـالم الأسـفل وإلـه القحط والموت (موت) وكانت دورية كل سبع سنوات وتقضي بنـزول بعل دون قتـال إلى العـالم الأسـفل ثـم تقـوم زوجته وأخته (عناة) بقتل موت بعد سبع سنوات ليقتل بعل وهكذا وهناك أساطير صغيرة أخرى مع آلهة آخـرين يمثلون العالم الأسفل أيضاً[96].

كل هذه الأساطير كانت من صلب عقائـد الكنعـانيين ومـنهم اليبوسـيين وهـي حـاضرة في قلـب الأسـاطير الحيثية والحورية، كذلك نجد أنها تكمّل عبادة (شالم) ولا تتعارض معه لأن بعل

يمثل دورة الخصب ويمثل شالم دورة الليل والنهار ممثلة بكوكب الزُهرة الـذي هـو كوكـبٌ يمثـل الخـصب أيضاً عن طريق الحب، كما يظهر بعل وسالم كإبنين للإله إيل.





أدد إله العاصفة الآشوري **تاهوندا إله العاصفة الحوري**



بعل إله العاصفة والطقس الكنعاني





تيشوب إله العاصفة الحيثي **حدد إله العاصفة السوري**

شكل (18) آلهة الطقس في الشرق الأدنى القديم.

لكنّ النقطة الأهم التي ظهرت مرافقة لعبادة بعل في القدس تتعلق بجبل (صهيون) الذي نـرى أنـه كـان مقر عبادة بعل، في حين نرى أن جبل أوفل كان مقر عبادة شالم أما جبل موريا فقد كان مقر عبادة أبيهما الإله إيل (إيل عليون) وعند الأموريين قبلهم الإله (مر) أو (داجون).

وعلينا في هذا المجال أن نتحاشى اللبس الشائع والخطير الذي يمثله ارتباط صهيون باليهود وإسرائيل وغـير ذلك، لأن (صهيون) لا علاقة له مطلقاً في بدايته بهؤلاء الذي لم يكن لهم وجـود عنـدما أطلقـت عـلى الجبـل هـذه التسمية، فـ (صهيون) اسمٌ كنعاني أيضاً لكن اليهود الذين مازال على ظهورهم حوالي ألف سنة، سرقوا هـذا الاسـم واعتبروه جزءاً من تراثهم في مدينة القدس.

مثلما سرقوا هيكل شليم واعتبروه هيكل سليمان وأصبح مركز عقيدتهم ولا بـد لنـا، في هـذا المجـال، مـن توضيح أصل تسمية صهيون وعلاقة ذلك بالعهد القديم واليهود.

كان الإله بعل، وفق ما ترويه نصوص أوغاريت، يسكن في قصر دائمي نُسجت حوله أسطورة معروفة تقضي ببنائِه على جبل يسمى (صفُن) أو (صفون) وكان هذا الجبل هو المكان الذي يُدفن فيه الإله بعل، أيضاً، بعد صراعه مع (موت) كل سبع سنوات حيث تقوم زوجته (عناة) بدفنه هناك.

أي أن جبل (صفون) كان مقر حكم بعل وقصره ومعبده وقبره في الوقت نفسه، فهو يجمع قوته في الحياة حيث يدير شؤون العالم، وقوته في الموت حيث يبقى ببذرة الخصب المدفونة التي تُرتجى والتي ستمنح العالم الرخاء بعد تحررها. ولذلك أصبح هذا الجبل مقدساً في الديانة الكنعانية، وأصبح يطلق على المكان الذي يعتبر مركزاً أو مقراً أو معبداً أو هيكلاً أو قبراً للإله بعل خصوصاً عندما يكون هذا المكان جبلاً مرتفعاً، لكن (صفون) كان مكاناً بعينه يرى الباحثون أنه يمكن أن يكون أحد الأمكنة التالية أو كلها:

1. جبل الأقــرع: وهو الأرجح وهو جبل يقع على بعد 50 كم شمال أوغاريت عند مصب نهر العاصي، حيث يمكن مشاهدة قمته منها وهي محاطة بالسحب حتى في الأيام المشمسة، فلا عجب أن يتخذ إله المطر والصواعق قمته منزلاً له في التصورات الأسطورية، وقد حافظ الجبل على قدسيته في العصور الهيلينية والرومانية فقد تربع فوقه (زيوس كاسيوس) ولعب دور الأولمب السوري وحافظ على قدسيته في الديانة المسيحية حتى العصور الوسطى[97].
2. جبل حــازي: في آسيا الصغرى وهو جبل بعل الحيثي والحوري (تشباك وتاهوندا) في النصوص الحيثية والحورية.
3. جبل قاسيون: في حلب الذي نشأت تسميته من أحد احتمالين.

فهو إما تحوير لكلمة حازي إلى كاسيوس الرومانية ثم قاسيون. أو أنه مزج بين كلمتي حازي وصفون فأصبح حازيفون التي أصبحت مع الزمن كازيون، والاحتمال الأول هو الأرجح.

هذه الجبال الثلاثة كانت أشهر جبال بعل في بلاد الشام وآسيا الصغرى، ولكننا قبل أن نناقش ذهاب التسمية إلى القدس علينا معرفة معنى كلمة (صفن).

(صفن) في اللغات السامية تعني (إطلع، شاهد، راقب) ومن ذلك أصبح (صفن) يعبر عن جهة جغرافية معينة هي الشمال، مثلما تعبر كلمة (نقب) عن جهة جغرافية معينة هي الجنوب وتشير إلى الصحراء[98].

وللتأكد ن هذه الملاحظة نرى أن اسم جبل صفون يرد في العهد القديم باسم جبل الاجتماع الذي في أقاصي الشمال.

"وأنت قلت في قلبكَ أصعدُ إلى السماوات أرفع كرسيّ فوق كواكب اللـه على جبل الاجتماع الذي في أقاصي الشمال، أصعدُ فوق مرتفعات السحاب أصيرُ مثل العليّ"[99].

والعليّ هنا تعبير معروف عن الإله (بعل). ومادام الأمر كذلك فقد نقل الحوريون والكنعانيون عبادة بعل على الجبل (الشمالي) لمدينة القدس وربما بنو معبده هناك فصار مقره ومهواه والراجح أنهم أطلقوا عليه في البداية جبل (صفون) ثم تحول هذا الاسم إلى (صهيون) ربما بفعل تصويت حيثي أو حوري أخذ بنظر الاعتبار دمج كلمة صفون مع كلمة حازي أو هازي، أو أن كلمة صفون تحولت مباشرة إلى (صهيون).

ونودّ أن نشير إلى أن (صفون) أو (صهيون) قد يشيران مباشرةً إلى الإله بعل حيث يتحول الجبل نفسه إلى إله، أو أن بعل اكتسب أيضاً اسم هذا الجبل حيث نصادف اسم (بعل صفون) الذي يذكر كثيراً في النصوص الأوغاريتية.

ولا نستبعد أن يكون الاسم الدقيق للإله بعل في مدينة القدس هو (بعل صهيون) الذي كانت تجري عبادته على الجبل الشمالي للمدينة والذي يعرف الآن بـ (صهيون) "ونحنُ نعرف أن الحوريين أيضاً كانت لديهم قصصهم عن بعل ومعبده فوق جبل زافون (صفون) ومن ثم انتهى العلماء إلى نتيجة مفادها إلى أن الحوريين قد جاءوا بعبادة بعل معهم إلى أورشليم، وإلى أن ذلك من شأنه إدراج الفكرة الأوغاريتية عن مدينة السلام المقدسة في العبادات الإسرائيلية على جبل صهيون في يوم من الأيام"[100].

ومن هنا نرى وجه الشبه الكبير بين النصوص الأوغاريتية ونصوص المزامير في العهد القديم التي تشير إلى العبادة على جبل صهيون، في حين تمتدح النصوص الأوغاريتية بعل وانتصاراته على التنين البحري على جبل صهيون. وهكذا نجد أن هذه النصوص اعتمدت على نصوص كنعانية سابقةٍ عليها هي النصوص الأوغاريتية.

هذا المشهد يوضّح لنا صعود عبادة الإله (بعل) في أورشليم ولنحفظ تماماً هذه الصورة ولندرك أنها كانت هكذا قبل بدء العصر الحديدي لأن ذلك من شأنه أن يعطينا فكرةً مذهلة عن عبادات العصر السابق للإله شليم وهيكله.

بقي أن نلقي الضوء على اسم أرنانا الذي هو الاسم الحيثي لمدينة القدس والذي ظهر في العصر البرونزي المتأخر والذي له خلفية مثولوجية أيضاً، فهذا الاسم له علاقة بإلهة الأرض الحيثية (آره)، والعهد القديم يتحدث عن قائد حيثي اسمه (أرنان) مع داود.

تذكر نصوص المواثيق الحيثية جبل صفون (حازي) إلى جانب اسم (ناني) فإذا جمعنا كلمة الأرض في الحيثية مع اسم هذا الجبل (ناني) يكون (أرناني) أو (أرنانا) وهو في رأينا مصدر الاشتقاق، وهذا يعزز استنتاجنا السابق حول جبل صفون وصهيون، حيث نرى أن الحوريين ومن ثُمّ الحيثيين أطلقوا اسم الجبلين الذين يردان مع بعضهما في النصوص الحيثية والمرتبطين ببعل وهما حازي (صفون) وناني فتحولا في القدس إلى صهيون وأرنانا أي قياساً إلى الأصل (جبل صفون) و(أرض الجبل ناني). ولأن القدس سُميت أرنانا لذلك نرى أن المقصود منها القدس المقامة على جبل (أوفل) المقابل لجبل (صهيون).

وفي هذا المقام علينا أن نتذكر أن التوراة نفسها ذكرت اسم حاكم لمدينة القدس هو (أرونا) وهو الذي باع بيدره لداود عندما دخل إليها.

و(أرونا) كلمة حورية وحيثية أيضاً. وهذا جزءٌ من أساطير وتهاويل العصر الحديدي على لسان كتبة التوراة.

وقد عُثر على معبد أرنانا في نزلات وادي القدرون في القدس.

أما الاسم الحوري الآخر الذي ورد في الوثائق المصرية فهو أرض هبه أو هبة أو حيبا، وهبة (حيبا) إلهة حورية وحيثية ظهرت في اسم حاكم القدس (عبدي- حيبا) ولكننا لا نملك دليلاً آثارياً على وجودها ضمن عبادات مدينة القدس في العصر البرونزي المتأخر، أو أنها أصبحت ضمن مجمع الآلهة اليبوسي. لكن وجودها في القدس أمرٌ مؤكد.

4. المرجعية الدينية

يتضح لنا من المرجعية المثولوجية لمدينة القدس في العصر البرونزي المتأخر أن ثمة ديانة

يبوسية هي التي استقرت في القدس وصهرت في نسيجها ما يمكن أن نسميه بعبادة العصر البرونزي في القدس التي ظهرت في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد.

إن هذه العبادة يجب أن تُناقش بحذر شديد، فمعروف أن القدس أصبحت دولة مدينة في العصر البرونزي المتأخر واستمرت كذلك إلى العصر الحديدي في حدود (1000 ق. م) إي طيلة ما يقرب من (500 سنة)، وهذا يعني أن هناك تقاليداً دينية خاصة ظهرت فيها.

صحيح أن أصول العبادة اليبوسية كامنٌ في الديانة الكنعانية ولكن خصوصية (يبوس) ومدتها الطويلة من جهة وذوبان العناصر الحورية والحيثية والمصرية في نسيج دياناتها من جهة أخرى أدى بلا شك إلى ظهور عبادة يبوسية لها بعض الخصوصيات الواضحة.

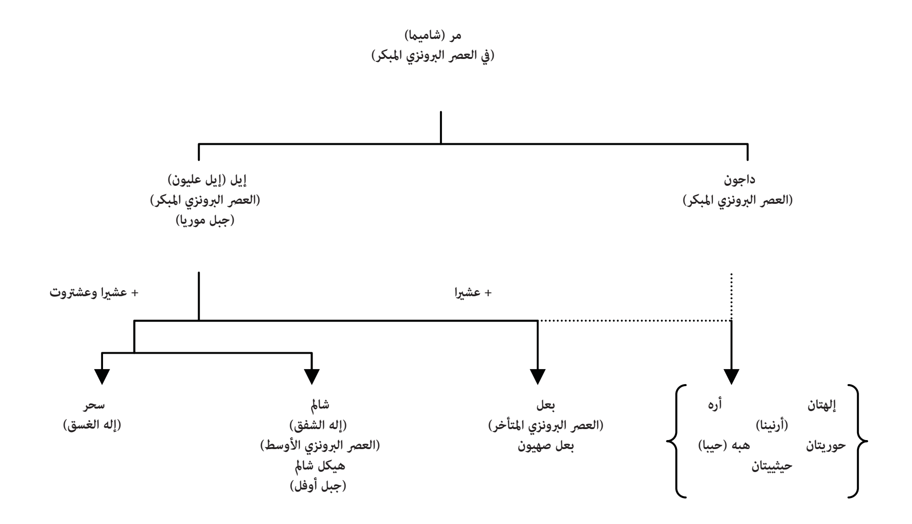
ومن أجل التقاط خيوط هذه العبادة سنحاول إعادة تشكيل صورتها عن طريقين معاً: الأول هو أن نبحث في ما تيسر لنا من التراث اليبوسي ونحاول تشكيل صورتها، والثاني هو أن ننطلق من التوراة رجوعاً إلى العصر اليبوسي (مع الحذر من الأيديولوجيا الدينية التوراتية التي قد تفسد كل شيء) لنتعرف على ماهية هذه العبادة وسنسلك الطريقتين في حوار وجدل وتمحيص.

تراث يبوس الديني

لعل شتولتز Stoltz اهتم أكثر من غيره في محاولة بناء صورة الممارسات الدينية اليبوسية فقد رصد مجموعة من الموضوعات الشعائرية التي رأى أنها كانت تشكل مثولوجيا وطقوس اليبوسيين وهي[101]:

1. المعركة ضد فوضى المياه الهيولية الأولى (يم) والمعركة ضد الأمم وهي موضوعات كان بعل محورها الأصلي.
2. الإله البعيد إيل بوصفه خالقاً وقاضياً أعلى.
3. آلهة المدينة الأخرى مثل سالم.

أي أنه حدد ثلاثة آلهة رئيسية هي (بعل وإيل وسالم). والحقيقة أن علينا هيكلة هذه الآلهة مع ما عرفنا من آلهة أورشليم ووضعها وفق النسق الآتي:



جدول (5) البانثيون المحلي لمدينة القدس في العصر البرونزي

ولا شك أن هذا البانثيون المحلي للقدس ينتمي إلى البانتيون الكنعاني الشامل[102]. ويتبع ذلك ظهور العقائد والطقوس المناسبة والمعروفة المرتبطة بهذه الآلهة منها دورة أساطير بعل وولادة الآلهة الوسيمة ودورة أساطير بعل وقتله لمياه الفوضى (يم) وبنائه لقصره على جبل صهيون ونزوله إلى العالم الأسفل ودفنه في جبل صهيون.

وتستمد القدس قداستها الطبيعية من مرتفعاتها التي تشكل أماكن عالية وواضحة يمكن أن تكون مركزاً كونياً إضافة إلى ما امتزجت به من قداسة إلهية حيث استقر كلٌّ إله على جبل (سالم على أوفل، بعل على صهيون، إيل على موريا) وسيؤثر هذا على التراث اللاحق لليبوسيين حيث نرى القدس وهي تمثل مركز العالم.

أوضح لنا تيرن Terrien أهمية فكرة قداسة المكان ومركزية القدس في الكون عند بني يهوذا المأخوذ عن اليبوسيين حيث يقول "أخذ بنو يهوذا عن الكنعانيين في يبوس القديمة الاعتقاد بأن موقع صهيون كان مرتبطاً بسرة الأرض وبأن هيكل سليمان مبني على صخرةٍ هي مركز الأرض وجبل العالم وركن الخليقة وطرف حبل السرّة الذي يربط بين السماء والأرض والعالم السفلي. ولذلك فهو يغدو مرتبطاً بشجرة الكون وجنة عدن، وفي وقت متأخر عن ذلك بالجنة الجديدة والقدس السماوية"[103].

وتظهر فكرة سرة الأرض في معظم الأديان القديمة وأقدمها كالسومرية والبابلية والمصرية والكنعانية "ويصادف التقليد ذاته لدى العبرانيين: فصخرة المعبد المقدس كانت تمتد بعمق في التيهوم المعادل العبري لآبسو. كذلك الأمر وكما كان هناك في بابل (باب آبسو) كانت صخرة معبد أورشليم تحبس (فم التيهوم) فآبسو وتيهوم يرمزان في آن واحد للعماء المائي، والكيفية المشكلة مسبقاً للمادة الكونية، وعالم الأموات، وكل ما يسبق الحياة ويتلوها. إن باب آبسو والصخرة التي تحبس فم التيهوم تدلان ليس على نقطة التلاقي، وبالتالي الاتصال بين العالم الأسفل والأرض فحسب، وإنما أيضاً على فارق النظام الأنطولوجي بين هذين المخططين الكونيين"[104].

ولذلك يبدو من الطبيعي أن يسمى وادي قدرون أيضاً باسم (وادي جهنم) لأنه يقع تحت الصخرة التي تسد فمه. ويرى مرسيا إلياد أن بلاداً برمتها (فلسطين) وأن مدينة (أورشليم) وأن معبداً (معبد أورشليم) تمثل لأعلى التعيين صورة كونية Image mundi، أي كل منها تمثل، في آن واحد، صورة الكون ومركز العالم[105].

كل هذا التصور عن قدسية يبوس ومرتفعاتها نشأت أولاً في ذهن اليبوسيين الذين ينتمون لعقيدة دينية كنعانية كانت ترى في المكان المقدس المرتفع مركزاً للعالم أو سرّة كانت تربط الأرض بالسماء.

ويحفل سفر المزامير بالكثير من الإشارات المثولوجية واللتورجية العبرانية ذات الجذور الكنعانية، واليبوسية بشكل خاص، عندما يتعلق الأمر بأورشليم والطقوس التي كانت تجري فيها.

ولعلّ (عيد المظال) العبري الذي يتضمن طقوساً احتفالية لجلب الماء من أحد الأحواض إلى بوابة الماء بموكب حافل "فيُنفخ في الأبواق المصنوعة من قرون الأكباش ثلاث مرات تحية للموكب، ثم تسكب المياه في وعاءٍ فضيّ فوق المذبح وتخرج المياه ثانية من فوهةٍ في أسفل الوعاء وتسيل فوق الأرض (مشنى، سوكاه 4: 9 و5: 5) ويتوافق موعد هذا العيد مع أوائل سقوط المطر في فصل الخريف ويعتقد أنه من بقايا الاحتفالات الكنعانية القديمة التي يستسقى فيها بواسطة السحر والشعوذة"[106].

وتشبه هذه الطقوس ما كان يحصل مع معبد الإله بعل وهبوط المطر على تمثال الإله بعد فتح طاقات السماء، وهي طقوس كنعانية الأصل.

وبإمكاننا أن نحصي الكثير من الطقوس الواردة في التراث العبري ثم اليهودي لنجد صلتها المباشرة بالتراث الكنعاني.

يرى تيرن أيضاً أن (النَحُشتان) وهو الثعبان البرونزي الذي رفعه ملك يهوذا حزقيا من مرتفعات أورشليم كانت موجودة في هيكل يبوس "هو أزال المرتفعات وكسر التماثيل وقطع السواري وسحق حية النحاس التي عملها موسى لأن بني إسرائيل كانوا إلى تلك الأيام يوقدون لها ودعوها نَحُشتان"[107].

ونرى أن المرتفعات والتماثيل والسواري وحية النحاس، كلها، كانت رموزاً دينية كنعانية يبوسية في أورشليم.

ويذهب (تيرين) أيضاً إلى أن (بحر البرونز) الذي ركبّه سليمان أمام الهيكل كان يرمز إلى ارتباط هيكل القدس بالعالم السفلي، هاوية أنهار عدن وأسطورتها، وربما لم يكن هذا العنصر مستمداً من اليبوسيين، لكن الفكرة التي وراءه كانت بالتأكيد جزءاً من المعتقدات الكنعانية، ولهذا السبب قد تكون أيضاً جزءاً من الديانة اليبوسية[108].

هوامش ومراجع الفصل الثاني

1. توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح على سوداح، بيروت، 1995، ص121.

2. نفسه ص121- 124.

3. نفسه ص124– 125.

4. نفسه ص125.

5. Yigal shiloh , "Jerusalem. The early periods and the first Temple period". The new Encyclopedia of Archeaology Excavations in the Holy Land , volum 2, Jerusalem , 1933, p. 701.

6. إبراهيم الفني، القدس عبر الحضارة والتراث منذ ستة آلاف عام،عمّان، 1997، ص41.

7. نفسه.

8. Shiloh , OP. CIT .

9. IBID .

10. W. Harold Mare, The Archaeology of the Jerusalem , Michigan, 1987 , P. 37 .

11. IBID .

12. Benjamin Mazar , The Mountain of the Lord , New York ,1975, P. 164-165 .

13. L. Y. Rahmani , "Ancient Jerusalem" Funerary Customs and Tombs. Part two , Biblical Archaeologist 44. 4(1981): 229-230 .

14. هـ ي. فرانكن، القدس في العصر البرونـزي (3000-1000)ق. م، الفصـل الأول مـن كتـاب القـدس في التاريـخ، حـرر الطبعـة الإنجليزيـة وترجمها الدكتور كامل جميل العسلي، عمان، 1992، ص35.

15. نفسه.

16. طومسون، المرجع السابق ص 128.

17. فرانكن، المرجع السابق ص36.

18. الياس شوفاني، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ط2، بيروت، 1998، ص57.

19. طومسون، المرجع السابق ص 131.

20. نفسه.

21. نفسه ص 133.

22. شوفاني، المرجع السابق ص56.

23. هـ ي. ديل ميديكو، اللآلئ (من النصوص الكنعانية) ترجمة عن كبير كهنة أوغاريت إيلي ميلكو. ترجمة وتعليق مفيد عرنوق، بيروت، 1980، ص28.

24. شوفاني، المرجع السابق.

25. سير ألن جاردنر، مصر الفراعنة ترجمة الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم، ط2، القاهرة، 1987، ص 115.

26. فرانكن، المرجع السابق.

27. Shiloh , OP. CIT .

28. Mare , OP. CIT P44 .

29. IBID. P42 .

30. محمد هاشم موسى غوشه، القدس اليبوسية، القدس- الرام، 1996، ص86. عن عارف العارف، تاريخ قبة الصخرة المشرفة، القدس، 1958، ص119.

31. Mare. OP. CIT P. 22 .

32. IBID. P. 47 .

33. IBID .

34. IBID. P. 48 .

35. IBID. P. 49 .

36. IBID. P. 53-54 .

37. IBID. P. 54 .

38. IBID .

39. IBID. P. 55 .

40. كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، 1998، ص27.

41. أرمسترونج، المرجع السابق، ص28.

42. كمال فرح، "منذ فجر التاريخ والقدس هنا". القدس دراسات فلسطينية إسلامية مسيحية. إعداد د. جريس سعد خوري وآخرون، القدس، 1996، ص 185.

43. مانيتو: كاهن مصري عاش في العصر الهيلنستي دوّن تاريخ الملوك المصريين ويقسم مانيتو في مؤلفه التاريخ الكامل لمصر بعد حكم الآلهة وأنصاف الآلهة إلى إحدى وثلاثين أسرة من العائلات الملكية تبدأ بـ(مينا) وتنتهي بغزو الإسكندر الأكبر عام 332ق. م.

44. يوسقيوس افلافيوس: مؤرخ يهودي ولد في حدود 37م وكان من عائلةٍ

ارستقراطية يهودية، تسلم منصب حاكم الجليل حيث عيّنه المجمع اليهودي عليها خلال حركة التمرد اليهودية عام 66م، وعندما قبض عليه من قِبل الرومان تنبأ بتولي فسباسيان حكم الإمبراطورية فأخرج عنه عندما تحقق ذلك وحصل على حق المواطنة الرومانية وله عدة أعمال تاريخية أشهرها ثلاثة هي:

(Antiquitates Judaicae. Bellum Judeicum. Contra Apioem)

45. جارندر، سير ألن، المرجع السابق، ص178.

46. نفسه.

47. نفسه.

48. فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، جـ1، ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت، 1958، ص158-159.

49. طومسون، المرجع السابق ص 136.

50. أنيس فريحة، ملاحم وأساطير من أوغاريت (رأس الشمرا)، بيروت، 1980، ص1986.

51. فريحة، أنيس، المرجع السابق، ص350-358.

52. سيروس جوردون، "الأساطير الكنعانية". أساطير العالم القديم، د. صموئيل نوح كريمر. ترجمة د. أحمد عبد الحميد يوسف، القاهرة 1974، ص161.

53. م. هـ بوب و. ف. رولينغ، المرجع السابق، ص218-219.

54. خزعل الماجدي، الآلهة الكنعانية، عمّان، 1999، ص86-87.

55. بيار غريمال، الميتولوجيا اليونانية، ترجمة هنري زغيب، بيروت- باريس، 1982، ص22-23.

56. شوقي عبد الحكيم، موسوعة الفولكلور والأساطيرالعربية، بيروت، 1982، ص644.

57. فرانكن، المرجع السابق، ص44.

58. نفسه.

59. طومسون، المرجع السابق، ص17.

60. العهد القديم: التكوين 24: 1-3.

61. العهد القديم: التكوين 24: 13.

62. Mare, OP. CIT. P. 20.

63. IBID. P. 72-73.

64. John Gray , A History of Jerusalem , London , 1969, P. 66.

65. IBID.

66. طومسون، المرجع السابق، ص142.

67. نفسه، ص145.

68. نفسه، ص146.

69. أرمسترونج، كارين، المرجع السابق، ص37.

70. فرانكن، المرجع السابق، ص47.

71. أرمسترونج، المرجع السابق، ص39.

72. نفسه، ص40.

73. نفسه، ص39-40.

74. Shiloh, OP. CIT. P. 702.

75. IBID.

76. أحمد فخري، مصر الفرعونية (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام 332ق.م، القاهرة، 1995، ص281.

77. ترجم أولبرايت أهمها للإنجليزية في كتاب نصوص الشرق الأدنى القديم:

W. F. Albright , "The Amarna Letters. " ANET (Ancient Near East TextsRelating to the old Testament by James B. pritchrd, 3rd Edition , New Jersery 1969, P. 283- 490.

وترجمها ميرسر كاملة في:

S. A. B Mercer , The Tell el-Amarna Tablets, 2 Vols, Toronto. 1939.

إعتماداً على ترجمة ألمانية كاملة لكوندتسون:

J. A. Kundtzon, J. A and O. weber, Die EL-Amarna taflen, 3Vols .Leipzig. 1915.

78. الفني، إبراهيم، المرجع السابق، ص45.

79. نفسه، ص44.

80. أحمد سوسه، العرب واليهود في التاريخ، ط4، 1975، ص627.

وانظر كذلك عزمـي عبد محمد أبو عليان، القدس بين الاحتلال والتحرير، عمّان، 1993، ص58.

81. أبو عليان، عزمي، المرجع السابق، ص59.

82. نفسه.

83. نفسه.

84. جيمس هنري برستد، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة الدكتور كمال، القاهرة، 1929، ص257.

85. جردنر، المرجع السابق، ص228.

86. كارين أرمسترونج، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاثة، ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، عمّان، 1988، ص39.

87. نفسه.

88. نفسه.

89. شوفاني، المرجع السابق، ص74.

90. خزعل الماجدي، المعتقدات الكنعانية، عمّان، 2001، ص19-22

91. جاردنر، سيرألن، المرجع السابق، ص302.

92. فخري، أحمد، المرجع السابق، ص377.

أما النص الكامل للوحة ففي ANET P 376-378..

93. طومسون، المرجع السابق، ص190.

94. جاردنر، سيرألن، المرجع السابق، ص303.

95. الماجدي، خزعل، الآلهة الكنعانية، عمّان، 1999، ص32-33.

96. الماجدي، خزعل، المعتقدات الكنعانية، عمّان، 2001، ص145-151.

97. بوب وروليلنغ، "قاموس الآلهة والأساطير في الحضارة السورية" قاموس الآلهة والأساطير ترجمة محمد وحيد خياطة، دمشق، 1987، ص185-186.

98. نفسه، ص187.

99. العهد القديم، سفر إشعياء 14: 13.

100. أرمسترونج، المرجع السابق، ص50.

101. فرانكن، المرجع السابق، ص42. وكذلك أنظر:

Stoltz. F, “Strukturen und Figuren im Kult von Jerusalem”, BZAW*, 118 , Berlin, 1970

102. الماجدي، خزعل، المرجع السابق.

103. فرانكن، المرجع السابق، ص43. وكذلك أنظر:

Terrien. S, “The omphalos myth and Hebrew Religion” , VT*, XX, 1970. 317

104. مرسيا إلياد، المقدّس والمدنّس، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي، دمشق، 1988، ص37-38.

105. نفسه، ص38-39.

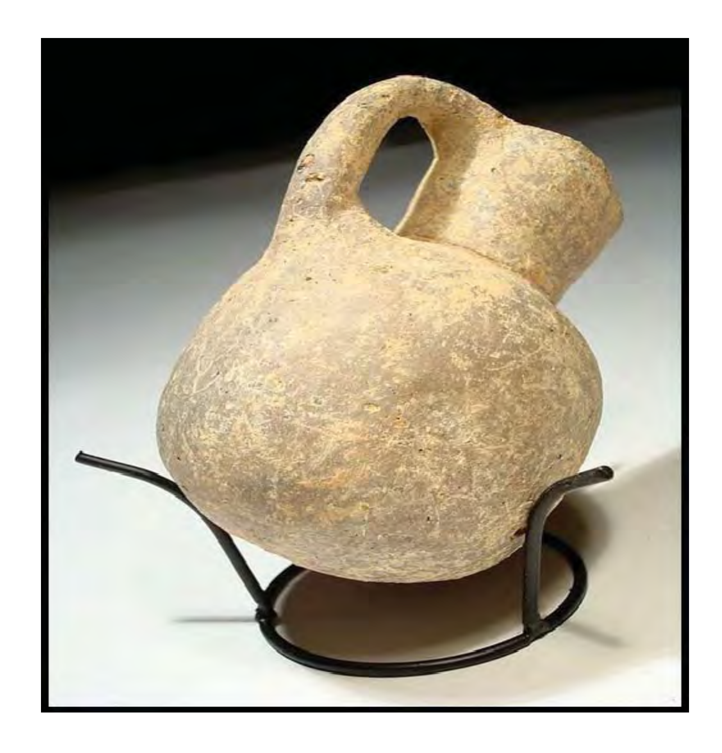
106. بوب ورويلنغ، المرجع السابق، ص191.

107. العهد القديم، الملوك الثاني 18: 4.

108. فرانكن، المرجع السابق، ص43.

الـفصل الثالث

القدس في العصر الحديدي



جرار الزيت من القدس في العصرالحديدي حوالي 1000 ق,م

http://www. antiques. com/classified/1103261/Antique-From-Jerusalem--Biblical-Iron-Age-Oil-Jug--1000-Bc

الـفصل الثالث

القدس في العصر الحديدي

ينقسم تاريخ القدس في العصر الحديدي (1200-332) ق. م إلى العصور الفرعية الآتية:

1. العصر الحديدي الأول (1200-1000)ق. م وهـو عـصر المرحلـة الانتقاليـة مـا بـين العـصر البرونـزي والعـصر الحديدي الفعلي.
2. العصر الحديدي الثاني (1000-539)ق. م وهو عصر الممالك المحلية.
3. العصر الحديدي الثالث (539-332)ق. م وهو عصر الاحتلال الفارسي.

ويجتمع العصر الحديدي بأكمله ليكوّن أكثر العصور جدلاً وأكثرها عرضَة للتلفيق والتزويـر، فهـذا العـصر هو العصر الحاسم في فلسطين عموماً وفي القدس بشكل خاص ولذلك توجّب علينا اعتماد أدق الوسائل العلمية في معالجته وتجنب المرجعيات الدينية التوراتية التي كانت ذات يوم هي السبيل الوحيد لمعرفته يوم كان علم الآثـار مازال في بدايته ويوم لوت عنقه، عندما ظهر، مجموعة من أشباه العلماء المسلحين بخلفيات دينية أسـقطوها، مـع الأسف، على عصرٍ لا يحتمل مثل هذا الإسقاط.

العصر الحديدي الأول **1200– 1000**ق.م

المرجعية التاريخية

يظهر العصر الحديدي الأول في فلسطين وكأنه فترة انتقالية من العـصر البرونـزي المتـأخر أكـثر مـن كونـه عصراً حديدياً بالمعنى الاصطلاحي الدقيق للكلمة. فقد شهد هذا العصر جملةً مـن التحـولات البيئيـة والعـسكرية والسياسية والإثنية التي ظهرت ثمارها في العصر الحديدي الثاني.

تغير الوضع تماماً في نهاية العصر البرونزي المتأخر، وتغيرت أحوال فلـسطين مـن جميـع النـواحي المناخيـة والسياسية والإثنولوجية، وكان هذا العصر بمثابة خاتمة عصر كامل كان في طريقه إلى الزوال. ولعلّ ثمة عوامل مهمة لعبت دوراً كبيراً في تشكيل سمات العصر الحديدي الأول الذي احتـضنها وتفاعـل معهـا وأصـبح زمنـه جـزءاً منهـا، وهذه العوامل هي:

1. الجفاف المتوسطي

تغير مناخ العالم بين 1200-1000 ق. م وشهد حوض البحر المتوسط والأراضي الملتفة حوله في أوربا وآسيا وأفريقيا ذروة هذا التغير فقد "جاءت فترة جفاف نقصت فيها الأمطار بنسبة 20% تقريباً وارتفعت الحرارة حوالي 30-20 درجة مئوية فوق المعدل، وقد أصبحت حادة تماماً حوالي 1200ق. م.

خلال أوائل الألف الأول عاد الطقس الأبرد والأرطب إلى أوربا، وعادت معدلات الأمطار في الشرق الأدنى إلى مستوى يقارب مستواها في الوقت الحاضر"[1] كان تأثير الجفاف وقلة الأمطار مدمراً في السهوب والمناطق الهامشية وكان التأثير متوسطاً في مناطق المياه التي لا تستعمل في الزراعة وهو ما سبب في نقص الغذاء وربما الهجرة، لكنّ التأثير كان أقل من ذلك في المناطق الزراعية التي تستخدم الري والتي أبدت مقاومة أشد واستيطاناً أكثر رسوخاً.

إن التحول من النباتات المتوسطية إلى النباتات الصحراوية وانخفاض منسوب مياه البحر المتوسط وجفاف المراعي كانت من مظاهر هذه الفترة، ولقد لعبَ تكيّف السكان دوراً مهماً في مجابهة هذه الظروف القاسية حيث تقلصت الزراعة واتجه نحو الرعي وربما البداوة، وتغيرت خارطة الاستيطان البشري بشكل واضح.

لم تسقط حضارة العصر البرونزي المتأخر، تحت ظل هذا الظرف المناخي، في فلسطين فقط بل كانت شاملة في حوض المتوسط. فقد سقطت الحضارة الموكينية في بحر أيجه وهي الحضارة التي كانت تمثل العصر البرونزي الأخير، وكانت ذروة الجفاف بين 1200 و1190 ق. م في الإمبراطورية الحيثية على شكل جفاف ومجاعة وسقطت حضارة اوغاريت، قبل أن يدمرها الزلزال، بفعل جفافٍ وقحطٍ طويلين ولحق القحط مصر وشمال أفريقيا. وفي فلسطين دمرت مدن عدة بفعل الجفاف مثل حاصور وتقلصت مدن مثل بئر سبع وعراج.

2. غزوات أقوام البحر

ربما كان هذه المناخ سبباً في استفزاز أقوام بحر إيجة وقحط أراضيهم مما نتج عن ذلك تلك الغزوات الكاسحة التي قاموا بها على بلاد آسيا الصغرى وسواحل المتوسط.

كان أقوام البحر خليطاً من هجرةٍ آرية كبيرة قادمة من شمال أوربا باتجاه بلاد البلقان بالإضافة إلى أقـوام بحر وجزر أيجه التي أخرجها الجفاف مـن جحورهـا. وقـد انقـسمت موجـات أقـوام البحـر إلى ثـلاث مجموعـات أساسية:

(أ) المجموعة المنطلقة من البلقان: والتي تألفت من الفـريجيين والمـوكينيين وهـم الـذين تحـالفوا مـع الكاشـكيين القاطنين شمال آسيا الصغرى (خصوصاً عند السواحل الجنوبية للبحر الأسـود) وقـد هجمـت هـذه المجموعـة على قلب الإمبراطورية الحيثية ودمرتها نهائياً عام 1190 ق. م. وبذلك انتهى دور آسيا الصغرى في صنع أحـدث تاريخ غرب آسيا القديم.

(ب) المجموعة المنطلقة من كريت: والتي تألفت من الشاردانيين واللـوكيين والمـوكينيين واتجهـت نحـو قـبرص ثـم اتجهت جنوباً وتحالفت مع القبائل الليبية وهاجمت مصر وكادت تسقطها لولا وقفـة رمـسيس الثالـث الـذي أجبرها على التراجع.

(ج) المجموعة التي ضمت القبائل الفلـستية والليريـة والزاكاريـة باتجـاه سـاحل بـلاد الـشام حيـث دمـرت بعـض ممالكها وتوغلت في الجنوب أي في فلسطين وتصدى لها رمسيس الثالث في معركتين على البحر وفي البر.

وقد انتهى غزو المجموعتين الأخيرتين بشكل خاص إلى تفرق قبائلها واسـتقرار بعـضها كـسكان مـسالمين في كثير من أرجاء المتوسط "وأصبحت أسماء بعض هذه الشعوب علـماً عـلى الـبلاد حتـى الآن، ومـنهم البلـست مـثلاً الذين أصبح اسمهم يطلق على (فلسطين) منذ ذلـك العهـد، والـشردان الـذين أصـبحت جزيـرة (سردينيـا) تـسمى باسمهم، و(ثكر) الذين من المحتمل أن يكونوا قد أعطوا إ سمهم لجزيرة صقلية وغيرهم"[2]

وهكذا غيّر هجوم أقوام البحر وجه التاريخ بل وأدخله في مرحلـةٍ جديـدة كانـت التمهيـد الأكـبر لـدخول التاريخ في العصور الحديدية. ويلخصُ لنا الدكتور توفيق سـليمان معـالم هـذا التحـول الجـذري الـذي ترتـب عـلى هجمة أقوام البحر بالنقاط الآتية[3]:

1. إنهيار المملكة الحيثية التي كان بيدها تحديد مصير شعوب غرب آسـيا وممالكهـا لعـدة قـرون خلـت عـلى هذه الهجمة.
2. إنهيار جميع ممالك وإمارات ساحل بلاد الشام حتى الحدود المصرية.
3. تـداعي أركـان الدولـة المـصرية، بـالرغم مـن صـد رمـسيس الثالـث لهجـوم المغـيرين فقـد دخلـت

مع الأسرة الحادية والعشرين في مرحلة الضعف والانهيار.

4. هجرة بعض القبائل الليبية القديمة إلى مصر وتسلمها الحكم في الدلتا.

5. تراجع السلطة الآشورية إلى داخل حدودها الأصلية الإقليمية ثم نهوضها كدولة قوية.

6. استقرار القبائل البلستية (الفلسطينية) على ساحل ارض كنعان.

7. ظهور الميديين كقوة كبرى على مسرح الأحداث السياسية في غرب آسيا.

وعلى أثر هذه الهجمة نشأت ثلاث قوى جديدة تصارعت فيما بينها لتسلم زمام القيادة السياسية والعسكرية والحضارية في غرب أسيا القديم وهي الإمبراطورية الآشورية والممالك الآرامية والمملكة الميدية، فولد بذلك عالم جديد في تركيبه وفي إنجازاته السياسية والعسكرية والاقتصادية والحضارية.

3. الأسرة العشرون في مصر وأثرها على فلسطين.

يحتل تاريخ الأسرة العشرين (1995-1080)ق. م معظم فترة العصر الحديدي الأول فإذا أضفنا له التاريخ المضطرب للأسرة الحادية والعشرين (1085- 950)ق. م نكون بذلك قد غطينا كل مرحلة العصر الحديدي الأول في فلسطين.

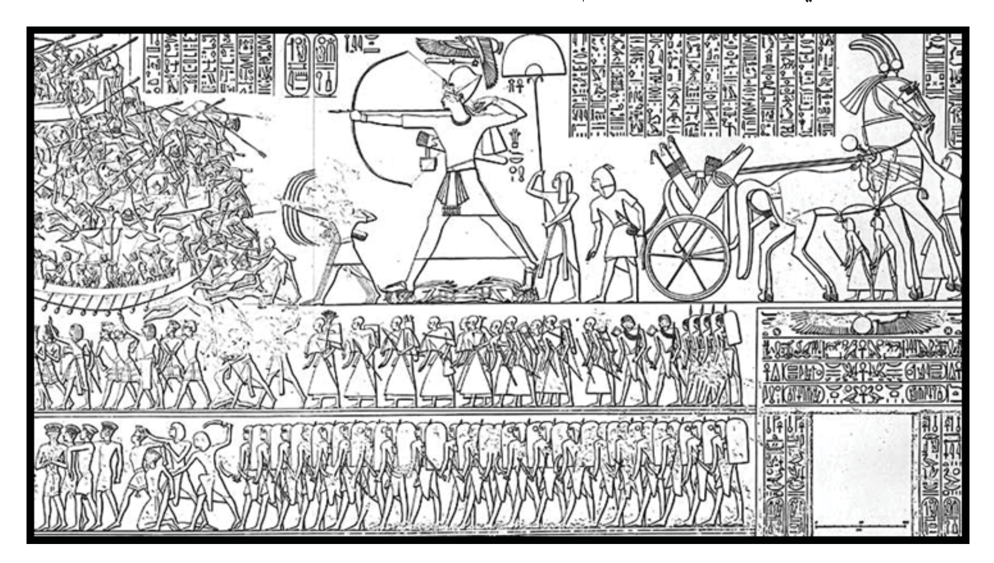
ربما كان (إرسو) الذي قفز إلى كرسي الحكم في نهاية الأسرة التاسعة عشرة أحد زعماء الجنود القادمين من بلاد الشام، وفلسطين بشكل خاص، منهياً بذلك حكماً مصرياً قاسياً ضد فلسطين استمر خلال الأسرتين الإمبراطوريتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة.

ويبدو لنا مغزى الرسالة السريعة التي تعنيها هذه الحادثة عميقة ومؤثرة وتعيد إلى الذاكرة ما فعله الهكسوس، فقد ازداد تدمير القبائل البدوية المهاجرة من بلاد الشام وفلسطين نحو مصر وقامت بغزوات متعددة نجحت واحدة منها في رفع زعيمها (إرسو) إلى مرتبة الفرعون.

ورغم أن مؤسس الأسرة العشرين أزاح هذا الفرعون الأجنبي وأورث على العرش المصري ولداً قوياً هو رمسيس الثالث، لكن هذا الأخير وجد نفسه مضطراً للسير إلى بلاد الشام لإخماد ثورةٍ في بلاد (أمورو) كما تشير إلى ذلك نقوش معبد مدينة (هابو).

لكن العمل الجبار الذي قام به رمسيس الثالث كان في صده لهجوم أقوام البحر التي احتلت كيليكيا وقبرص وقرقميش ثم اتجهت نحو مصر "وجاء بعضها بطريق البر، ومعهم نساؤهم وأطفالهم علي عربات تجرها الثيران والبعض الآخر على سفن حربية. ولم يهمل

رمسيس الثالث دفع هذا الخطر فاستعد له وجمع أسطولاً كبيراً كما جمع جيشاً برياً وسار لملاقاة أعدائه الذين كانوا في طريقهم إلى مصر من ناحية الشرق. وقد حفظت لنا جدران معبد مدينة هابو صوراً مفصلة لهذه المعارك من برية وبحرية وهي تمثل لنا صوراً من الصدام بين مصر والشعوب الأوربية"[4].

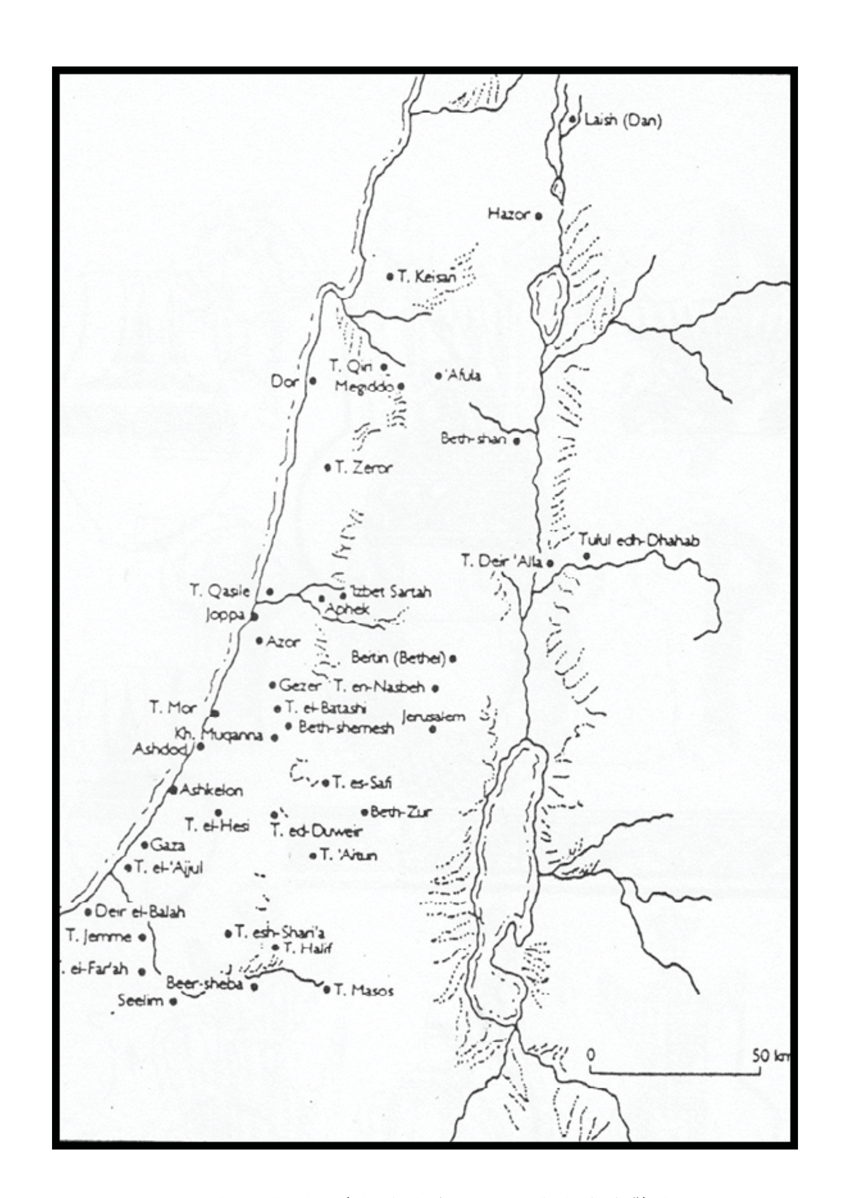


شكل (19) رمسيس الثالث في معركة مع أقوام البحر (صورة جزئية)

المرجع: جاردنر 1987: 315.

وكان من ضمن هذه الأقوام (البلست) أو(الفلستو) الذين هزموا أمام رمسيس الثالث. لكنهم قاموا بالهجوم، بعد ذلك، على المدن الساحلية الكنعانية ثم تمركزوا واستقروا في خمس مدن ساحلية كنعانية هي (عكا، أسدود، عسقلان، جت، غزة) وأصبحت أسدود عاصمة لمملكة فلستية (فلسطينية) إنصهرت فيها القبائل الإيجية الغازية مع القبائل الكنعانية التي كانت تسكن هذه المدن.

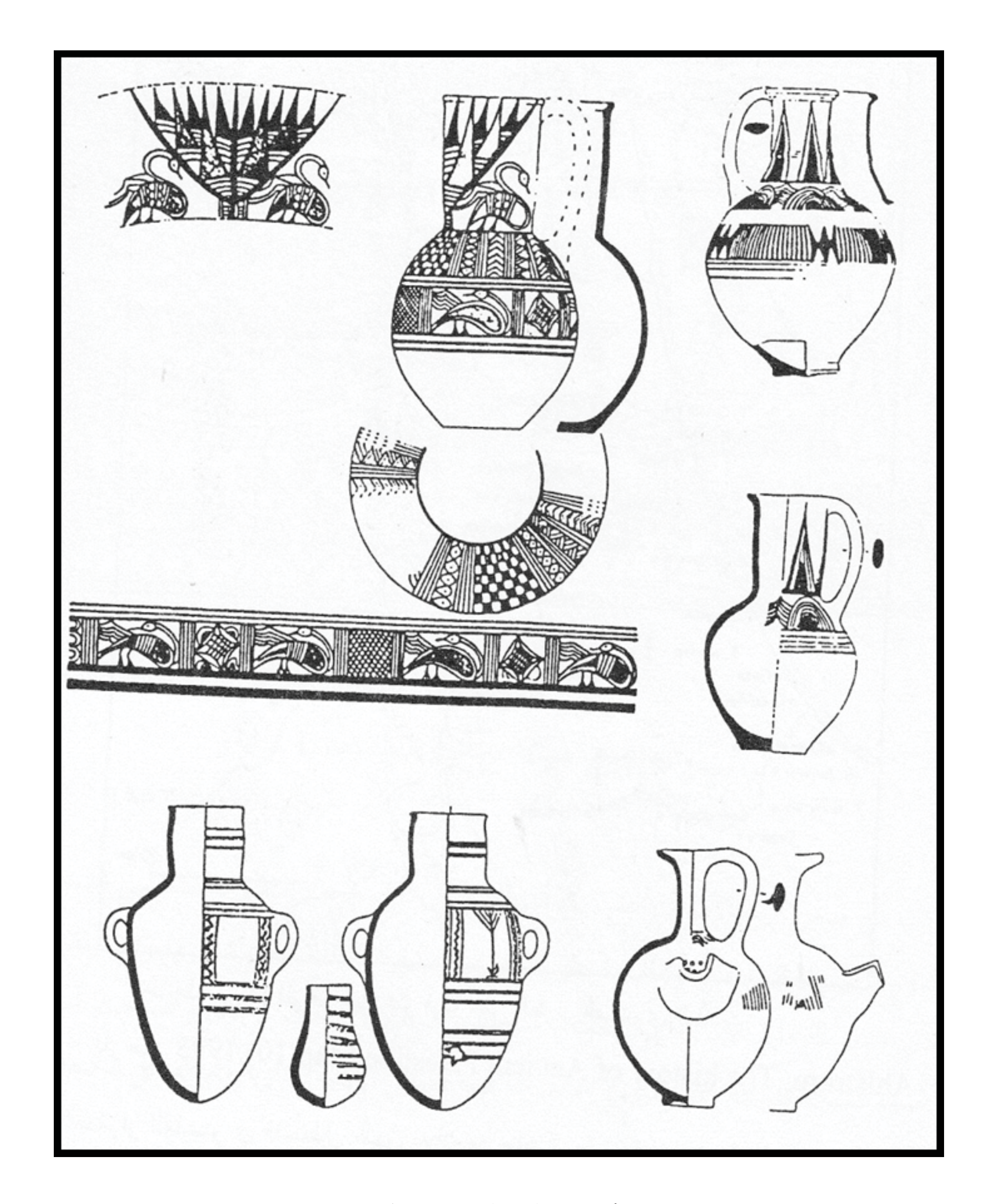
وهكذا بدأ أول تحول إثني في بلاد فلسطين عندما كوّن (الفلستو) لهم دولة ساحلية تضم خمس مدن كبيرة (خارطة 10).



خارطة (10) المواقع التي عثر فيها على الطراز الفخاري البلستي

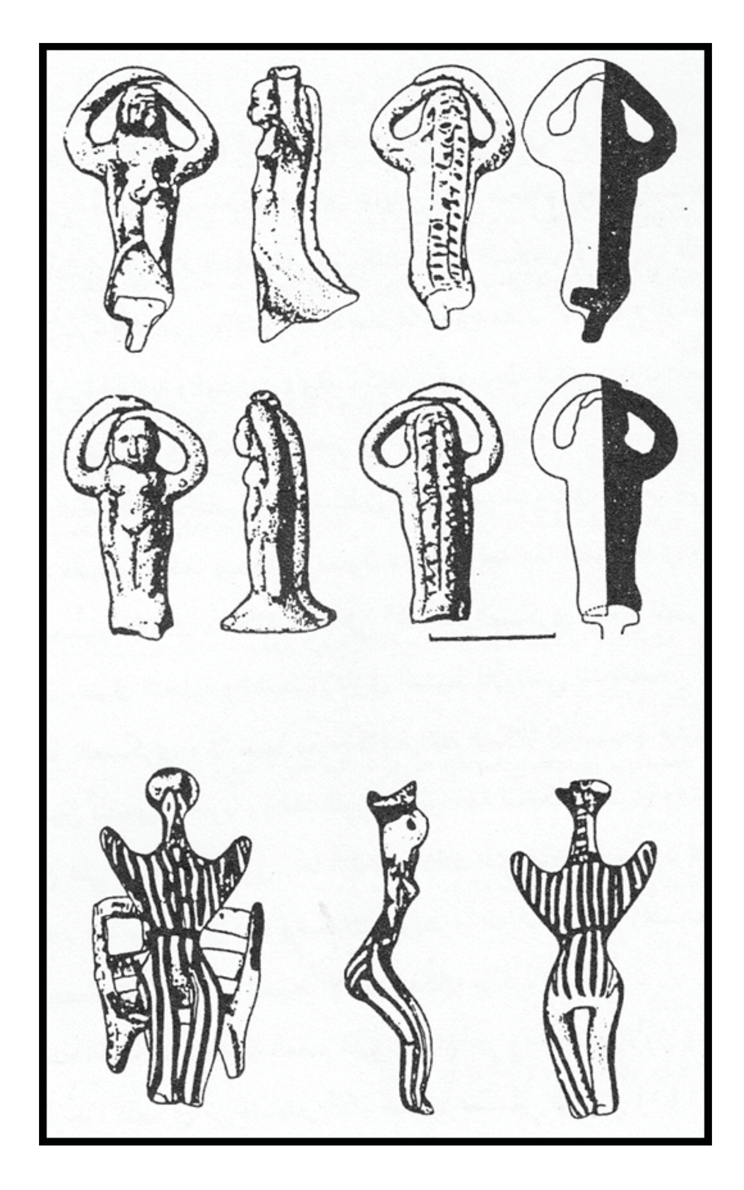
المرجع: Ahlstrom, The history of Ancient Palestine Map(10). 1993

وقد رافق استقرار الفلستو في فلسطين ظهور ملامح خاصة بطراز فخارهم الذي حمل مؤثرات إيجية واضحة مثل أشكال بعض الحيوانات والنباتات. وكذلك طراز الدمى التي صنعوها والتي كان لها نمط خاص (شكل 20، 21)



شكل (20) فخار فلستي مزخرف

المرجع: إبراهيم، معاوية، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني 1990، ص115



شكل (21) دمى فلستية وميناوية

المرجع: إبراهيم، معاوية، الموسوعة الفلسطينية، القسم الثاني، المجلد الثاني 1990، ص116

ويبدو أن رعمسيس الثالث قام بحملة أخرى في بلاد الشام لكنـه لم يطهرهـا مـن بقايـا أقـوام البحـر كـما يذهب إلى ذلك أغلب المؤرخين بل حاصر مدناً داخلية قد تكون (قادش) واحدة منها.

وبعد وفاة رعمسيس الثالث عام (1160) ق. م تلاه سلسلة من الملوك من رعمسيس الرابع وحتى رعمسيس الحادي عشر حكموا ثمانين عاماً وكانوا ضعفاء وخضعوا لسلطان الكهنة، وأخذ النفوذ المصري في بلاد الشام يقل حتى اقتصر على فلسطين ثم تحررت فلسطين أيضاً منه مع نهاية الأسرة العشرين. واستمرت الاضطرابات وضعفت الأوضاع الداخلية في مصر طيلة حكم الأسرة الحادية والعشرين، وقد تكون بردية رحلة الكاهن (ون-أمون) إلى لبنان خير وثيقةٍ أدبية لتبيان ما آل إليه أمور مصر في الشام مع نهاية مُرة[5].

كانت الصفة العامة للنفوذ المصري في فلسطين منذ العصر البرونزي المتأخر هي محاولة (تمصير كامل لجنوب فلسطين) كما يصفها طومسون، وقد توجه هذا النفوذ الذي وصل إلى ذروته مع حكم رعمسيس الثالث، بثلاثة أبعاد هي "التدخل العسكري ودمج المصريين بالاقتصاد وسياسة المدن وطرق التجارة والضبط الإداري النشيط للأراضي المنخفضة"[6].

ويدور التدخل العسكري، لا سيما مع حكام فراعنة السلالة التاسعة عشرة، في صد غزوات الحيثيين المتجهين جنوباً وإخماد الثورات المواجهة للحكم المصري ومنع تقليل غزوات الـ(شاسو) على الساحل الجنوبي. أما التدخل الاقتصادي فيتضمن وجود مجاميع حرفية مصرية ومعابد آلهة مصرية في غزة وعسقلان وربط مواقع التعدين في (تمنه) و(سرابيط الخادم) بالاقتصاد المصري. أما الضبط الإداري فكان مركزه في غزة.

ويبدو أن هذه الخطة نُفذت طيلة العصر البرونزي المتأخر والحديدي الأول وهناك ما يشير إلى انسحاب الوجود المصري من فلسطين أثناء حكم رعمسيس الرابع (1141-1134) ق. م أو بعد ذلك بقليل. ويبدو أن السبب الأساسي في ذلك هو الحروب الأهلية في مصر وضعف الإدارة الحكومية.

4. حركات الهجرة والاستيطان الجديدة داخل فلسطين

كان تأثير الجفاف على المدن والأراضي الفلسطينية متفاوتاً، فهو يختلف في الأراضي الزراعية التي تعتمد على الري أو على المطر عنه في أراضي السهوب أو في المدن المستقرة وهكذا. وقد ظهرت بحوث وفرضيات كثيرة عالجت موضوع حركات الهجرة والاستيطان داخل فلسطين كان أغلبها ينطلقُ من خلفية توراتية لكي تمهد الجو لمعالجة النتائج الأركيولوجية التي

ظهــرت في فلــسطين، ولــذلك وقعــت تحــت تــأثير دينــي أديولــوجي ولم تحــافظ عــلى نزاهــة العلــم الأركيولوجي.

وكان بعضها يصوغ الموديلات أو السيناريوهات المختلفة لكي يمهد للكيفية التي ظهرت بها إسرائيل كدولة مهمة في فلسطين، أو أن بعضها كان يحاول ملاءمة التوراة والأركيولوجيا لنحت طريق يوضح كيفية دخـول القبيلـة الإسرائيلية المزعومة هاربةً من مصر إلى كنعان وهكذا..

وسنهمل كل هذه الدراسات بسبب عدم إخلاصها للعلم وخضوعها لموجهات دينية وأديولوجية واضحة.

تنقسم أرض فلسطين إلى خمس مناطق طوبوغرافية مميزة هي:

1. السهل الساحلي.
2. القسم الشمالي (الجليل والكرمل).
3. القسم الوسطي الأعلى.
4. القسم الوسطي الأسفل.
5. القسم الجنوبي (الصحراء والنقب).

1. السهل الساحلي

رغـم أن الجفـاف طـال كـل الـساحل المتوسـطي الـشامي إلاّ أن المـدن الفينيقيـة مـن أوغاريـت إلى عكـا استطاعت تجاوز هذه المحنة، نسبياً، وما رافقها من اضطراب سياسي دون أن تنهار بشكل واسع النطاق.

ففي عكّو (عكا) أكدت حفريات دوثان (M. Dothan) أنه بعد أن دمر رمسيس الثالث المدينة عاد السكان إلى استيطان الموقع على نطاق أضيق وبدون تحصينات واقترح دوثان أن يكون هؤلاء المهاجرين الشردين Shereden الذين أتوا من إيجة وكليكيا، لكن الشردين شكلوا جزءاً من جـيش رمـسيس الثـاني في معركـة قـادش إذ يحتمـل أن يكونوا قد تأقلموا في المنطقة قبل التدمير[7].

أما الـساحل الفلـسطيني في سـهل (شـارون) فقـد شـهد تحـولات مـن نـوع آخـر تمامـاً فقـد اسـتوطن إيجيـون يـدعون (جكـر- سـيكيل Tjekker-Sekel) في مدينـة (دور) الـساحلية "والظاهر أنهم عملوا ضمن الاقتصاد والثقافة الراسختين في العصر البرونزي الأخير، داعمـين لهـا

ومضيفين إليهما المبتكرات التقنية الجديدة التـي أدت في المـدى الطويـل، إلى تحـسينات في الـصناعة البحريـة. وفي بعض المواقع الأبعد إلى الجنوب توحي البيانـات الأركيولوجيـة بـأن المهـاجرين الجـدد إلى دور لم يتـسببوا في تغـير جذري أو اقتـلاع لسكان الساحل، والأخرى، هو أن المهاجرين اندمجوا سلمياً مع السكان الساحليين المحليين" [8]

أما الساحل الفلسطيني من يافا إلى غزة فكلها تشير إلى وجود تغير إثني يتمثـل في مجـيء الفلـستو الـذي انتج نوعاً جديداً من الخزف الثنائي اللون وذات الزخارف المتميزة إضافةً إلى الدمى الفلستية والميناوية التـي تمثـل إناثاً مرفوعة الأيدي إلى الأعلى أو على الرأس ويعتقد أنها نـوع مـن الإلهـة الأم الفلـستية التـي كـانوا يتعبـدونها في موطنهم الأصلي (شكل 21).

وهكذا نرى أن سهل شارون شهد التحول من العصر البرونزي القديم إلى العصر الحديدي الأول عن طريق تغير إثني وظهور المزارع الصغيرة أو المخيمات أو القلاع والأسوار المحصنة بأبراج مراقبة مثـل مـا عـثر عليـه في تـل زيرور.

إن منطقة السهل الساحلي تعرف باسم سهل فلسطين وتاريخها خلال الفـترة مـن القـرن الثالـث عـشر إلى القرن العاشر يقرن بتاريخ شعب بهذا الاسـم في هـذه المنطقـة وهنـاك نظريـة تـرى أن هـؤلاء البلـست سـكنوا في السواحل الفلستية قبل هجوم أقوام البحر وربما كانوا جزءاً من هجرة أقوام البحـر المكونـة مـن البلـست والجكـر والشريدان والدانانو إلى مناطق فلسطين الساحلية سبقت حكـم رعمـسيس الثالـث، وتمـت في وقـت مـا في القـرن الثالث عشر[9].

ولقد كان اندماج شعوب البحر مع السكان المحليين إشارة على عدم تأسيس إثنية جديـدة. أمـا الانتعـاش السريع في المدن الفلستية، خلافاً لمدن فلسطين الأخرى، فقد كـان بـسبب الجهـود المـصرية للـسيطرة عـلى الطـرق البرية والبحرية الجنوبية في فلسطين.

2. فلسطين الشمالية (الجليل والكرمل)

اتصلت محاولات ربط الحفريات في مواقع الجليل وتاريخ فلسطين التوراتي التي قام بها (فنكلـشتين) عـلى إثبات علاقة عبر إقليمية بين مستوطنات العصر الحديدي الأول في الجليل ومستوطنات مرتفعـات إفـرايم- منـسي، لكن هذه العلاقة لا تستندُ على أدلة واضحة. فقد ارتبطت أواني الجليل الأعلى، مثلاً، مع فينيقيـا وسـاحل فلـسطين الشمالي بدلاً من مواقع السامرة ويهوذا، وكذلك البناء المعماري وأنواع معاصر الزيتون وغيرها. وتؤكد الحفريات أن

الجليل الأعلى، وهو المنطقة المرتفعة والوعرة حصل فيها الاستيطان الشامل في العصر الحديـدي الثـاني (ربمـا حتـى نهاية القرن العاشر أو التاسع). ولذلك توجب الحذر من ربط آثار بالمرتفعات الوسـطى في العـصر الحديـدي الأول وما قبله خدمة لأغراض توراتية. أما الجليل الأسفل فقد شهد هو الآخر استيطاناً واسعاً في (قريات تيفـون) و(تـلال عيرون) وغيرها.

أما وديان الأراضي المنخفضة مثل وادي جرزيل فهو أكثر المناطق الزراعية في فلـسطين اسـتقراراً، ولـذلك لم يتأثر إنتاجه الزراعي بفعل الجفاف الذي حصل في العصر الحديدي الأول. وتؤكد حفريات مجدو وبيـسان أن هـذا الوادي شهد تواصلاً واستقراراً سكانياً.

ورغم غزارة الحفريات في وديان الأراضي المنخفضة وخاصة جرزيل ونوعيتها التي تشير إلى استمرار وتنامي حضارتها من البرونزي الأخير مـروراً بالحديـدي الأول والثـاني إلاّ أن مخططـات فنكلـشتين النظريـة المعتمـدة عـلى التوراة والتي حاول أن يحوّر بها الآثـار المكتـشفة في هـذه الوديـان جعلـت مـن الحـضارة البديعـة لهـذه الوديـان هامشية قياساً بالاستيطان في المرتفعات الوسطى الذي يرى أنه شكّل نواة إسرائيل لاحقاً.

يقدم طومسون اعتراضه ونقده لهذه النظرية عبر النقاط التالية[10]:

1. تصور فنكلشتين أن (إسرائيل) في هذه الفترة سابقة لنشوء الدولة يقتصر على المناطق التي يتصور أنها (مـن دون اعتماد منطق تاريخي نقدي) شكلت فيما بعد مملكة شاؤل حـوالي 1000 ق. م والتـي حدد حدودها بقراءة سفر صموئيل الأول (الذي يعتبره مرجعاً تاريخياً. مع قليل من النقد).
2. تأثره بالفكرة الأركيولوجية التوراتية التي تعتبر أن العصر البرونـزي حقبـة (كنعانيـة) وأن العـصر الحديـدي الأول حقبة (إسرائيلية). وأن (إسرائيل القديمة) تشكل جزءاً من سكان فلسطين الآخرين بالاستقرار.
3. إصراره المسبق على عدم وجـود اسـتيطان إلاّ في المرتفعـات الوسـطى (في العـصر الحديـدي الأول) وإهـمال الوديان المنخفضة قاده إلى نسيان تواصل الاستيطان الكنعاني في المرتفعات الوسطى مـن العـصر البرونـزي إلى العصر الحديدي.
4. ليست بياناته الأركيولوجية، بل تصوره المسبق المتأثر بالتوراة هو الذي تحكم في (وشـوّه) تـاريخ فنكلـشتين وتدعو الضرورة إلى فهم مسار الاستيطان في المرتفعات في العصر الحديـدي الأول ضـمن المحـيط الجغـرافي الأوسع للتغيرات في كل أرجاء فلسطين.

3. فلسطين الوسطى الشمالية

(إفرايم-منسي)

يصبّ فنكلشتين كل جهوده لوصف أصول إسرائيل إنطلاقاً من العصر الحديدي الأول وعلى ضوء أنماط الاستيطان في المرتفعات الوسطى حيث يرى أن استقرار أشباه البدو بدأ على طول أطراف السهوب الشرقية للمرتفعات الوسطى ثم ازداد عدد السكان واعتمدوا على زراعة الكفاية وتحولوا عن زراعة الحبوب إلى إنتاج الزيتون والكروم.

وكان (ألت) قد قدم روايةً أركيولوجية مستندة إلى التوراة عن الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين تحكي كيف استوطنوا تلك المناطق في المرتفعات حيث الهيئات السياسية الكبرى كانت قد تأسست، والتي كانت ملقحة ضد العدوى بنظام الدولة-المدينة الموجود في المنخفضات، وتلك المناطق قليلة السكان، والتي وصفها ألت بأنها هشّة التنظيم، هي التي كانت أقل قدرة على مقاومة الدخلاء الإسرائيليين بعد أن استقرت الجماعات (شبه البدوية) على النمط الزراعي من الحياة أدى توسعها في النهاية إلى تدمير نظام دولة المدينة[11].

ويرى فنكلشتين بأن مستوطنات المرتفعات في العصر الحديدي (إفرايم منسي) كانت مرتبطة بمستوطنات المناطق المنخفضة المعاصرة لها ويميز كل طراز بأنه يعكس وحدات اقتصادية متميزة إقليمياً.

ويخالف فنكلشتين نظرية (إلت) عن البداوة الرعوية، بالقول بأن مستوطني المرتفعات محلي ويقدم لهم ثلاث مراحل أركيولوجية خلال الفترة من 1200-1000 ق. م مؤدياً مباشرة إلى (الملكية الموحدة) لدولة إسرائيل على يد داود في العصر الحديدي الثاني، وهنا يقع في الخطأ القاتل فهو بقدر علميته ومعلوماته وبياناته الأركيولوجية المهمة إلاّ أنه كان يبني ذلك كان وفق بناءٍ توراتي معدٍّ سلفاً، إنه يطوّع المعلومات العلمية لصالح المرويات التوراتية. وبكلمةٍ أدق إنه لا يبني تاريخاً أركيولوجياً لفلسطين بعامة ولإسرائيل بخاصة بل هو يصف الأركيولوجيا لصالح نهاية توراتية.

ولعلّ أهم ما يميز فنكلشتين هو رفضه لفكرة تأسيس إسرائيل من (عائلة إسرائيلية) مهاجرة من مصر، وهو ما يقع فيه إلت، وكذلك يجد طومسون مجموعة نقاط ضعيفة أخرى في نظرية فنكلشتين لعلّ أهمها مطالبته أن يقوم فنكلشتين بفحص ما يسمى بـ (المملكة الموحدة)

وجذورها ونشأتها لا على أسس تاريخانية المرويات التوراتية المناسبة، بل في ضوء مبررها التـاريخي ومبـدأ قابليتهـا للتحريف[12].

إن فنكلشتين مطالبٌ بأن يحرر الأركيولوجيا كلياً من الموجّهات التوراتية ويتركها كما هي مـع اسـتنتاجات منطقية تعتمد على العقل لا على الدين.

وكان كتاب ليمخي (N. P. Lemche) (إسرائيل القديمة) قبل فنكلشتين قد وقع، هو الآخر، في شرك مسبّقات المرويات التوراتية رغم مسحته الأنثروبولوجية والسوسيولوجية والأركيولوجية، ولعـل أبـرز مـا أضـافه ليمخـي هـو اكتشافه لعدم وجود ما يبرر التمييز الشائع بين ثقافة الكنعانيين والإسرائيليين أركيولوجياً بمعنى أنـه لا توجـد آثـار إسرائيلية خاصة بإسرائيل (في العصر الحديدي الأول والثاني) بل هناك دائماً آثار كنعانية فحسب.

ويتحزب ألبرايت بطريقة تبتعد عن الذوق العلمي وتجافي أبسط أنواع الحقائق الآثارية والعلميـة عنـدما يقلب الوقائع وتفسيرها الصائب حين يرى أن من حـسن الحـظ لمـستقبل التوحيـد أن إسرائيليـي الغـزو قـد كـانوا همجاً، مزودين بطاقةٍ بدائية وإرادة في البقاء لا تلين، حيث أن إفناء الكنعانيين قد منع الخلط الكامل بين القـومين القريبين، الأمر الذي كان سيحط من المستوى اليهودي إلى درجة يـصبح معهـا إصـلاح الأمـر مـستحيلاً. وبهـذا فـإن الكنعانيين بعبادتهم للطبيعة الطقسيعربدية، ومذهبهم المتعلق بالخصوبة بصيغة رموز الثعابين والعـري الـشهواني وخرافاتهم الغريزية قد تمّ استبدالهم بإسرائيـل ببـساطتها الرعويـة ونقـاء حياتهـا ووحـدانيتها اللطيفـة ونظامهـا الأخلاقي الصارم[13].

كان فنكلشتين قد زحزحَ نظرية إلت وأُلبرايت بنظرية الهجرة من داخل فلـسطين إلى المرتفعـات الوسـطى وباكتشافه لفكرة الهيكل السياسي لدولة الفلستو هو الذي ضغط على قبائل الـ(عابيرو) الذين نجدهم مذكورين في رسائل تل العمارنة وأجبرهم على الاستقرار في المناطق الجبلية أوائل العصر الحديـدي ليـشكلوا نـواة شـعب طـوّر، بعد وقت لاحق، تقاليد قصصية غالباً ما تعرف تطابقاً بين تعبير (إسرائيليين) وتعبير (عبريم) الذي يبدو عرقياً. وهو بذلك يحاول توضيح التطور التاريخي، والأهم التطور اللفظي من (عابيرو) كطبقـة اجتماعيـة متدنيـة إلى (عـبريم) الذي نجده في التوراة[14].

وهذا موجَّه توراتي أيضاً، في نظرنا، لعدم وجود وثائق تاريخية تربط بين (عابيرو) رسـائل تل العمارنة في القرن الرابع عشر مع العبريـين في التـوراة. خـصوصاً أن كـل مـا يتعلـق بمـا هـو

(عبري) مازال غامضاً.. حتى ذلك الخطأ الشائع الذي يطلق على اللغة المصطنعة التي تسمى (عبرية) والتي لا وجد لها إلاّ صناعياً عند بعض الكهنة الذين كتبوا المشنا، أما التوراة فمعروف أنها مكتوبة بلهجة كنعانية حيّة تسميها التوراة نفسها (شفة كنعان) ولا تسميها (عبرية)!!.

ويقع بوروفسكي (O. Borowski) في خطأ قاتل آخر فقد حاول، بحماسٍ قوي وإن كان مُضَلِلاً، أن يقرن كل إبداع الزراعة الفلسطينية خلال العصر الحديدي مع الإبداع (الإسرائيلي) وبشكل خاص تنظيم المصاطب الذي مكّن من سكنى المناطق الجبلية وإزالة الغابات والزراعة الانسيابية، والإبداع في تخزين المياه والأدوات الحديدية واعتماد الدورة الزراعية والتسميد وإراحة الأرض، واختراع معصرة الزيت الخشبية ووسائل التخزين المبتكرة[15].

أما كوتي (R. Coote) ووايتلام K. Whitelam فيريان أن بدايات الاستيطان في المرتفعات والسهوب أوائل العصر الحديدي جاءت نتيجة لانهيار التجارة أواخر العصر البرونزي، وأن انتعاش التجارة مجدداً في العصر الحديدي الأول أمسك بزمام النمو التجاري الذي قاد إلى تشكيل دولةٍ إسرائيلية تحت حكم داود وسليمان ويذكران أن المبدأ الحاكم هو أن تركيز الاستيطان بتحوله إلى قرى المرتفعات والسهوب، خلال فترة تناقص أو انهيار التجارة الإقليمية، هو وسيلة لتقليل المخاطر باعتماد اقتصاد الكفاف الرعوي الذي يقدم أملاً أقوى بالبقاء بعيداً عن الأراضي المنخفضة والمعرضة للمخاطر، ويبدو أن ظهور إسرائيل يتلاءم مع هذا النموذج.

لكنّ ميلر وإيدلمان Edelman يريان أن نشوء ملكية أو مشيخة محدودة في المرتفعات الوسطى، يبدو ممكناً أواخر العصر الحديدي الأول وبداية العصر الحديدي الثاني، ورغم ذلك، فإن وجود مثل هذه الوحدة السياسية الصغيرة يفترض وجودها في مرتفعات إفرايم في هذه الحقبة القديمة ويبدو مستقلاً تماماً عن أي توسع في التجارة الدولية، ويرى طومسون أن لا وجود لهذه التجارة الدولية ويرى كذلك أن تأكيد كوتي ووايتلام على كونها السبب المباشر لنشوء الملكية يبقى محيراً[16].

وهكذا ظلت نظريات (المرتفعات الوسطى) كأساس لنشوء إسرائيل متهافتةً ولا أساس لها من الصحة، فهي مجرد سيناريوهات تأويلية مبنية على حقائق أركيولوجية قليلة وناقصة وتعتريها الثغرات.

4. فلسطين الوسطى الجنوبية

(تلال يهوذا)

تقع مرتفعات يهوذا بين مرتفعات إفرايم حتى شمال القدس، أما تلال يهوذا فتقع بين القدس والخليل وتشير المسوح الأركيولوجية إلى أن تلال يهوذا كانت مهجورة في العصر البرونزي الأخير، باستثناء القدس وخربة رابود وربما بيت زور، التي تواصل السكن فيها خلال العصر الحديدي الأول. أما الحافة الشرقية لصحراء يهوذا فقد وجدت فيها مواقع تعود إلى العصر الحديدي الأول معظمها قرب تجمعات المياه.

كانت الزراعة، على ما يبدو، حرجة في العصر الحديدي الأول ومتأثرة بظروف الجفاف ولذلك اتجه الإنسان هناك إلى تربية الحيوانات. وهكذا تبدو لنا السهوب الواسعة المحيطة بيهوذا والصحراء الشرقية المتاخمة لها مكاناً لهجرة مجموعات من بدو (الشاسو) شبه المستقرين قرب مرتفعات يهوذا.

ويرى طومسون أن السبب الذي أدى إلى تحول سكان مرتفعات يهوذا عن البداوة الرعوية خلال العصر البرونزي الأخير والحديدي الأول، إلى شكل زراعي متوسط مستقر، يجب أن يعزى إلى سياسة توطين إلزامية، شجع عليها توسع النفوذ السياسي لمدن شمال النقب وشيفيلية والساحل الجنوبي في فلسطين[17].

في هذه الأثناء كانت مدينة القدس المتواصلة مع تاريخها البرونزي بوجود اليبوسيين تنمو تدريجياً وتتحول إلى دولة مدينة تسيطر على وادي عليون وتصبح مركزاً تقليدياً عريقاً للمهاجرين من بدو الشوس حولها ونحو المرتفعات شمالها.

ويبدو أن القدس كانت محاطة في إقليم المرتفعات الوسطى السفلية بثلاث مدن هامة هي: (لخيش وشيفيلية والخليل) كانت حتى ذلك الوقت أهم بكثير من القدس على جميع المستويات. ولم تبرز أهمية القدس إلاّ عندما دُمرت لخيش في بداية القرن (حوالي 1100ق. م) أما شيفيلية والخليل فقد تخلتا، بفعل الصراعات الاقتصادية الإقليمية بينها، إلى القدس عن أهميتها لتنمو القدس ببطيءٍ وبهدوء بين تلال ومرتفعات يهوذا القادمة.

5. فلسطين الجنوبية

(النقب)

استمر السكن المحدود في بعض مواقع شمال النقب مثل (تل الحويليفية) من العـصر البرونـزي الأخـير إلى العصر الحديدي الأول حيث يتوسع السكن فيها كلما اتجهنا نحو العصر الحديـدي الثـاني، وأظهـرت آثارهـا أدوات كثيرة منها أدوات التخزين الفخارية والخزف وبيوت السكن. ولعلّ أكبر المواقع سكناً كان تل الدوير (لخيش) التـي تحدثنا عنها حيث تواصل السكن فيها حتى حكم رمسيس الثالث ثم انقطع لينمو مع العصر الحديدي الثاني وهذا ما حصل مع مدينة شيفيلية.

ويظهر موقع (خربة المشاش) استثنائياً في سكنه وتطوره في منطقـة النقـب نظـراً لموقعهـا الجغـرافي الـذي يربط الجزيرة العربية بالسهل الساحلي وتبدو التفسيرات التي تحـاول جهـل هـذا الموقـع (إسرائيليـاً) متهافتـة ولا قيمة لها.

ويتسع ذلك النمو المطّرد لموقع بئر سبع وقادش البرانية. ويبدو أن ذلك كله حـصل بفعـل اسـتقرار سـكان بدو التخوم الجنوبية وفرضهم هذا الاستقرار على قرى ومدن النقب ومرتفعات يهوذا.

ويرى طومسون أن هذه المناطق انتقلت تدريجياً من اقتصاد مختلط يقوم على زراعة الحبوب والمحاصيل الحقلية والرعي إلى اقتصاد أكثر اتساماً بالسمات المتوسطية وميزته الكامنة في الاستثمار في مجال المحاصيل النقدية مثل الزيتون والزيت والعنب والخمر، بعـد إنـشاء المـصاطب بـصورة تدريجيـة. ومـع انـدماج الـسكان بالاقتـصاد المتوسطي وأثره انـدمجوا في الـشبكات التجاريـة الإقليميـة مـما أدى إلى جـذب الاسـتثمارات والمـصالح والـسيطرة السياسية والعسكرية للمدن[18].

وهكذا نلاحظُ، إجمالاً، أن فلـسطين في العـصر الحديـدي الأول قـد مـرت بتحـولات اقتـصادية واجتماعيـة جذرية كان من شأنها أن تعيد تكوين البنية الحضارية والسياسية لها التي ما عادت كما كانت في العصور البرونزية ذات الطابع الأموري الكنعاني.

لقد شهد غرب فلسطين الساحلي اسـتيطان (الفلـستو) الإيجيـة التـي اختلطـت بـالتراث الكنعاني وذابت فيه رغم أن صلابتها العسكرية ظلت حافزاً على تشكيل أقاليم حولها. أما شمال فلسطين فقد شهدت تدفقاً زراعياً كنعانيـاً نـشطاً وحافظـت تمامـاً عـلى الهويـة الكنعانيـة، أمـا

وسط فلسطين فشهد استقراراً للقبائل البدوية التي حاولت انتقاء ما يحلو لها من العقائد الكنعانية في سبيل تكوين هوية خاصة بها دون جدوى، فقد ظل التراث الكنعاني مهيمناً. أما الجنوب الصحراوي لفلسطين فقد ظلّ كما هو وأصبحت تخومه محاطة بالبدو شبه المستقرين من الكوشان والأدوميين (وهما من بقايا الأموريين) وانتعشت مدنه وقراه بطبيعة متوسطية تجارية وشبه زراعية.

هذا المشهد لا يوحي ببناء سيناريوهات مبالغ فيها وصادرة عن عقلية أديولوجية ودينية تفترض أن إسرائيل قد استوطنت أولاً مرتفعات فلسطين نادرة السكان.

ويعد (برايت) المسرح لتوصيفه الاستيلاء الإسرائيلي على كنعان بتهيئة القارئ باقتراح وتأكيد أن إسرائيل كانت مهيأة لإدخال نظام أخلاقي وسياسي إلى المنطقة بالطريقة ذاتها التي كانت تُقدم فيها إسرائيل في أيامها على أنها حاملة الحضارة (الأوربية/الغربية) إلى منطقة كانت مقسَّمة سياسياً ومفلسة أخلاقياً. ولا تُذكر الإنجازات الثقافية لفلسطين إلاّ ويظلها عجز سكان مفسدين دينياً عن تشكيل أنفسهم في تنظيم سياسي ذي معنى، أي العجز عن عبور العتبة نحو الدولة. ولم تكن فلسطين قبل دخول إسرائيل إلاّ خليطاً من دول-مدن صغيرة وتافهة تحت السيطرة المصرية والتي تُركت فوضوية وعاجزة بعد انهيار السلطة المصرية[19].

إن الفراغ الآثاري الواضح في تاريخ فلسطين في العصر الحديدي الأول يملؤه (التوراتيون) بسيناريوهات الهجرة البدوية وتكوين بذرة إسرائيل في شمال الوسط وبذرة يهوذا في جنوب الوسط، ولنلاحظ ضغط المقدمات التوراتية على تشكيل هيكل السيناريو لنكتشف ببساطة زيف هذه الطروحات وبطلانها. بل ولنزيح الستار عن مؤامرة مخزية تطعن التاريخ القديم لتهيئ مسرح التاريخ الحديث لاستيطان شبيه بذلك الذي حصل في العصر الحديدي الأول يصنعه يهود قادمون من الغرب ليملأوا الفراغ السياسي والحضاري الذي تركته الإمبراطورية العثمانية (في الماضي كانت الإمبراطورية المصرية الفرعونية) وهذا ما يجتهد كيث وايتلام لفضحه في كتاب (تلفيق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني).

المرجعية الآثارية: الطبقة 15

كشف شيلوح في الطبقة 15 من الطبقات الآثارية لمدينة القدس دلائل خزفية واضحة تعود للقرن الثاني عشر والحادي عشر قبل الميلاد في المنطقة D1 , E1 وكان معظمها متناثراً وفي

حالةٍ رديئة ولا يتناسب مع أهمية القدس في العصر والذي ذكره في التوراة (يوشع 10: 2، صموئيل 5: 6-8). وقد كشف الآن عن فخاريات مشابهة تعود لجرار ذات حافة فم واضحة تعود للعصر الحديدي الأول أو قبل ذلك حيث ربما كانت تعود للعصر البرونزي المتأخر[20].

ويشير هذا الفقر الواضح في الآثار الخاصة بالعصر الحديدي الأول إلى فقر المرحلة تاريخياً وآثار البيئة آنذاك واستمرار العيش في مدينة (يبوس) الكنعانية. فلا أثر لقبائل جديدة أو استيطان جديد ولا أثر لمجتمع جديد، وهو ما يضع الروايات الدينية التوراتية في حرجٍ كبير.

العصر الحديدي الثاني **1000- 539**ق. م

ربما كان العصر الحديدي الثاني أكثر العصور إثارة للجدل، فهو عصر قابل للبس وخلط الأوراق، وربما كان أكثر العصور التي اختلطت فيه الروايات الدينية مع الوقائع، بل أن هنا ما يشير إلى مهيمنات توراتية محكمة وقوية سيطرت على سرد وقائع هذا العصر بطريقة أقرب إلى الملاحم الشعبية والمرويات الفولكلورية منها إلى التاريخ العلمي الدقيق المستند على علم الآثار.

وقد رأينا أن أسلم طريقة لتناول تاريخ القدس في العصر الحديدي الثاني هو تتبعه من خلال الأربعة والنصف قرن المتتابعة التي تشكل زمن هذا العصر كاملاً.

القرن العاشر قبل الميلاد

(انتعاش المرتفعات الوسطى)

إذا أخذنا ببعض أوجه نظرية فنكلشتين القائلة بأن المرتفعات الوسطى في فلسطين (إفرايم ومنسي) انتعشت بمستوطنات جديدة مع بداية العصر الحديدي الأول فأننا نضطر لقبول فكرة الأصول الرعوية (وليس الزراعية) لهذه المستوطنات والتي تكمل نظريته، وهو ما تؤيده النقوش المصرية في العصر البرونزي المتأخر حول وجود مجموعات كبيرة غير مستقرة من الرعاة وقطاع الطرق.

أما الأراضي المنخفضة، والتي تأثرت قليلاً بجفاف العصر البرونزي، فقد شهدت استقرار المزارعين ونمو حضارتهم مع مطلع العصر الحديدي الأول.

إن صفة المستوطنات الرعوية للمرتفعات الوسطى والمستوطنات الزراعية للمنخفضات

في بلاد فلسطين هي الأقرب إلى الواقع إذ مازال يفصلنا عن استعمال مصطلح (شبه إثني)، الذي يكرسه طومسون، حوالي قرن كامل.

ولذلك تبدو محاولات ستاغر وليمخي وألستروم وغيرهم لتسمية إثنية مثل (عابيرو) و(شاسو) و(شوتو) وتحديد أماكنهم المستقرة الفلسطينية مغامرة كبيرة وتمهيداً للسقوط في شراك المرويات التوراتية.

لا شئ تمنحه الآثار عن إثنية القرن العاشر الفلسطينية سوى المسحة الكنعانية العامة للبلاد رغم الخصر البلستي في الساحل الجنوبي ذات الطبيعة الإيجية المخلوطة بقوة مع التراث الكنعاني.

وهذا يعني أن وجود (إسرائيل أو يهوذا) في مثل هذا التاريخ المبكر، لا تؤيده المعلومات المتوفرة عن فلسطين في تلك الفترة، إن البيّنات المستخلصة من البيانات الأركيولوجية والكتابية تقدم بكل تأكيد دليلاً ضد أي توكيد لوجود أي بنى سياسية عبر إقليمية في المرتفعات.

ونستبعد تماماً أي معنىً منطقي لوحدة السكان خلال العصر الحديدي الأول أو في بداية العصر الحديدي الثاني قبل بناء السامرة[21].

وتميل آراء الآثاريين الآن إلى ظهور مستوطنات العصر الحديدي الأول كان معاصراً لتدهور ثقافة العصر البرونزي الأخير، أي أنها ظهرت بعد منتصف القرن الثاني عشر مرتبطة مع سكنى القرى الجديدة كما يرى ذلك براندفون F. R. Brandfon ويكمن مفتاح فهمنا لنهاية العصر البرونزي في إدراكنا لقاعدته الزراعية التي دمرها الجفاف، كذلك يكمن فهمنا لبداية العصر الحديدي (ولو في ثنايا البرونزي) لاستبدال الزراعة المستقرة في الوديان بالضغط على حدود الأراضي الهامشية والاعتماد على الزراعة الموسمية وتربية الحيوان ورعي الأغنام والماعز والصيد الساحلي.

أما التجارة فقد كان دورها ضئيلاً في العصرين البرونزي والحديدي الأول، وربما كانت أهميتها تبرز مع ظهور المدن الكبيرة والدول الإقليمية منذ القرن التاسع قبل الميلاد.

وهكذا علينا أن نقرر على ضوء الحقائق الآثارية والقناعات العلمية أن لا وجود لإسرائيل والسامرة ودولة يهوذا في القرن العاشر قبل الميلاد، ونعترف فقط بوجود أورشليم كمدينة يبوسية كنعانية ناشطة. وهو ما تؤيده كل الحفريات الآثارية "وإنه لمن المؤكد هو أن مسح أنماط الاستيطان في العصر الحديدي الأول لا تقدم وصفاً تاريخياً لإسرائيل، ولا حتى في السامرة

في المرتفعات الوسطى، فموجة الاستيطان الجديد لم تصل ذروتها حتى مضى وقت من العصر الحديدي الثاني، عندها يصبح من الصعب فهم أصول إسرائيل في ضوء جدة الاستيطان فقط"[22].

والآن كيف يمكن التعامل مع ما يسمى بـ(المملكة الموحدة) وما قبلها بقليل؟

وبشكل أدق كيف يمكن فهم الرواية التوراتية حول شاؤل وداود وسليمان؟

نرى أولاً أن القرن العاشر قبل الميلاد لم يشهد تأسيس دولتي إسرائيل ويهوذا مطلقاً اللتين نشأتا فيما بعد، لفترة عابرة ووجيزة، دون أن تكون بينهما علاقة سياسية ودينية واجتماعية. وإن ما وجد في القرن العاشر لا يتعدى وجود أورشليم كمدينة (وليس دولة مدينة) مستمرةً من القرون السابقة، ونرى أن كتبة التوراة اصطنعوا مملكة موحدة مكونة من إسرائيل ويهوذا وصنعوا لها أبطالاً بمسحة أسطورية مثل داود وسليمان اللذين لا تؤيد وجودهما أية إشارة حفرية ولو عابرة، ولذلك فإننا نرى أن وهم صناعة المملكة الموحدة وأبطالها لا يعدو أن يكون جزءاً من الأدب التوراتي وليس من حقائق التاريخ الآثاري.

أما الأوهام التوراتية التي زاد عليها المؤرخون المعاصرون ونفخوا فيها أكثر فلا تعدو أن تكون تدخلاً دينياً أديولوجياً في علم التاريخ إذ نذكر، على سبيل المثال لا الحصر، آراء برايت التي توصل فيها إلى جعل داود سيداً على إمبراطورية معتبرة. هاهنا (إمبراطورية) تضم عمّون وسورية في الشمال وآدوم ومؤاب في الشرق، وتجعل برايت قادراً على الاستنتاج بأنه (بفجائية درامية استطاعت فتوحات داود أن تحول إسرائيل إلى القوة الأولى في فلسطين وسورية وتمتد من خليج العقبة إلى البحر الأبيض المتوسط ومن وادي العريش جنوباً إلى سلسلة جبال لبنان وقادش الواقعة على نهر العاصي شمالاً.

وفي نهاية الأمر وحسب رواية برايت تدبر داود أن يرث (الإمبراطورية الدوادية) والتي ترسخت بنجاح نسبي من قبل سليمان[23].

ويرى وايتلام أن ما قام برايت بتركيبه هو نظرة مستلهمة من الكتاب عن (إسرائيل الكبرى) والتي تتوافق مع وجهات نظر وتطلعات العديد من زعماء إسرائيل، وتساعد على دعمها. وقد عبر بن غوريون عن الرأي القائل: إن حدود إسرائيل يجب أن تضمّ جنوب لبنان وجنوب سوريا والأردن وشرق الأردن وسيناء[24].

علينا إذاً التركيز على أورشليم وما حولها في القرن العاشر، فقد شهدت مرتفعات يهوذا تحـولاً مـن اقتـصاد وسكان يعتمدون على الرعي وبداوة السهوب إلى حدٍّ كبير إلى قرىً زراعية تعتمد أساساً على زراعة الأشجار المثمرة وتربية الحيوان. القرنان التاليان (التاسع والثامن قبـل المـيلاد) شـهدا تزايـداً كبـيراً وسريعـاً في الـسكان وحوّلاهـا في النهاية إلى منطقة موحدة بزعامة القدس السياسية والظروف المناخية كانـت ملائمـة لهـذا التحـول. بنـاء القـلاع في صحراء يهوذا وشمال النقب يصعب اعتباره مجـرد اسـتثمار اقتـصادي للأمـاكن المحـددة التـي وجـدت فيهـا هـذه القلاع[25].

مازالت القدس في القرن العاشر مجرد مدينة عادية، لكنها مع تزايد السكان في القرنين اللاحقين حوّلت من ولها من مدن إلى أسواقٍ لها، فالخليل مثلاً الواقعة على حدود السهوب تحولـت إلى سـوقٍ للمـستوطنات الجديـدة والمتصلة بالقدس تجارياً. أما شيفيلية ولخيش وتل خويليفـة فقـد تحكمـت بهـا مراكـز تجاريـة أخـرى تقـع قـرب الساحل مثل عقرون وعسقلان وغزة. لكن هذه التحولات التجارية مازالت بعيدة عن القرن العاشر قبل الميلاد.

لا يمكن الأخذ بالمرويات التوراتية لأنها، ببساطة، مرويات أدبية وفولكلورية لا علاقة لها بالتـاريخ. ولـذلك توجب إهمال كل ما يُذكر عن داود ودخوله إلى القدس وتسميتها بـ(مدينة داود) أو (صهيون) وكـذلك مـا يتعلـق بسليمان وسيرته وبنائه للهيكل.. إلخ. كل هذه المرويـات التوراتيـة الأدبيـة لا يمكـن الأخـذ بهـا في القـرنين العـاشر والتاسع قبل الميلاد.. ولذلك نرى أن ما قامت به كنيون من ربط قسري لآثار القدس في هذه المرحلـة مـع القـصص التوراتي أضرَّ بقيمة جهودها العلمية، إذ ما علاقة علم الآثار بالتسميات القسرية المأخوذة من التوراة والتي قامـت كنيون بإطلاقها على بعض القلاع والجدران والأسوار الصماء التي لا يوجد ما يشير مطلقاً إلى علاقتها بداود وسليمان وخصوصاً في كتابيها: [26]

Jerusalem. Excavating 3000 Years of history Royal Cities of the old Testament

لذلك توجب التعامل بحذر مع كتبها وبحوثها، ورغم إننـا نـرى أن حفرياتهـا وكـشوفاتها كانـت رائـدة في مدينة القدس لكن ما شوّه القيمة العلمية لهذه الحفريات هو تأويلاتها التوراتية.

إن الحفريات الأثرية العديدة في القدس والتي شارك فيها ما لا يقل عن ثلاثين آثاريـاً لم تجد أية معطيات أو معلومات أو مواد تؤكده هذه النصوص التي قرأوها في التوراة، وقد كتـب

الكثيرون منهم أبحاثاً حول هذا الموضوع بأمانة، في حين رمى البقية منهم ما ثبت أمامهم من حقائق ومعلومات منطقية علمية، واعتمد على النصوص التاريخية التي كتبها علماء التلمود، والتي ردّ في جزءٍ منها حكاية إحضار داود للأسباط وتوزيع القدس عليهم بالتساوي[27]. هذه المرويات وغيرها لا تُقدم شيئاً على المستوى العلمي لمعالجة موضوع القدس تاريخياً. تبقى إشارة واحدة تأتينا من الآثار المصرية ومن نص منقوش على بوابة كبيرة تعود إلى عصر الملك المصري شاشنق الأول (950-929)ق. م والتي تذكر أن حملة كبيرة لهذا الملك حصلت في حدود عام931ق. م اقتحمت عدداً كبيراً من المدن الفلسطينية ولكنها لا تذكر القدس ولا يهوذا ولا إسرائيل ولا السامرة "ذلك أنه من بين أكثر من 150 مكاناً ذُكرت لا نلتقي إلاّ بالقليل محفوظاً ليمهد لنا تحديد طرق تدور في النواحي حول المنطقة الجبلية للسامرية دون الوصول إلى مركز المملكة الإسرائيلية بل لا توجد إشارة إلى أنهم اقتربوا من اليهودية (يهوذا) إطلاقاً، ومع ذلك فهناك ما يشير إلى غارة على الإقليم الأدومي"[28].

هذه الملاحظة العلمية الأركيولوجية تفصح لنا عن مدى الخيال التوراتي الذي قام بتلفيق قصة كاملة عن شاشنق وحملته المخصصة على أورشليم ونهب هيكل سليمان (كالعادة!!). وهي تُلغي أيضاً قصة مصاهرة سليمان للفرعون وقصة رحبعام ويربعام المختلقة. وليس أدلّ على التهويل وعدم الدقة أكثر من ذكر الفراعنة دون ذكر أسمائهم باستثناء شاشنق (الذي تسميه التوراة شيشق ملك مصر؟؟)[29]. لقد تأكد حصول الحملة المصرية على فلسطين من خلال العثور على قطعة في مجدو تذكر شاشنق[30].

أما القصة الباذخة ليربعام ورحبعام وهدد فلا يمكن العثور على ما يؤيدها لأنها ببساطة قصة مختلقة. وهكذا يرى طومسون هذا الحادث فلا يهوذا ولا إسرائيل ولا القدس أو أي عاصمة أخرى محتملة في المرتفعات الوسطى تستدعي اهتمام شاشنق في محاولاته لإخضاع فلسطين، سياسياً واقتصادياً، لمصر.

كانت القدس مدينة جبليةً صغيرة في ذلك الوقت، أما وجود يهوذا في مثل هذا التاريخ المبكر فلا يؤيده المعلومات المتوفرة عن فلسطين في تلك الفترة[31].

كلّ هذا الخيال الأدبي الجامح، الذي يهدف إلى رسم صورةٍ زائفة عن أمة كبيرة وعريقة لا وجود لها، ذهب مع الريح ووضعناه في خانة الأدب لا في خانة التاريخ. وما الهدف من وراء قصص شاؤل وداود وسليمان سوى الحديث المثولوجي المعتاد لخلق (عصر بطولةٍ إسرائيلي)

كما هو عند كل الأمم الطالعة الجديدة. لكننا نعرف كم خدمت الآثار مثل هذا العصر عند الكثير من الأمم القديمة إلاّ عند اليهود الذين لم يرقوا إلى مستوى البطولة هذا بسبب ضآلتهم وحجمهم المتواضع في التاريخ القديم ولم يكن هناك سوى الكتابة المنشّطَة بخيال جامح، لكن الكتابة وهي تشحن بالمقدسات تصبح أقوى من الواقع أحياناً وتساهم في بث أساطير قد تخلقُ بالحث والقوة تاريخاً لاحقاً. وهو ما حصل مع التوراة واليهود فيما بعد.

المرجعية الآثارية: الطبقة **14**

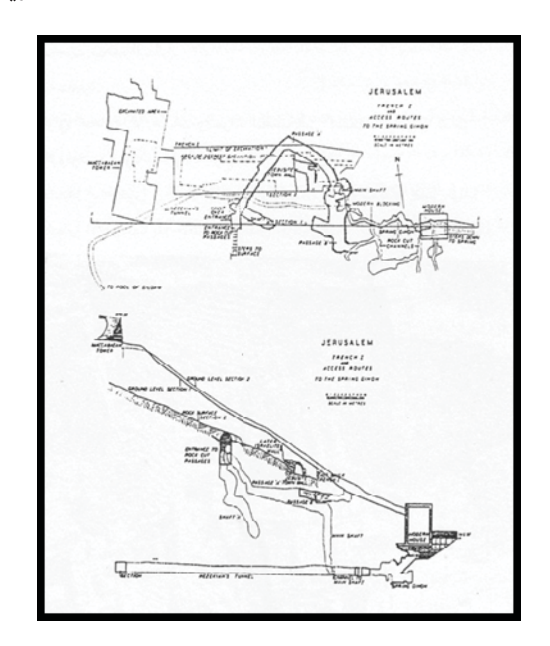
يبدو أن القدس توسعت في القرن العاشر قبل الميلاد وخصوصاً باتجاه الشمال وتضاعفت عندما زحفت المباني نحو جبل موريا. أما أهم الآثار التي عُثر عليها في الطبقة 14 من مدينة القدس فقد شملت مناطقها المعلّمة بالحروف الآتية: E,D,A,G,R,M,H ويمكننا إدراج الآثار الهامة فيها بالنقاط التالية:

1. عرف المهماز Crest of the spure: بقايا جدار اكتشفه ماكلستر وهي نوع من التحصينات الحجرية.
2. مساحات متخذة للسكن.
3. أبنية دفاعية.
4. الأواني الفخارية كالمزهريات والسواند الطقسية التي اكتشفها كل من ماكلستر وكروفوت وكنيون ومازار وشيلوح.
5. الدرج الحجري في المنطقة G وهو بارتفاع 18 متراً وفيه بقايا حصن البلدة الكنعانية الأقدم المعبأ بالأحجار[32]. والذي مازال واضحاً كما في الشكل (22).



شكل (22) القدس: بقايا المنطقة G (الوسط) الدرج الحجري (أنظر غرباً)

وينظر المرجع: Shiloh: P. 703



شكل (23)

الأعلى: مخطط قنوات الماء من عين جيحون إلى داخل المدينة، الأسفل: مقطع للمخطط الأعلى.

الشكل يوضح جميع المراحل التي مرت على تطوير القنوات والأنفاق ومن ضمنها نفق حزقيا في العصر الحديدي.

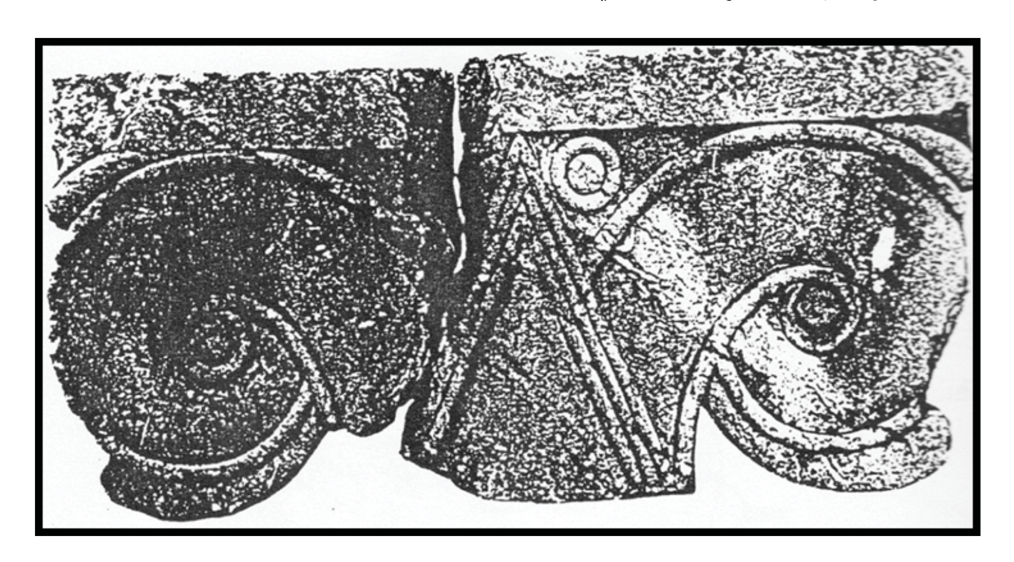
المرجع: Kenyon: Royal Cities of old Testment 1971. P. 24

6. شبكة المياه السرّية من عين جيحون إلى داخل المدينة كما في الشكل (23)[33].

7. المنحدر الشرقي الصخري الذي اعتبره ماكلستر كتحصينات دفاعية.

8. قبل بناء البرج في القرن السابع والسادس قبل الميلاد كانت منطقته جزءاً من تحصينات ما يسمى بـ (الجدار الأول للقدس).

9. الحجر المربع Ashlar Stone مع رأس العمود الأيولي البدائي (شكل 24) Proto-Aeolic Capital. وترى كنيون أن هذه المواد المعمارية كانت موجودة في بنايات مهمة في العصر الحديدي الثاني في مدن قياسية أخرى مثل السامرة ومجدو وحاصور ورامات راحيل.



شكل (24) العمود الأيولي البدائي ويسمى أيضاً العمود الإيوني البدائي

المرجع: Kenyon: Jerusalem 1967: 46

10. ختم صخري يحمل صورة لحيوان الغرفين (حيوان خرافي نصفه نسر ونصفه الآخر أسد) ويرى شيلوح أنه التعبير التوراتي عن المدينة العالية (أكروبوليس) للقدس[34].

وقد عُثر عليه في جبل الأوفل.



شكل (25) جبل الأوفل: ختم صخري يحمل صورة الغرفين. العصر الحديدي الأول.

المرجع: **Shiloh 1993: 703**



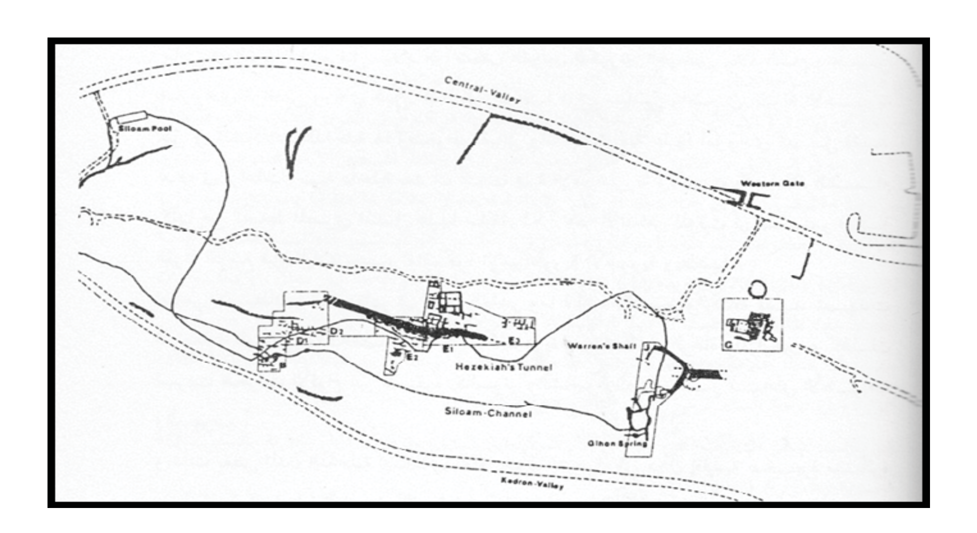
شكل (26) قطعة من ديكور حجري عُثر عليه في المنطقة G من القدس: العصر الحديدي

المرجع: Shiloh 1993: 703

11. ديكورات حجرية عُثر عليها في منطقة G شكل (26)[35].

12. حشوة كبيرة ساندة لإسناد المنازل ترى كنيون وفقاً لخلفية توراتية مقحمة على علم الآثار أنها تشكل ما يسمى بـ(ميلو Millo) المذكورة في التوراة والواقعة بين جبل موريا وقلعة داود. أما مازار فيقترح أن تكون منازل الميلو هي الجدار السميك الذي يصل إلى حوالي1. 4متراً ويشير إلى تركيب ضخم تحطم نهاية العصر الحديدي ويظهر في موقعB.

13. يقرر الآثاريون جميعاً أن ليس هناك أي آثار تتعلق بما يسمى بـ (هيكل سليمان) ويلجأ بعضهم إلى افتراض أن مكانه هنا أو هناك ويستعيرون مخططات معابد كنعانية أخرى في فلسطين أو لبنان للإيحاء بشكله دون جدوى. ولا نريد أن ننجرّ في بحثنا العلمي هذا إلى أوهام ذوي الخلفيات التوراتية المقحمة على علم الآثار.



شكل (27) مخطط لبقايا مدينة القدس في العصر الحديدي الثاني

المرجع: Mare 1997: 64

وهكذا تكون البقايا الآثارية لمدينة القدس في العصر الحديدي الثاني بسيطة متواضعة تشكل امتداداً لمدينة القدس اليبوسية التي عرفناها مع توسع عمراني بسيط نحو الشمال وإتقان هندسي لشبكة المياه المرتبطة بعين جيحون كما في الشكل (27).

القرن التاسع قبل الميلاد (دول المدن الفلسطينية)

أصبحت الظروف مؤاتية أكثر لظهور مدن فلسطينية متميزة شكّل بعضها، فيما بعد دول مدن مستقلة. ولعل السبب الواضح في هذا الانتعاش السياسي المؤقت الذي ظهر بشكل خاص في القرن التاسع قبل الميلاد هو ضعف القوتين الكبيرتين المحيطتين ببلاد الشام ونعني بهما وادي الرافدين ووادي النيل. فقد ظهرت فترة فراغ سياسي واضح في الدولة الآشورية تمثل في المشكلات الداخلية لها وضغوط القبائل والمدن الآرامية عليها أما وادي النيل فقد غرق في نزاعات أسرية داخلية بعد أن انتهت فترة الإمبراطورية وتنفست مدن بلاد الشام كلها من الضغط المصري المتصل عليها سابقاً. لكنّ هذا الانتعاش المؤقت لن يستمر طيلة القرن التاسع قبل الميلاد بسبب تفاقم قوة الإمبراطورية الآشورية وبطشها.

استمر الاستيطان، الذي ظهر في القرن العاشر وما قبله، بالترسخ والكثافة فقد شهدت المرتفعات الوسطى والمنخفضات في كل مكان مزيداً من استقرار الرعاة والمزارعين، كذلك تسربت هجرات الأقوام غير المستقرة كالسوتو والشاسو والعبيرو من مناطق الأطراف والسهوب.

وبدأت بعض المدن الداخلية تستقطب مجالاً حولها لتتحول إلى دول إقليمية صغيرة متأثرة بدول المدن الساحلية الفلستية والفينيقية. وكان الطابع الإثني العام لهذه المدن الداخلية كنعانياً. وكان أن ظهر نوع جديد من السلطة السياسية المركزية. "وقيام كيانات محلية تنافس الدول المدينية خلال العصر الحديدي الثاني. وبالاستناد إلى النصوص الآشورية الأولى المتعلقة بهذه المنطقة، نرى أن توطيد السلطة الآشورية لم يكن موجهاً ضد عواصم شعب فلسطين، بل ضد دول مدينية مستقلة في عسقلان وغزة والعالي" [36].

ويرى طومسون أن كيانات دول المدن الفلسطينية بدأ يتميز باتجاه (شبه كنعاني) إذ لم يعد كنعانياً خالصاً كما كان في البرونزي، فقد كان للتحولات المناخية والاقتصادية والإثنية في فلسطين دوراً في خلق هذه المدن الجديدة.

إن الوحدة الإثنية ليست عاملاً محتملاً في مجال إعادة بناء تاريخ التشكل القديم لأي من هذه الدول، حتى أن تعبير (شبه إثني) هو الأكثر ملاءمة للوحدات السياسية التي نشأت بدءاً من القرن التاسع رداً على توسع الإمبراطورية الآشورية إلى الغرب والجنوب الغربي. [37]

إن ما يهمنا من جميع هذه الكيانات السياسية الجديدة في بلاد فلسطين هو ما يتعلق بالقدس وسنقوم بإيضاحه هنا.

عرفنا أن الإشارة الأركيولوجية العابرة الواردة في لوحة مرنفتاح في القرن الثالث عشر قبل الميلاد حول إسرائيل لا تعدو كونها ذكراً لمدينة عابرة في وسط فلسطين لا نعرف حتى اليوم موقعها الحقيقي، ونرى أنها مدينة أو بلدة كنعانية قديمة لا علاقة لها مطلقاً بـ(إسرائيل) التوارتية، خصوصاً أن كلمة إسرائيل(إسرا+إيل) يمكن أن تفسر كنعانياً على أنها (إشيرا+إيل) أي (عشيرا زوجة إيل) وهى الإلهة الكنعانية الأم وزوجة إيل فعلاً، ويمكن أن تكون هذه المدينة قد سميت باسمها تقديساً لها واحتراماً لعبادتها فيها.

ونرى أن هناك علاقة بين بلدة إسرائيل هذه التي هاجمها مرنفتاح مع قبيلة (شريل shr'l) الواردة في لوحة السامرة من القرن التاسع قبل الميلاد.

إن الملفت للنظر أن الكثير من الوثائق الأركيولوجية تثبّت وجود إسرائيل مقترنة بالسلالة العُمرية (عُمري) فهناك:

1. النصوص الآشورية التي تسميها بيت (حُمري).
2. نص حملة شلمنصر الثالث ومعركة قرقر التي تذكر أحاب ملك إسرائيل.
3. نص مسلة ميشع التي تذكر إحاب ملك إسرائيل.
4. نص ملك أرام دمشق (حزائيل).

ويرى طومسون أن "السلالة العمرية التي حكمت السامرة كانت بالتأكيد تاريخية، ولكن يصعب اعتبار العُمريين خلفاء المملكة الشاؤلية.

الأكيد أنه في بدايات القرن التاسع من بناء السامرة هناك مبرر أركيولوجي كافٍ للحديث عن إسرائيل تاريخية تعرف بدولة إسرائيل قبل تلك الفترة (ولعدم وجود تحقيق تاريخي عن الوراثة السلالية) ويبدو من المشكوك فيه أن يتمكن المرء من الحديث عن إسرائيل بتعابير سياسية"[38].

وهذا يعني أن أسطورة نشوء المملكة الموحدة يجب أن يقع خارج الحقائق التاريخية، حيث ندخل في ظلام الأسئلة ذات الطابع الديني "وأي افتراض بأن (ملكية موحدة)كانت عاملاً في مجال أصول إسرائيل، يجب أن يعتبر بعيد الاحتمال، وربما أفضل للمرء أن ينشغل بتصور (الملكية الموحدة) مع المرويات الأخرى المتعلقة بإسرائيل جامعة (Qol yisrael) أصلية كجهد لاحق بذلته القدس، بعد فترة طويلة لتبنى تقاليد إسرائيل واعتبارها خاصة بها"[39].

إن جمع خيوط النسيج المبعثر للمرحلة التي تبدأ منذ منتصف القرن التاسع قبل الميلاد تضعنا أمام حقيقة مذهلة معاكسة تماماً للتاريخ التوراتي.. وهى ليست فقط عدم وجود هذه المملكة بل أن إسرائيل والسامرة من جهة كانت على نزاع سياسي وديني دائم مع القدس كمدينة ودولة مدينة لاحقاً.. والذي يقرأ السرد التاريخي المضخّم لهما في التوراة يرى بجلاء ذلك الإحتراب المدمر بينهما بل إننا نرى أنهما دولتان عدوتان لبعضهما حاولت الواحدة أن تمحو الأخرى بشتى الطرق ونرى أنه بعد سقوط السامرة وبقاء القدس عمد كتبة التوراة إلى سرقة تاريخ وتراث السامرة وضمه إلى تاريخ القدس وإرجاعهما إلى أصل واحد وهمي ومفترض عبر ما يسمى بالمملكة الموحدة لداود وسليمان.. ونرى أن مثل هذه الخديعة انطلت على أغلب المؤرخين إن لم نقل جميعهم تقريباً.

نرى أن إسرائيل كانت على دين يختلف تماماً عن دين القدس (التـي صـارت تعـرف دولتهـا بدولـة يهـوذا لاحقاً) بل أن الدينين متضادان تماماً، فقد كانت إسرائيل دولة مدينة كنعانية تعبد الإلـه (إيـل) أب الآلهـة والبـشر عند الكنعانيين ومعه زوجة عشيرا (أشيرا أو أسيرا) التي تلمح لها التوراة بـ(الساريات).

أما يهوذا (التي ستظهر بوضوح أكثر في القرن الثامن قبل الميلاد) فقد ظهر فيها قومٌ يعبدون الإلـه (يهـوا) في القدس وغيرها وهو شكل من أشكال الإله (بعل) لكنه غريب عن آلهة الكنعانيين تمامـاً فقـد عـرف الكنعـانيون الإله بعل ولم يعرفوا (يهوا) وهو الإله الذي نرجّح أنـه قـدم مـع بعـض البـدو والرعـاة الـذين قـدموا مـن جنـوب فلسطين وربما من (مدين) تحديداً والإله (يهوا) بمقام إبن الإله (إيل) إذ هو يـوازي (بعـل) الإبـن الحقيقـي للإلـه (إيل). وكانت عبادة الإله بعل وما يناظره بمواجهة إيل تعتبر، أحياناً، عبادةً خارجة عن التقاليد الدينية الكنعانيـة. وهكذا كان الإسرائيليون أو السامريون الكنعانيون يعتبرون عبدة (يهوا) في يهوذا والقدس كفرةً يتوجب محـاربتهم ومقاطعتهم. وهو ما حصل فعلاً بين إسرائيل ويهوذا.

هذا الاختلاف الحاد هو الذي سـبب الإحـتراب إضـافة إلى المـصالح الـسياسية والاقتـصادية المحيطـة لكـلا الكيانين.

لعل من المفيد تحليل الوثيقتين التاريخيتين الهامتين حول إسرائيل في القرن التاسع قبل الميلاد للاطلاع على أهم جارة لمدينة القدس ولفهم الأحداث القادمة بينهما.

1. كانت دولة مدينة إسرائيل موجودة منذ السلالة العُمرية وليس قبل ذلك ويؤيد هذا الاسـتنتاج الـنص الآشـوري القادم من عصر الملك شلمنصر الثالث (859-824)ق. م والذي قام بحملةٍ كبيرة على بـلاد الـشام ووقـف بوجـه التحالف الذي تزعمه آرام دمشق لإيقاف نفوذ الآشوريين الذي بدأ يخيم على بلاد الشام، حيث خـاض معركـة شهيرة اسمها (قرقر) واجه فيها التحالف المكون من (12) دولة مدينة بقيادة (برهدد الثاني) ملـك آرام دمـشق ومعها أربعة دول من فينيقيا ودولة من كيليكية ودول آرامية وقبائل عربية ودولـة مدينـة (إسرائيـل) بقيـادة ملكها (آحاب) ولم تكن نتيجة المعركة حاسمةً. وهـو أول ذكـر صريـح لمملكـة إسرائيـل، ولـنلاحظ أنـه لا ذكـر لمدينة القدس أما لأنها لم تكن بمستوى دولة مدينة آنذاك أو لأنها لم تدخل الحلف لأن إسرائيل دخلتـه. وفـيما يلي ترجمة النص الآشوري الذي يذكر أعضاء هذا التحالف:

1. إرخوليني ملك حماة من 700 عربة 700 فارس 10000 مقاتل.

2. آحاب ملك إسرائيل 2000 عربة 1000 مقاتل.

3. أمير قوية (مملكة صغيرة على شاطئ تركيا بين نهري سيحان وجيحان) 500مقاتل.

4. أمير مصرى (مجهولة المكان)100مقاتل.

5. أمير بلاد أرقاتانة (إلى الشمال الشرقي من طرابلس) 100 عربة 10000مقاتل.

6. ماتينو بعل أمير أرواد 200 مقاتل.

7. أمير أشناتو (إلى الجنوب من جبلة) 200 مقاتل.

8. أدنو بعل أمير سيانو (إلى الشرق من جبلة) 30 عربة 1000 مقاتل.

9. جندب أمير بلاد العرب 1000 هجان.

10. أمير بيت روحبي.

11. باعاسة أمير عمون 1000 مقاتل"[40].

لقد لاقى الجيش الآشوري هذا التحالف في (قرقر) إلى الجنوب من جسر الشفور عام 852 ق. م ولم يهزمهم تماماً، ثم تصدى لهم في الأعوام (849،848،846،845)ق. م وكان التحالف مازال قوياً. ثم استطاع الجيش الآشوري هزيمة التحالف والهجوم على دمشق وفرض الجزية عليها عامي(841-838)ق. م ولم يتمكن الآشوريون من غزو دمشق وإخضاعها إلا في عام (732)ق. م، ونعيد التأكيد على ما ذهبنا إليه وهو أن دولة مدينة إسرائيل لم تكن هنا عبرية الهوية أو توراتية الدين بل كانت دولة مدينة كنعانية لا تختلف مطلقاً عن أي دولة مدينة كنعانية أو فينيقية ذكرت في هذا النص.

أما موضوع علاقة دولة آرام دمشق بدولة إسرائيل فعلينا أن نضعه وفق التصور المعقول والغزوات المتبادلة بين دول مدن بلاد الشام آنذاك وعلينا أن نتجنب الدخول في الوهم التوراتي الذي يذكر أن أحاب ملك إسرائيل قد واجه هجوماً بقيادة برهدد الثاني مع عشرين ملكاً وحاصروا السامرة، وتضيف التوراة أن آحاب كاد يستسلم (امتثالاً لأمر الرب) واعداً إياه بالنصر ثم يذكر السفر كيف أن برهدد رجع مهزوماً وفقد كثيراً من جيشه!! مثل هذه الروايات الدونكيشوتية (واحد وعشرون ملكاً يهاجمون السامرة!!) لا تؤيدها الآثار ولذلك تدخلها أيضاً في خانة الأدب. ومثلها أخبار كثيرة بضمنها ما تذكره

التوراة عن حزائيل (843-802)ق. م الذي تذكر التوراة أنه حارب يورام بن أحاب وأحزيا بن يهورام ملك يهوذا[41].

مثل هذه المبالغات تصلح مادة للروايات الأدبية ولكنها تهتز وتسقط مع صرامة البحث العلمي في الآثار والتاريخ.

2. أما (مسلة ميشع) أو نقش ميشع، فتذكر دون لبس اسم (عُمري) ملك إسرائيل وإبنه الذي لم يذكر اسمه ولعله (آحاب).

تذكر المسلة كيف أن إله مؤاب (كموش) كان غاضباً على مؤاب فسلط ملك إسرائيل (عُمري) ثم إبنه فأذلا مؤاب، ولما أصبح ميشع ملكاً على ذيبان عاصمة مؤاب أمره كموش بمقاومة ملك إسرائيل، فقام ميشع بانتزاع أرض مادبا وبنى للإله كموش معبداً مرتفعاً في (قرحي) وبنى مدينتي ،ن ثم أنتزع أرض عطرت (خربة الطاووس) وأسر الحاكم الإسرائيلي فيها وسحبه أمام الإله كموش.

"أما عُمري ملك إسرائيل، فقد أضطهد مؤاب طويلاً، ذلك لآن كموش أضحى مكروه بأرضه. وخلف عُمري إبنه فقال هو الأخر (سأضطهد مؤاب!) أجل لقد قال شيئاً كهذا الكلام.

ولكن كموش جعلني أراه مهزوماً من أمامي، هو وإلهه، وبادت إسرائيل، بادت إلى الأبد. كما أقام بها الإسرائيليون من بعده مدة تبلغ نصف حكم أبناء عُمري، فجميع ما أقاموه بلغ أربعين سنة"[42].

ويبدو أن ميشع يجلب من خربة طاووس (عطرت) موقد إيل الذي يسميه (إله ملك إسرائيل المحبوب) وفي غزوة ثانية ينتزع منطقة (بنه) ولعلها (نبو) ويقتل سبعة آلاف رجل وامرأة وصبي من الأسرى كأضاحٍ للإلهة عشتر كموش (إلهة مؤاب). وقد نصبت هذه المسلة في ضاحية قرحة في معبد كموش عام 842ق. م. وهذا يعني أنها وضعت بعد حصول معركة قرقر بحوالي(11سنة).

يبدو أن السلالة العُمرية في إسرائيل كانت هي الأكثر استقرار برغم كل الظروف المتوترة حولها إقليمياً ودولياً لكنها استطاعت بدهاءٍ سياسي محكم أن تذلل هذه الظروف. ومع نهاية هذه السلالة يكون عصر الانقلابات والاغتيالات قد بدأ في إسرائيل على يد مجموعة متتالية من المغامرين من طلاب الحكم.

ونرى أن مرتفعات يهوذا تحولت من البداوة الرعوية في العصر البرونزي الأخير إلى مستوطنات زراعية متوسطية مستقرة في العصر الحديدي الأول من خلال عمليات توطين إلزامية ساعد عليها توسع النفوذ السياسي لمدن شمال النقب وشيفيلية والساحل الجنوبي في فلسطين. وقد شهد العصر الحديدي الثاني توسع هذه المستوطنات بعد أن توسعت المرتفعات الوسطى شمالاً عند السامرة. كما شهدت مدينة القدس توسعاً سكانياً ونفوذاً إقليمياً واضحاً. لكن القدس لم تكن يوماً منافسةً لدولة مدينة إسرائيل ولم يبزغ نجم القدس ويهوذا إلاّ بعد تحطم السامرة على يد الآشوريين ولذلك نرجح أن المدينة اليبوسية في القدس استمرت أيضاً في القرن التاسع قبل الميلاد مدينة عادية بسيطة كنعانية الطابع. وهو ما تؤيده الآثار كما سنرى.

كانت التجارة (وليس السياسة) سبب نمو القدس وانتعاشها في القرن التاسع قبل الميلاد إذ أن سيطرتها على السلع التجارية جعلها تنافس أولاً مدن الخليل ولخيش ثم تهيمن عليها. أما السياسة فقد ساهمت لاحقاً في محاولة توسيع أراضيها خارج نطاق وادي عليون وهضبة القدس.

ظهرت عدة دول مدينة في بداية العصر الحديدي الثاني في فلسطين مثل لخيش وجازر والخليل، ولا نعتقد أن القدس كانت في هذه الفترة متميزة عن هذه الدول المدينة. لقد كانت دولة مدينة عادية تماماً، ويرى طومسون أن مدينة القدس لم تسيطر على مرتفعات يهوذا وتتحول إلى مدينة إقليمية ذات سيطرة سياسية واضحة إلاّ بعد أن دمرت مدينة لخيش على يد الآشوريين، وبعد أن شهدت القدس انفجاراً سكانياً متطوراً في بناها وقواها وهذا ما حصل في القرن السابع قبل الميلاد.

كانت القدس، إذاً، طوال العصر البرونزي مركزاً تجارياً وحرفياً مسيطراً على عدد من المدن الصغيرة المستقرة زراعياً في هضبة القدس فقط. وكانت مصالحها المتعلقة بالطرق التجارية في السهل الساحلي قد توجهت غرباً عن طريق وادي عليون، وقد أدت هذا الدور كمدينة تجارية هامة. رغم أن اقتصاد القدس ومنطقتها، الذي تركز منذ أوائل العصر الحديدي الثاني على الزراعة والتجارة، تجاوز اضطرابات وقلاقل القحط وأسهم إسهاماً كاملاً في عودة الرخاء والنمو، فإنها لم تكن قد أصبحت مدينة كبيرة بعد ولا يستطيع أي خيال واسع أن يتصورها أكثر من بلدةٍ[43].

أما المرويات التوراتية حول استمرار السلالة الداودية والأحداث التي مرت بها مع إسرائيل ومع آرام دمشق والمماليك الأردنية القديمة فنتحفظ عليها تاريخياً ونميل إلى جعلها، أيضاً، جزءاً متمماً للإنتاج الملحمي الأدبي ومحاولة خيالية لإظهار القوة والتوسع وغير ذلك.

المرجعية الآثارية

الطبقة (13)

لا تسعفنا آثار القدس للقرن التاسع قبل الميلاد بأي شئ هام سوى النشاطات الواسعة للبناء والعمران وخصوصاً في حكم حزقيا[44]

وهو ما يشير إلى بقائها مدينة يبوسية كنعانية آثارياً. وهو ما يجعلنا نعيد التأكيد على عدم وجود ما يسمى بـ (المملكة الموحدة) لإسرائيل ويهوذا، وعدم تميز القدس كمدينة خارجة عن السياق الكنعاني اليبوسي كأن تكون عبريةً أو يهوديةً أو.. إلخ.

القرن الثامن قبل الميلاد

(نهاية إسرائيل والسامرة على يد الآشوريين)

كانت الحياة تتطور بوتيرة عالية في المرتفعات الوسطى، واحتلت السامرة موقعاً رئيسياً في أحداث القرن الثامن قبل الميلاد السياسية، واندمجت المشارب المختلفة لسكان المرتفعات الوسطى لتكوّن دولة مدنية متميزة ولكن الاضطرابات الداخلية كانت تسودها.

كان ثمة ما يشير إلى المنافسة السياسية بين دمشق وإسرائيل وبين إسرائيل وأورشليم، ولم تنفع كل محاولات الهدنة والتحالفات السابقة لإزالة التوتر.

وفي هذا الوقت كان (تجلات بلاسر الثالث) (745-727 ق. م) أول أباطرة الإمبراطورية الثانية قد حاول تنظيم الإمبراطورية على أساس تقسيمها إلى ولايات إدارية، وكانت هذه السياسة تهدف إلى إخضاع أصقاع الإمبراطورية كلها إلى إدارة ذاتية مرتبطة بالملك الآشوري عبر حكامها المحليين، وبذلك يضمن إخماد الثورات الانفصالية لهذه الولايات، وفي حالة مروق حاكم الولاية فإنه يقوم بخلعه أما إذا ثار الشعب معه فإنه يقوم بإجلاء وتهجير هذا الشعب كله من البلاد ويقوم باستبداله بشعب (أو شعوب) ثائر آخر أو من سكان الإمبراطورية.

هذه هي السياسة الآشورية الجديدة التي ستصبح نهجاً ثابتاً للبابليين والفرس بعدهم وربما لروما في بعض الأحيان.

ويبدو أن تجلات بلاسر الثالث شعر بالغيض من التحالف الذي قام بين مملكتي دمشق وإسرائيل اللتين طلبتا من مملكة يهوذا الدخول في هذا الحلف المضاد للآشوريين، وعندما طلب (آحاز) ملك يهوذا النجدة من تجلات بلاسر هبّ الأخير وقام بحملتين ضد بلاد الشام في (733ق.م) و(732ق.م) أخضع فيها معظم بلاد الشام وقسمها من جديد إلى عدة ولايات هي (دور، مجدّو، قرنايم، حورون، دمشق) وبذلك يكون قد قضى على ذلك التحالف، لكنه أعطى بعض الحرية لمملكتي إسرائيل ويهوذا، أي لم يجعلهما ولايتين تابعتين له بل فرض عليها الجزية فقط.

بعد وفاة تجلات بلاسر الثالث رأت إسرائيل أنها يمكن أن تقيم تحالفاً جديداً مع مصر لكنّ مصر كانت غارقة في صراعاتها الداخلية بين (تف نخت) و(بعنخي)، وحين استقامت الأمور لـ (تف نخت) قليلاً أعطى إشارة لإسرائيل لكي تقوم بالتمرد على آشور.

هكذا توهم (هوشع) ملك إسرائيل، وهو يستند إلى التحريض المصري، بأنه سيواجه المطامع الآشورية ولذلك رفض دفع الجزية لآشور عندما طلب منه الملك شلمنصر الخامس (727-722)ق. م ذلك، فما كان من هذا الملك الآشوري إلاّ وحاصر عاصمتها (السامرة) وأرغم (هوشع) على دفع الجزية. لكنّ الجيش الآشوري لم ينسحب بل واصل حصاره للسامرة.

وعندما تولى سرجون الثاني (721-705) ق. م العرش الآشوري قام بعدة أعمال عسكرية ضد المدن الشمالية ومن ضمنها السامرة وتتلخص هذه الأعمال بما يلي :

1. في السنة الأولى من حكمه (721 ق. م) قام بالهجوم على مدينة السامرة وفتحها وفرض عليها الجزية وهجّر أهلها، فهو يقول في أحد النصوص الملكية:

"في بداية حكمي الملكي حاصرت وفتحت السامرة وقدت من سكانها 27290كغنيمة.. فرضت عليهم جزية.. وقد خرج ضدي (هانّو) ملك غزة وكذلك (سبعي تورتان موصوري) من رفح ليصارعوا في معركة حاسمة فهزمتهم، وأما (سبعي) فهرب خائفاً.. وأما (هانّو) فقد قبضت عليه"[45].

2. في السنة الثانية من حكمه (720ق. م) دمر تحالف السامرة مع مدن أخرى في قرقر وهزمها،

وهذا يعني أنه لم يجعل كل سكان السامرة، بل أنها كانت قادرة على تجهيز جيش والدخول في تحالف جديد ضد آشور قادته حماة :

"وفي العام الثاني من حكمي جاء (إيلو بعيدي) من حماة بجيش كبير عند مدينة قرقار.. مدن أربد وسميرا ودمشق والسامرة ثارت ضدي.. عمل (هانّو) ملك غزة اتفاقاً مع ملك مصر واستدعى هذا (سبعي) قائده ليساعده (هانّو) وخرج سبعي في حملة هزمتها فيها.. وأما سبعي.. هرب وحيداً واختفى وقبضت على (هانّو) وجئت به إلى مدينتي آشور، ودمرت رفح وهدمت أسوارها وحرقتها... حيثي.. قام بمؤامرة ليكون ملكاً على حماة فأغرى مدن أرواد وسميرا ودمشق والسامرة لتتخلى عني وتحالفوا وجمعوا جيشاً وحاصرتهم وجنودهم في قرقار.. هزمتها وأحرقتها"[46].

3. في السنة السابعة من حكمه (714ق. م) جلب سرجون الثاني قبائل عربية وأسكنها مدينة السامرة فهو يقول:

"وفي السنة السابعة قضيت على قبائل تامود وإيباديدي ومرسيمانو وحيابا والعرب... سبيت الأحياء منهم ونقلتهم إلى السامرة "[47].

وهكذا انتهت دولة إسرائيل الشمالية بصورة أكيدة منذ بداية عُمري حتى نهاية هوشع (881-721)ق. م أي حوالي (160) سنة فقط والتي كانت عدواً لدوداً ليهوذا لا بسبب سياسي فقط، بل لسبب ديني حيث اختلفت عقيدتها الدينية الكنعانية الملامح (والتي مركزها عبادة إيل وزوجته إشيرا ومجموعة الآلهة) عن العقيدة الدينية ليهوذا وأورشليم لاحقاً ذات الطبيعة البدوية (والتي مركزها عبادة يهوا وزوجته مع مجموعة من الآلهة).

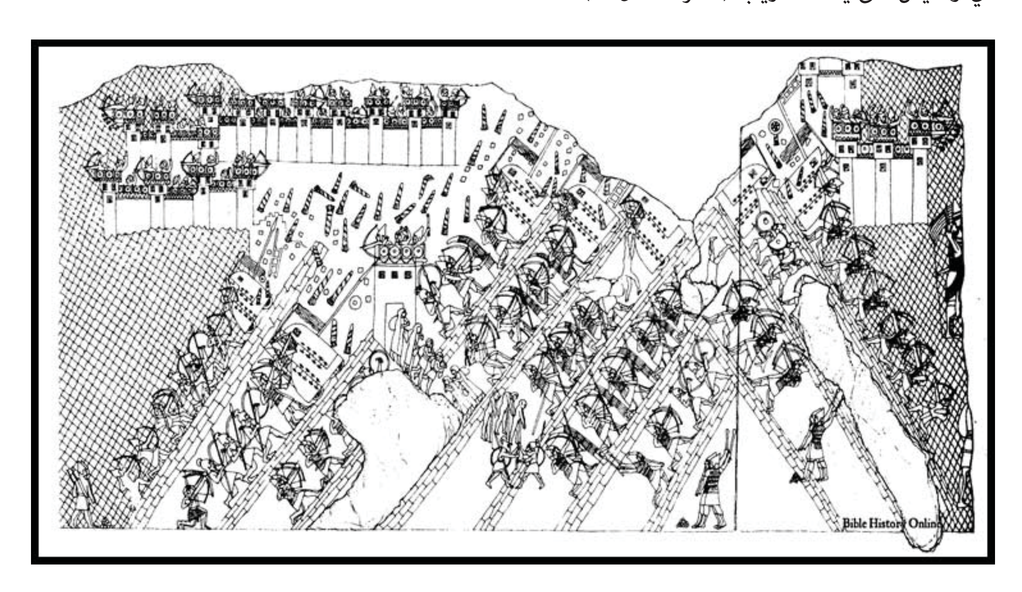
الآشوريون والقدس

استمرت القدس في نموها المطّرد وطموحها التجاري باتجاه جنوب يهوذا ولم يأخذ توسع النفوذ هذا طابعاً سياسياً أو عسكرياً بل كان تجارياً إقليمياً، كذلك فقد توسعت أراضيها الزراعية في وادي عليون وشمال القدس وتزايد إنتاج الزيت والمواشي حتى تحولت القدس إلى بؤرة زراعية تجارية لمنطقة يهوذا "ولم تأخذ القدس ببعض مظاهر الدولة الإقليمية المسيطرة إلاّ في الربع الأخير من القرن الثامن، وخاصة في النصف الثاني من القرن السابع. أخذ حجم مدينة

القدس في خلال العقود الأخيرة من القرن الثامن عندما بدأت السيطرة الآشورية إلى الشمال، وباشرت القدس دوراً ثانوياً على حافة العالم الآشوري.

ولم تأخذ القدس طابع العاصمة الإقليمية وحجمها إلاّ بعد تحرك آشور ضد الجنوب في نهاية القرن الثامن، وتدمير لخيش، وتنظيم الآشوريين للتجارة الساحلية حوّل مركز إنتاج الزيت في عقرون"[48]

كانت مدينة القدس تضمّ خليطاً من المتمدنين من أصحاب الثقافات والمشارب المختلفة والمتعـددة، وكـان فيها الهيكل السياسي الأكبر لإدارة إقليم يهوذا وقد تزايد عدد سكانها بعد سقوط السامرة شـمالاً عـلى يـد سرجـون الثاني ولخيش على يد سنحاريب (انظر الشكل 28).



شكل (28) حصار لخيش من قبل جيش سنحاريب

http://www. bible-history. com/sketches/assyria/siege-lachish-sketch. html

تخطيط عن نحت آشوري بارز محفوظ في المتحف البريطاني. لاحظ السلالم المبنية بمواجهة أسـوار المدينـة والمشاعل التي يرميها المدافعون باتجاه مكائن الحصار حيث يحاول المهاجمون إطفاءها بالمياه.

وهكذا استقبلت القدس صفوة الناس الهاربين من المدينتين (السامرة ولخيش) إليها، أما أصقاع يهوذا الأخرى فكان أغلبهم من الفلاحين والمزارعين الهامشيين والرعاة وهم الأقـل ثقافـة

وتمدناً من النخبة الحاكمة في القدس، كذلك فإن تجانساً طبقياً كان يحوطهم بسبب طبيعة أعمالهـم الزراعيـة مـن جهة وبسبب بعدهم عن مراكز الغزوات الآشورية.

دخلت إلى القدس عبادات جديدة بسبب التأثير الآشوري لعلّ أهمهـا عبـادة الكواكـب (الـشمس، القمـر، الكواكب، النجوم) وكانت متفشية عند الطبقة المتنفذة في القدس.

وبسقوط إسرائيل ودمشق (عدوتا يهوذا) شعرت القدس أن بإمكانها لعـب الـدور الإقليمـي الـذي كانـت تلعبه (إسرائيل)، وهنا نهض الدور السياسي (بعد التجاري) الجديـد للقـدس والـذي نظّـم لـه بـشكل جيـد حـاكم القدس حزقيا (715-687)ق. م. وفي سياق الإعداد للثورة الجديدة أمر حزقيا بحفر القناة الشهيرة التي حوّلـت ميـاه عين (عين جيحون) إلى (بركة سلوان) التي كانت، حينئذٍ، داخـل سـور المدينـة وهكـذا دخلـت القـدس في مقاومـة الحصار الآشوري وكان ذلك بداية عهد جديد ستحصد القدس نتائجـه، بعـد قـرن، عـلى يـد البـابليين بعـد أن كـان أعداؤها قد أعطوها مبرراً كافياً لدرس واضح يكمن في إيقاف الاكتساح الآشوري عن طريق تملقهم وإفراغ شحنتهم المزحومة بالاحتلال والحصار والجزية.

وهكذا استمرت القدس، في النصف الأول من القرن الثامن قبل المـيلاد، بتوطيـد مركزهـا الإقليمـي. لكنهـا برزت قوية كدولة مدينة إقليمية، تجارياً وسياسياً، في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد، وهو ما دفـع الملـك الآشـوري شلمنصر الخامس لمحاصرتها ثلاث سنوات لكنه انشغل عنها بعد ذلك باضطرابات حصلت في بلادة حتى مات، كان ذلك في حدود (725ق. م). واستمر خلفه سرجون الثاني بحصارها واستطاع الجيش الآشـوري أن يهـزم جـيش الملـك المصري (طهارقة) الذي أُرسل لمساعدة القدس لفك الحصار عنها، وكانت هذه الحادثة مدعاة للتفكير الجـدي عنـد الآشوريين بغزو مصر لأنهم كانوا يرون في مصر محرضاً لمدن الشام ضد مصالحهم، ولـذلك تقـدم الجـيش الآشـوري باتجاه مدينة رفح خلف الجيش المصري المهزوم واتجه نحـو الـدلتا حيـث توقـف هنـاك بعـد أن صـمد المـصريون بوجهه وأجبروه على التراجع.

هكذا بدت لنا القدس في نهاية القرن الثامن قبل الميلاد "دولة عازلة بين القـوتين الإمبريـاليتين الرئيـسيتين: مصر إلى الجنوب وآشور إلى الشمال. هـذه التغـيرات والتبـدل الجـذري في الخريطـة الـسياسية في فلـسطين، جلـب بالنسبة للنخبة في القدس، في الأقل، نمـواً ملحوظـاً في الـثروة والهيبـة، مـما شـكل عنـصراً في الـدور العنيـف أحيانـاً والمحفوف بالمخاطر دائماً، والذي لعبته القدس في القرن التالي"[49].

(ظهور دين يهوذا)

الألعاب الخطرة للسياسة والتجارة

انخرطت القدس، تدريجياً، في لعبتين خطرتين: الأولى- سياسية تقضي بمقاومة الآشوريين (بدفع من المصريين)، والثانية-تجارية تقضي بجعل القدس بؤرة مهمة في التجارة الدولية.

كانت السنوات الأخيرة لحاكم القدس (حزقيا) قاسية، فقد عمد الآشوريون لتحطيم المراكز التجارية المغذية لها وأسواقها، وتدمير واسع النطاق للريف المحيط بها والحقول الزراعية التابعة لها ثم الحصار الطويل الذي اضطر (حزقيا) للاستسلام ودفع جزية ضخمةٍ من الذهب والفضة.

قاد الملك الآشوري (سنحاريب) (705-681)ق. م الحصار على القدس، فقد تقدم إلى مجموعة من المدن الشامية المتمردة التي حرضها الفرعون المصري (شبتكو).

وذهب أولاً لغزو المدن الساحلية ثم اتجه إلى القدس التي كان يحكمها (حزقيا)، وكانت مدن أخرى مثل (صور) و(عسقلون) قد مضت في عصيانها وتحدي الجيوش الآشورية.

وفيما يلي ترجمة لحوليات (سنحاريب) التي تشير إلى حربه مع المدن المتمردة وحصاره لأورشليم:

"في حملتي الثالثة انطلقت ضد حاتي ......

أما بالنسبة لحزقيا من يهوذا.. فحاصرتُ مدنه القوية وكذا القلاع والقرى الصغيرة.. وفتحتها بواسطة منحدرات ترابية وكباش، وذلك بالإضافة إلى هجمة المشاة الذين استخدموا المقاليع والمدكّات.. أما هو فقد جعلته سجيناً في أورشليم مقر ملكة كطير في قفص، وحاصرته بأكوام من التراب.. وأما مدنه التي نهبتها فقد نزعتها من بلاده وأعطيتها لـ (متنتي) ملك أشدود و(لبادي) ملك عقرون ولـ (سلّيبيل) ملك غزة. أما حزقيا نفسه فأُرسل إليّ فيما بعد إلى نينوى مدينتي الملكية 30 وزنه من الذهب، 800 وزنه من الفضة وأحجاراً كريمة.. "[50].

ولم يتعظ (منسي) ملك يهوذا (687-642)ق. م فأقفل أبواب أورشليم بوجه (أسرحدون) (680-669)ق. م فما كان من هذا الملك الآشوري القوي إلاّ مهاجمة أورشليم وأخذ (منسي بن حزقيا) أسيراً إلى بابل، وقضى بعض الوقت هناك ثم أطلق الآشوريون سراحه

فعاد إلى القدس وأدركَ أسرحدون أن مصر وملكها (طهارقة) كـان وراء عـصيان القـدس وغيرهـا مثـل صـيدا التـي دمرها، فما كـان منـه إلاّ التوجـه إلى مـصر وملاقـاة جـيش (طهارقـة) شرق الـدلتا فـانهزم الجـيش الآشـوري، لكـنّ أسرحدون لم ينكفئ فقاد جيشه بعد خمس سنوات واستطاع هزيمة جيش طهارقة فيها. وهرب طهارقة جريحـاً إلى جنوب مصر ومنها إلى (كوش) في بلاد السودان الحالية، ثم قام (طهارقة) باسترداد منـف وهـزم الحاميـة الآشـورية فيها فدفع ذلك أسرحدون إلى إرسال حملة تأديبية سار على رأسها لإخضاع مصر ثانيةً لكنه أُصـيب بمـرض مفـاجئ إضطره إلى العودة لآشور حيث مات فيها.

وحين صعد آشور بانيبال (668-626)ق. م إلى عرش الإمبراطورية الآشورية أعاد فتح مصر كلها بعد أن هزم جيوش (طهارقة) في شرق الدلتا ولم تنفع كل محاولات تحريرها أثناء حكم آشور بانيبال.

هذه الأمور جعلت حكّام القدس من (منسي) وحتى (يوشيا) يدركون أن الخضوع لآشور هو أفضل الحلول لها، وبذلك تبددت آمالهم في الاستقلال والتوسع ولم تكـن القـدس، آنـذاك، إلاّ دولـة صـغيرة هامـشية في الأحـداث الكُبرى للشرق الأدنى القديم ومن الخطأ تصور حجمها أكبر من ذلك، خصوصاً أن حكامها جلبوا لها المآسي بتقلباتهم السياسية وولاءاتهم المزدوجة لقوتي آشور ومصر.

ولابد لنا من التنويه بما عرف في زمن الآشوريين من (سياسة التهجير) التي كانت تقوم بها الدولة الآشـورية في أرجاء إمبراطوريتها فقد كانت تقوم بعمليات نقل واسعة لسكان المدن الثائرة والخارجة عن إرادتها فتقوم بنقل سكان السامرة مثلاً إلى مكان آخر وتأتي بسكان مدينة ثائرة أخرى إلى مدينة السامرة لكي تسلب من الناس هويتهم وتجعلهم أسرى البحث عن مأوى ومأكل وحياة آمنة أكثر من بحثهم عن استقلال سياسي.

وكانت سياسة التهجير هذه تساهم في تغيير إثني واضح للمدن المهجّرة وإذا كانت السامرة أو أورشليم قد بدأتا ببلورة شبه إثنية خلال القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد فـأنهما فقـدتا هـذا التبلـور الإثنـي خـلال القـرنين السابع والسادس قبل الميلاد على التوالي. عندما مارس الآشوريون سياسـة التهجـير نحـو الـسامرة ومـارس البـابليون سياسة التهجير نحو أورشليم.

ولم تكــن سياســة التهجــير آشــورية الأصــل بــل ظهــرت منــذ بــدايات الألــف الثــاني قبــل المــيلاد

وكانت إجراءاً شائعات في حروب الشرق الأدنى القديم بين مصر وبابل والعالم الحيثي ثم استمرت مع الفرس بعد انهيار آشور وبابل.

كما أنها لم تكن موجهة نحو السامرة وأورشليم فقط بل كانت تشمل كل أنحاء الإمبراطورية "فقد وصلت كل أرجاء الشرق الأدنى القديم من عيلام والخليج إلى جبال طوروس والساحل الفينيقي، وجنوباً حتى مصر. حتى ولو قصر تصورنا على النصوص التي وجدت، كما فعل أوديد في دراسته، لتوفرت لدينا معرفة واضحة عن 150 حالة نقل سكان في الحقبة الآشورية الجديدة (Neo-Assyrian) فقط. النصوص التوراتية تذكر 36 حالة تهجير. وبالإضافة لذلك الحالات المعروفة في الحقبة الآشورية وعددها 157 حالة، يشير معظمها إلى تهجير من منطقة بكاملها كالنصوص التي تشير إلى أمورو ويهوذا"[51].

إن تأكيدنا على سياسة التهجير الآشورية ثم الكلدانية قد طالت التركيب شبه الإثني الجديد للسامرة وأورشليم (إسرائيل ويهوذا)، وكان هذا التغيير الإثني عاملاً في غاية الأهمية للوقوف بوجه الآراء التوراتية التي تستمر في نسج أسطورتها العرقية والدينية بطريقة متطرفة ومبالغٍ فيها للدرجة التي تضعها خارج التاريخ وخارج المنطق والعقل.

ولنتخيل كيف تم اقتلاع أهل السامرة واستبدالهم بقبائل عربية واقتلاع أهل أورشليم واستبدالهم بالأدوميين من أعدائهم، بل وقبل سبي بابل لأورشليم ما فعله الملك الآشوري سنحاريب عندما أخضع حزقيا وقام بتهجير سكان 46 مدينة وقرية حول أورشليم بلغ عددهم 200150 وتقسيم أراضي يهوذا على ملوك أشدود وعقرون وغزة التابعين لآشور لمساعدتهم في صراعهم ضد القدس[52].

الإصلاح الديني ليوشِيًّا

عندما تملك يوشيّا مُلك يهوذا (640-609)ق. م كانت يهوذا تخضع تماماً لآشور بعد أن انهارت كل آمالها السياسية، وكان يوشيا قد أدرك هذه الحقيقة تماماً لذلك عمد طيلة حكمه إلى تهدئة الأمور السياسية مع آشور وانصرفَ إلى الدين بكل جوارحه.

ومن أجل أن يجمع شعبه حوله ويصرفهم عن الكفاح السياسي ضد آشور أو غيرها كان عليه أن يهيأ لثورة دينية، حيث يصبح الدين عاملاً فاعلاً عند اليأس السياسي. وكان أساس هذه الثورة الدينية يقوم على كتابة كتاب أو سِفرٍ يكون بمثابة القانون الإلهي لإله واحد هو الذي

يرعى شعب يهوذا تنبذ معه آلهة يهوذا الأخرى وآلهة الشعوب الأخرى التي كانت تُعبد في يهوذا وأورشليم لكي يترسّخ من خلالها حكمه وحكم إلهه وقد أطلق على هذا الكتاب اسم (سفر الشريعة) الذي يرى كتبة التوراة أنه (سفر التثنية) الذي كتبه موسى بيده!! ومعروف أن نسبته إلى موسى لاحقه تداركها كتبة التوراة وهم يحاولون ربط أجزاء متفرقة من تاريخ البشرية القديم (ذات الطابع الأسطوري والملحمي) ونسبه لهم أو متصلاً بهم.

وهكذا وضع يوشِيّا عام 636ق. م هذا السفر في مخبأ في (هيكل الرب) وبعد فترة طلب من رئيس مدينته ومن كاتبه أن يرمّموا (هيكل الرب) تحت إشراف كبير الكهنة (حِلقيّا) وإذا بـ (حِلقيّا) يعثر على (سفر الشريعة) ويسلمه إلى رئيس المدينة وكاتب الملك فقاما بدورهما بتسليمه إلى (يوشِيًا) الذي عندما سمع مضمون السفر مزقَ ثيابه وأمر الرجلين بجمع كل شيوخ ورجال وكهنة يهوذا وأورشليم وقرأ عليهم مضمون السفر الذي يتضمن وصايا الرب وتحذيراته.. وهكذا أعلنت ثورة دينية دمّر فيها يوشيّا كل الأوثان الأجنبية والساريات وغيرها وأصبح (يهوا)، لأول مرة في التاريخ، الرب الوحيد لأهل أورشليم وصار ذلك اليوم عيد الفصح لأول مرة أيضاً.

ويكاد يشكل هذا الحادث منعطفاً دينياً جديداً في تاريخ يهوذا والقدس فقد ظهرت لأول مرة ديانة جديدة (يهوذية وليس يهودية) وهي ديانة يهوذا التي انفصلت رسمياً عن الديانات المحيطة بها من كنعانية وفينيقية وأمورية وآرامية.. إلخ. وأصبح ثمة شريعة مدونة وشعائر دينية واضحة. ومنذ ذلك الوقت بدأ يطلق اسم (يهوذي، يهوذيم) وسمي شعب يهوذا (يهوذه). أما اللهجة الكنعانية التي كتب بها سفر الشريعة فأصبح لغة يهوذا (يهوذيت) التي أصبحت نواة اللغة العبرية فيما بعد.

وهكذا نقل (يوشِيّا) هذا الشعب الخليط المتفرق المشارب، عديم الهوية، خليط الأعراق من وضعه الملتبس هذا إلى شعب (شبه إثني) بدأ بتجاوز فروقه القبلية والاجتماعية وأصبح (شعب يهوذا) ذات محور ديني مكتوب ومعلن وكان ذلك حوالي (636)ق. م.

ولولا ما فعله يوشِيّا لتفرق شمل شعب يهوذا هذا أثناء وبعد السبي البابلي الذي سيأتي بعد (38) عاماً من هذا الحادث، إذ أن هذه الثورة الدينية هي التي جعلت هذا الشعب يتمحور حول جوهر ديني مكتوب يصعب تفتيته. وهكذا سيُصبح (سفر الشريعة) جوهر كتاب التوراة الذي سيظهر بعد قرون.

كانت نهاية يوشِيّا غير متوقعة، فبعد ثلاثة عقود من رسالته الدينية الجديدة وابتعاده عن السياسة ظهرت أحداث جديدة جرته إليها فلقي حتفه.

سقطت آشور على يد البابليين (الكلدانيين) والميديين عام 611ق. م واقتسم الحليفان المنتصران إرث الإمبراطورية الآشورية فأصبحت الشام من حصة بابل، وكان (نخو) أو (نخاو) الثاني ملك مصر قد قرر معاونة آشور المتداعية على ضوء اتفاق كان قد وقع بينهما بعد احتلال آشور لمصر، وهكذا جهز جيشاً وتقدم به نحو الفرات. ولما وصل إلى (كركميش) خرج يوشِيًّا بجيشه ليمنع تدخل جيش (نخاو) في مساعدة الآشوريين، فاعترَض الجيش المصري جيش يوشيّا عند (مجدّو) وقتل يوشيّا وأخذ إبنه (يهود آحاز) عام 609ق. م مكانه. ولم تمضِ ثلاثة أشهر حتى تمكن (نخاو الثاني) من أسره وبعث به إلى مصر. وأصبحت القدس واقعة تحت النفوذ المصري هذه المرة وأصبح أخ يهود آحاز المسمى (الياقيم=يهو ياقيم) بن يوشيّا مكانه (609-598)ق. م على أن يقبل الخضوع لمصر ويدفع الجزية.

أما (نخاو) فقد تقابل مع الجيش البابلي بقيادة نبوخذنصّر (ابن الملك البابلي نبوبلاصر) في معركة كبيرة في كركميش، وانتصر البابليون وعاد (نخاو) إلى الدلتا مهزوماً، وتبعه نبوخذنصر حتى وصل إلى الحدود المصرية وكاد يعيد فتح مصر لولا أن وصلت إليه الأخبار من بابل تفيد بموت أبيه فاضطر للعودة كي يخلفه على العرش البابلي لحوالي نصف قرن (605-562)ق. م. وهكذا سقطت تلقائياً كل مدن وأقاليم بلاد الشام تحت السيطرة البابلية وكانت القدس ويهوذا ضمن هذه الأقاليم.

المرجعية الآثارية

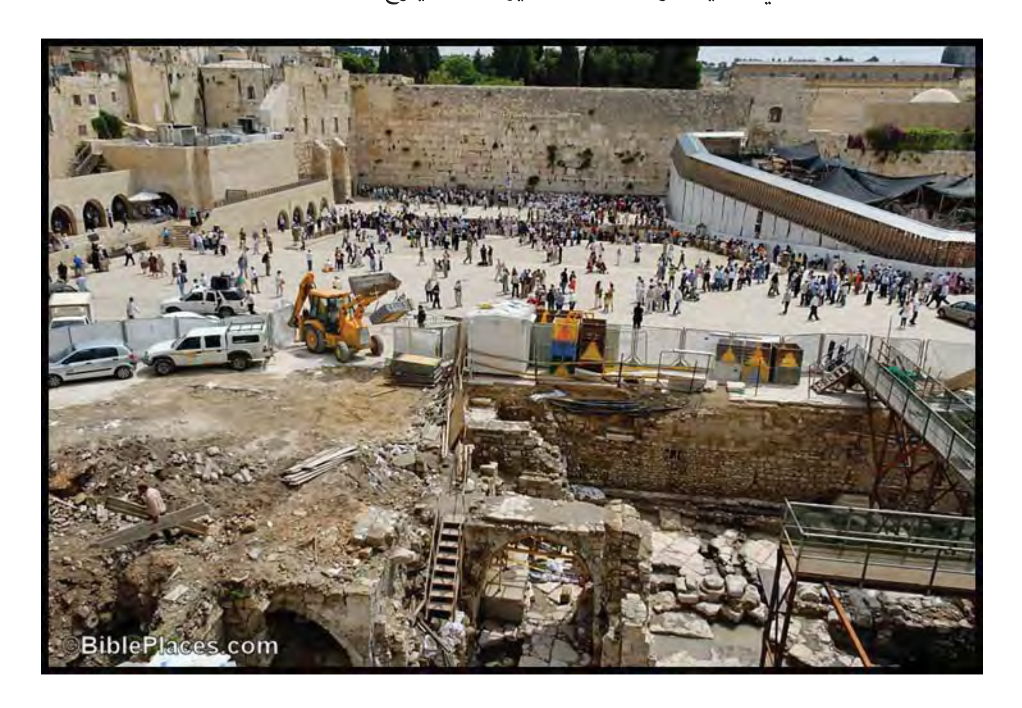
الطبقات 10،11،12

(القرون الثامن والسابع والسادس قبل الميلاد)

(1) الشكل العام لمدينة القدس: توسعت المدينة غرباً، ووصلت المدينة إلى ذروة تطورها في القرن الثامن قبل الميلاد، ومازالت الهوية اليبوسية الكنعانية للمدينة هي طابعها العام رغم وصول أفواج من اللاجئين من السامرة والمناطق المجاورة التي هاجمها الآشوريون في 722ق.م.

وبعد حكم حزقيا ازدادت مساحة المدينة باتجاه المرتفع الغربي، وأعيد بناء التحصينات بحجم أكبر حول الأماكن القديمة والجديدة، وأعيد تقوية شبكة المياه بحفر قناة (حزقيا) لتجهيز المياه (ممر وارن وقناة سليمان).

وقد عثر شيلوح في الطبقات 12-10 من منطقة E,D على بقايا جدار المدينة (شكل29) الذي يظهر منه الآن حوالي 120 متراً على المنحدر الغربي والذي سعته غير منتظمة تتراوح بين (3-5) أمتار وتسمى بالجدار الواسع The Broad wall[53]. الذي تسميه التوراة (مشنا) كما يرى ذلك شيلوح.



شكل (29) موقع الجدار الغربي (الواسع) لمدينة القدس في العصر الحديدي الثاني

المرجع: Kenyon 1971: 32

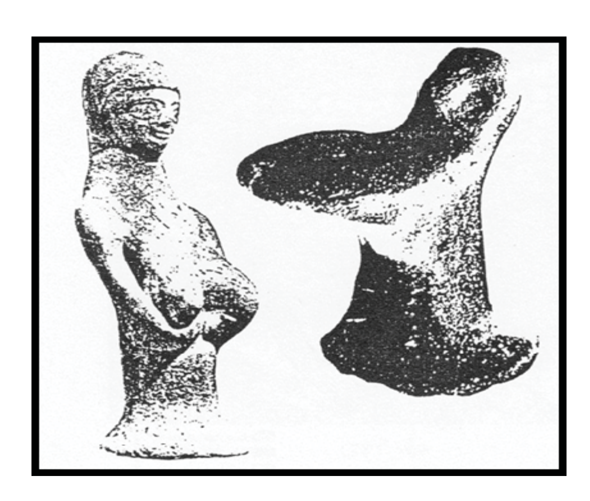
(2) البيت المربع Ashlar house: في المنطقة E_1 وهو بناءٌ يمتاز بسمك جداره وقد بني في زاوية، وقدّر شيلوح زمنه حوالي القرن السابع قبل الميلاد (الطبقة 11). (شكل 30).



شكل (30) بقايا المنطقة E ويتضح سور القدس الغربي والبيت المربع

وانظر المرجع: Shiloh 1993: 705

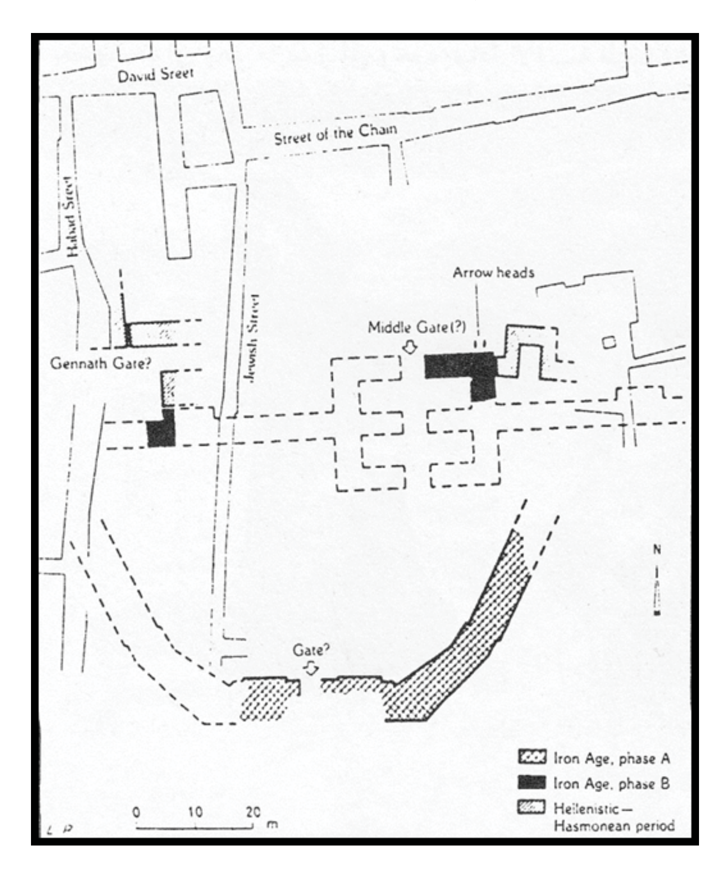
(3) الحي الذي سُمي فيما بعد بـ (الحي اليهودي) والذي وجدت فيه بقايا جدران وأرضيات وفخار يعود للعصر الحديدي الثاني. وقد عُثر في بعض بيوت هذا الحي على تماثيل لآلهة الخصب بعضها حيواني وهو ما يشير إلى وجود عبادة الآلهة المتعددة ذات الأصل الكنعاني (شكل 31) وهناك أيضاً طبعات وأختام شخصية وأشياء أخرى.



شكل (31) تماثيل آلهة خصب بشرية وحيوانية الحي اليهودي (القرن الثامن قبل الميلاد)

المرجع: Shiloh 1993: 706

وهناك في (الحي اليهودي) بقايا الجدران والأرضيات على شكل صخور مدورة وفخاريات، وأغلب البيوت القديمة زالت بسبب بناء بيوت جديدة أنظر مخطط الحي والذي اطلق عليه لاحقاً اسم الحي اليهودي (شكل 32 الذي يظهر فيه واضحاً البوابة الوسطى Middle Gate وهو من مخلّفات العصر الحديدي، وهناك بوابة جينّاث Gennath Gate من مخلفات العصر الحاشموني[54].



شكل (32) مخطط ما عرف باسم (الحي اليهودي) في العصر الحديدي والهيلنستي والحاشموني.

المرجع: Shiloh 1993: 706

(4) قاعدة برج تعود للعصر الحديدي الثاني وترتبط من الأسفل يساراً بالبرج الحاشموني الذي بُني لاحقاً. أنظر الشكل (33)



شكل (33) برج من نهاية العصر الحديدي الثاني في القدس ضمن الحي اليهودي.

حيث يتصل يساراً بالبرج الحاشموني.

http://www. biblewalks. com/Sites/MountZion. html

وينظر المرجع: Shiloh 1993: 706

(5) المقابر: اكتشفت مقابر كثيرة في القدس من هذه الفترة وخصوصاً منذ القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، وقد بُنيت خارج التحصين الذي يحيط بالمدينة وأهم من اكتشف هذه المقابر هم (كلونر ومازار وباركلي).

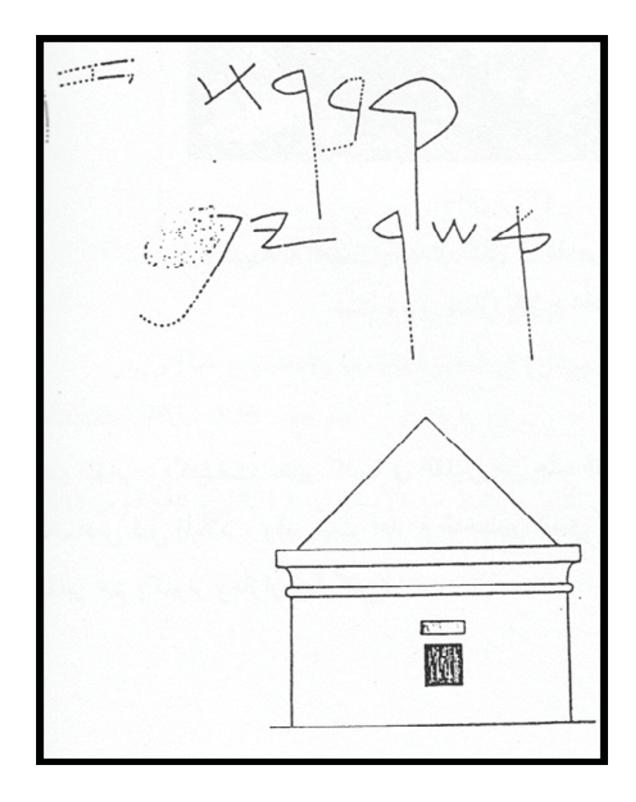
فقد اكتشف (كلونر) شمال ما يسمى بـ (بوابة دمشق) مقبرة من هذه الفترة في الحافة الشرقية لوادي هنوم، أما (باركلي) فقد اكتشف قبوراً مشابهة على مرتفع الكنيسة الاسكتلندية شمال غرب الوادي، أما (مازار) فاكتشف مقبرة غرب جبل موريا لم تستعمل في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد وهذه المنطقة كانت ضمن الجدران.

ويمكننا إجمالاً التعرف على هذه القبور كما يلي:

(أ) ثلاثة قبور محفورة في الصخور طولها 16 متراً وعرضها 2.5 متراً وارتفاعها 4 أمتار من الأمام وأحياناً 1.8 متراً. وأرجعها ويل (R. Weill) إلى ملوك يهوذا[55].

(ب) مقابر مدينة سلوان (سلوام) وأهمها قبر سمي بـ (قبر بنت الفرعون) وهو موجود

على الحافة الصخرية عند النهاية الـشمالية للقريـة وشـكلها تقريبـاً مكعـب (5×5.8×4) مـتراً. ويظهـر في أعلاها كورنيش مصري محاط بهرم صغير لم يتبقَ منه شيئاً. وتبدو الأشكال وكأنها كنيـسة مـصرية صـغيرة. وفي داخل هذا القبر ممر صغير وغرفة مفردة ويقطع الممر من الاعلى كتابة (عبرية؟) لم يبق فيهـا إلاّ آخـر حرفين. وهناك مقابر أخرى تشبهها (شكل 34).



شكل (34)

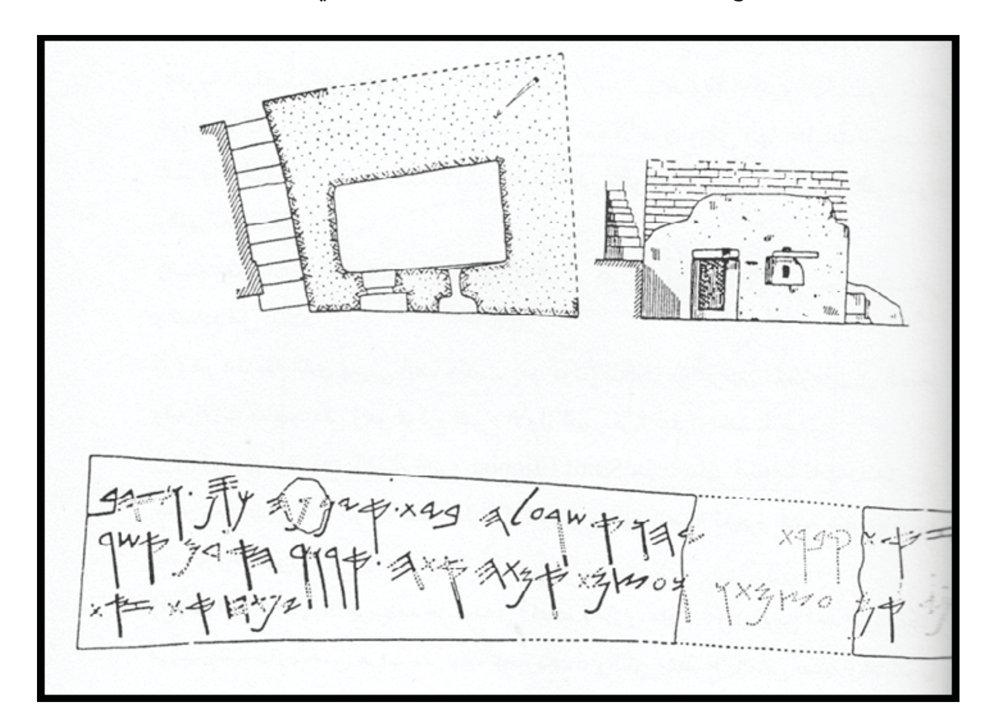
أ. بقايا كتابة أعلى ممر قبر بنت الفرعون.

ب. واجهة قبر بنت الفرعون (معاد التصميم).

المرجع: Geva 1993: 713

وهناك واجهات منقوشة بكتابة (عبرية؟). وهذا القبر هو قـبر الـبلاط الخـارجي واسـمه (قهرمان البيت) وخادمه (أماه) والنقش يتضمن تحذيراً ضد أي شخص يحاول فتح القبر ويرجع

تاريخه إلى بداية القرن السابع قبل الميلاد. وقد وجدت قطعة أخرى مشابهة في قبر مجاور. (شكل35).



شكل (35)

أ. القهرمان الملكي (قهرمان البيت) المسقط والواجهة.

ب. نقش الواجهة.

المرجع: Geva 1993: 713.

(ج) عثر مازار في المنحدر الشرقي من المرتفع الجنوبي الغربي مقابل جبل موريا على قبور صخرية مقطوعة في الصخر تحتوي على مواد من القرون الثامن والسابع قبل الميلاد.

(د) عثر على (15) متراً كان تصميمها فريداً تتكون أحد مجموعاتها من غرفة مفردة طويلة جملونية السقف وتحتوي على حجر وسادة لسند الرأس، والمجموعة الأخرى تتكون من غرفتين أو ثلاثة مقطوعة بالصخر ومنظمة واحدة بعد الأخرى وليس فيها محتويات، وهناك مجموعة تتكون من أنصاب فوق الأرض وغرف دفن منقوشة مثل قبر بنت الفرعون والقهرمان الملكي [56].

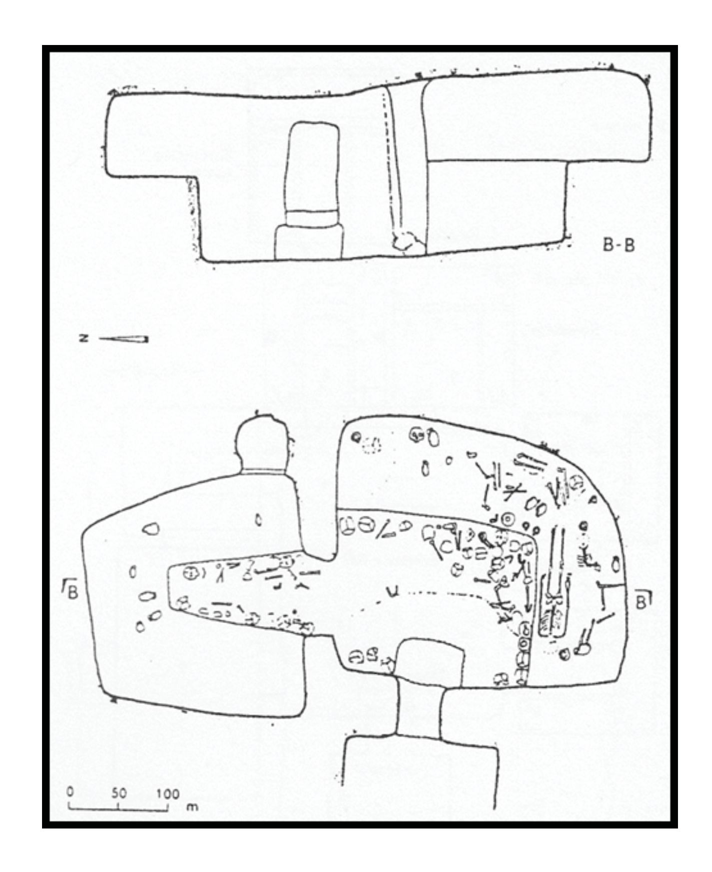
(هـ) مقبرة المدينة القديمة التي عثر عليها باركلي وكلونر وتؤرخ لحوالي القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد [57].

(و) قبر الحديقة الذي يسمى أيضاً (كعب حوردون) المكون من غرفتين مقطوعتين في الصخر وفيه ثلاث مناضد دفن وهو نموذج النوع الأول لقبور قرية سلون الخمسة عشر.

(ز). قبور في أرض دير القديس إتيني Saint Etienne حيث يظهر أحدهما ذات مدخل مع جوفين مدخليين ذات أبواب تشبه الطراز الآشوري وتظهر زخرفة لشعور تشبه شعر الإلهة المصرية (حاتحور) [58]

(ح). في شارع سليمان قرب مدخل دمشق اكتشف مازار عام 1937 قبرين أحدهما بشكل غريب ذات فناء وخمس غرف دفن وفيه فخاريات، والثاني مقطوع بالفأس بعناية ويحتوي على مناضد دفن مع حافات مرتفعة ومساند رؤوس تشبه حدوة الحصان.

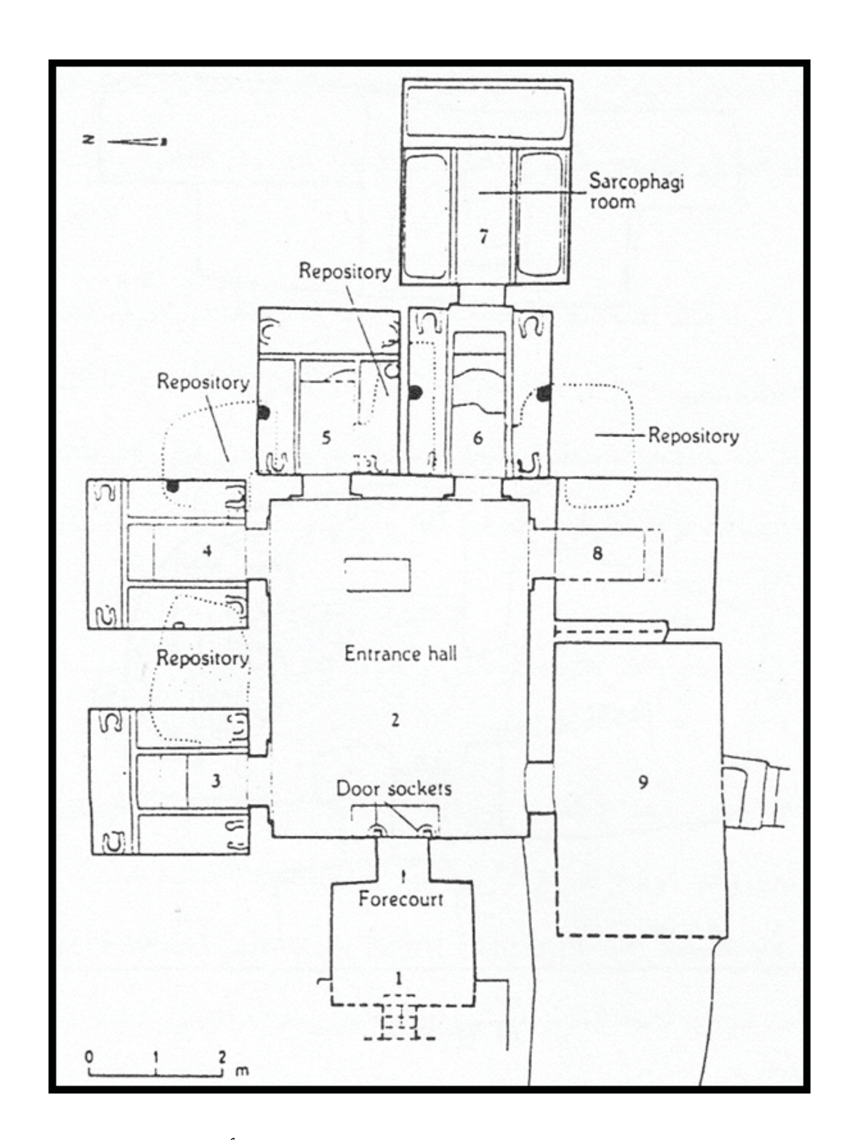
(ك). في وادي هنوم عند القسم الغربي والجنوبي من القدس اكتشف ماكلستر مجموعة من الكهوف أهمها كهف المنحدر الغربي لجبل صهيون وهو عبارة عن غرفتين متلاصقتين مع مناضد حجرية على طول الجدران وتحتوي على هياكل كثيرة ومواد فخارية من القرنين السابع والثامن قبل الميلاد وأختام عظمية سميكة وصاحبة الكهوف هي (حمياهيل بنت مناحيم). وهناك قبورٌ أخرى عند كتف هنوم. وفي جوار المماليك وغيرها. (شكل 36)



شكل (36) مسقط ومقطع في كهف الدفن على المنحدر الغربي في جبل صهيون

المرجع: Geva 1993: 714

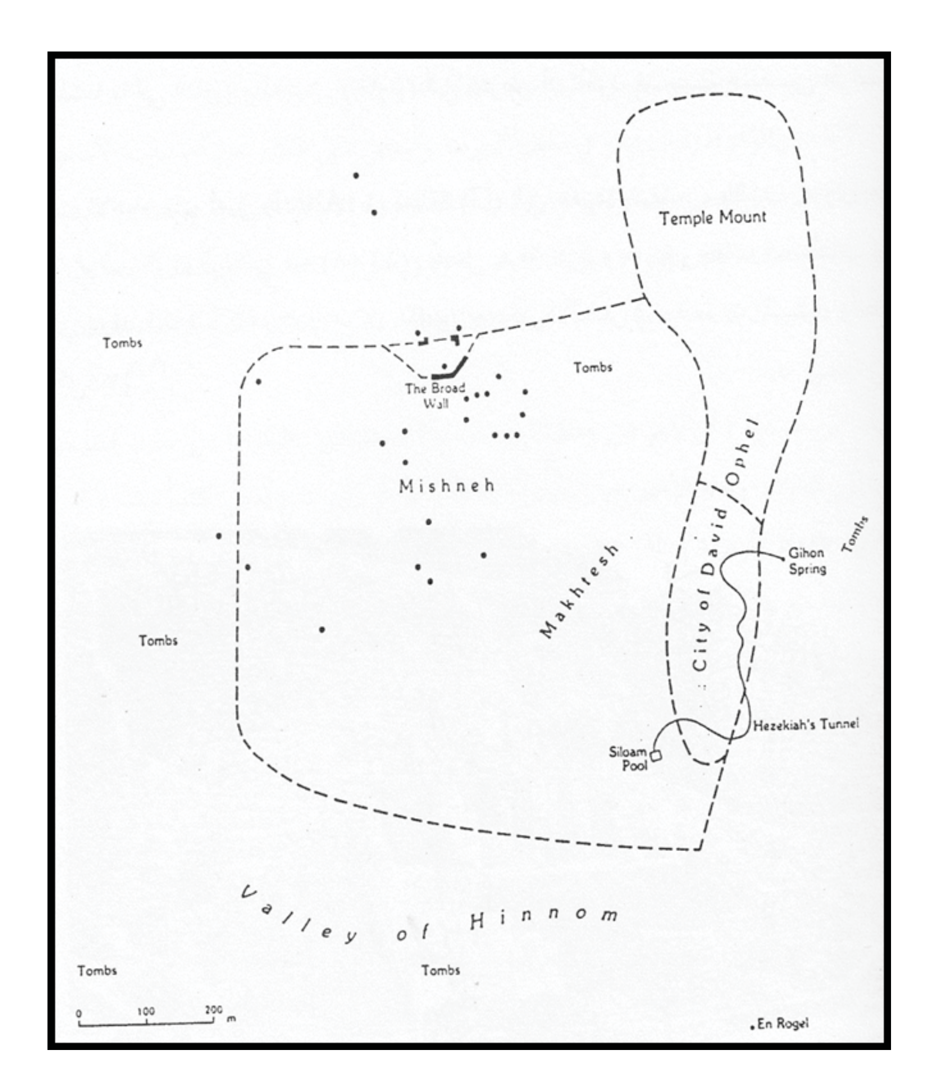
وخلاصة القول أن المدينة في القرن السادس قبل الميلاد امتدت من المكان القديم إلى الوادي الجنوبي وأصبح وادي هنوم يستخدم كمدفن رئيسي للطبقات العادية، أما الطبقة الحاكمة والنبيلة فأصبحت تدفن في منطقة وادي سلوان. وربما كانت المقابر التي عثر عليها في أرض دير القديس إتيني شكل (37) تستخدم لآخر ملوك يهوذا قبل السبي [59].



شكل (37) مسقط دير القديس إتيني. كهف الدفن الأول

المرجع: Geva 1993: 714.

(6) عثر أفيغارد وباركلي وجيفا على جدار العصر الحديدي المتأخر محيطاً بالمرتفع الغربي على طـول خـط (الجـدار الأول) الذي اكتشف (بليس Billiss) استمراريته عند شمال وشمال شرق جبل صهيون. وهو الجدار الذي يحيط النهاية الشمالية لمدينة العصر الحديدي الثاني (خارطة 11).



خارطة (11) القدس في القرن السادس قبل الميلاد (نهاية العصر الحديدي الثاني)

المرجع: Shiloh, 1993: 707

City of David (مدينة داود): اصطلاح توراتي المقصود منه آثارياً مدينة العصر الحديدي الثاني في القرن العـاشر ق.م.

Temple Mount (جبل الهيكل): اصطلاح توراتي المقصود منه آثارياً جبل موريا وهو جبل المسجد الأقصى.

وقد انتشرت الأحياء المسكونة على مساحة واسعة أكثر من 110م[2] وهناك أحياءٌ جديدة مثل المشنا (الحـي الثاني) والمختيش (الهاون) التي يفترض أن تكون قد بنيت على المرتفع الغربي.

ويلفت الانتباه بيت أهيل (Ahiel) في منطقة (G) التي حفرها شيلوح، والبيت يحتوي عـلى أربعـة غـرف. البناء الرئيسي فيه (8×12)م يتصل بغرفة خزن وخدمة وجدت فيه عشرات الأواني. وقد ذكـرت كلمـة أهيـل مـرتين على بعض الآثار في وقرب المنزل (أنظر الشكل38)[(60)].



شكل (38) بقايا المنطقة G في مدينة القدس (الحديدي الثاني) قرب بيت أهيل.

وانظر المرجع Shiloh 1993: 708

ويبدو أن (أهيل) اسم شخص معروف، واحتوى بيته على الأواني الفخاريـة وهنـاك غرفـة محترقـة تحتـوي على آثار حريق وتحطيم منذ 586 ق. م.

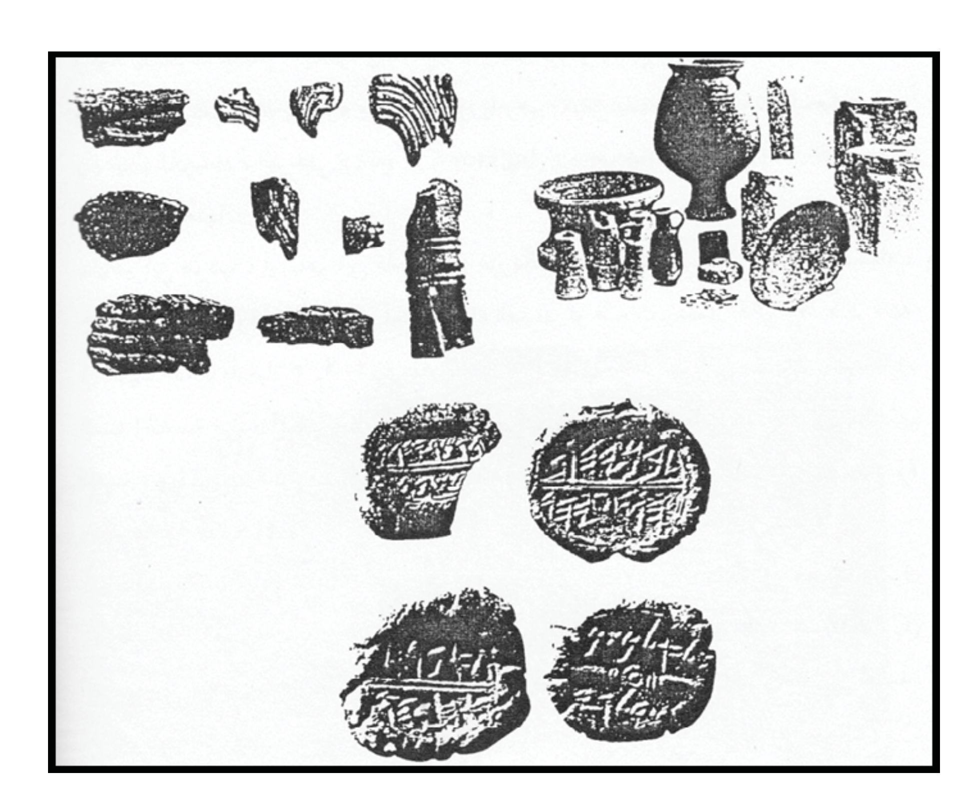
(7) الأثاث والمواد المنزلية: عُثر في بعض البيوت والمقابر على الكثير مـن أخـشاب الأثـاث والمـواد المنــزلية والـدمى الصغيرة والفخاريات والصخور والأواني العظمية والملاعق الحديدية ويبدو أن الخشب كان يستورد من شـمال سوريا وهو مقوس يشبه شكل سعف النخيل.

(أ) بيت الكريات: عُثر على (51) كريّة (bullae).. مع طبعات أختام لأسماء مختلفة من ذلك العصر منها:

بناياهو ابن هوشيا، أزرياهو ابن هلكياهو، عزريكام مشياهو، اليشاما ابن ساما شياه، جمريا بن شافان. وهذا الأخير هو أحد رؤساء العشائر أو البيوت ويعمل كاتباً وقد ذكر اسمه في العهد القديم (أرميا 36: 9-12) فقد كانت له غرفة في بلاط يهوياقيم ملك يهوذا في السنة الخامسة من حكمه أي 604 ق. م. ويبدو أن أختام هذه الطبعات احترقت في تدمير المدينة، ويقع بيت الكريات على الحافة بين المدينة العليا والأوفل وربما كانت أرشيف دائرة حكومية (شكل 39)[61].

أما الكشوفات الحديثة للمدينة فتتركز في جبل الأوفل حيث اكتشف مازار في جنوب شرق الأوفل لفترة العصر الحديدي الثاني (عند ما يعرف خطأً ببيت الميلو) بقايا أحد البنايات (C) المكونة من غرفتين والحاوية على جرار كثيرة للخزن. أما الغرفة (D) فتحتوي على عدة غرف للخزن. وهناك مدخل للماء في جزء من بناء مركب يسمى(البيت الأعلى للملك)[62].

وخلاصة القول أن جدار القدس في نهاية العصر الحديدي الأول كان يحيط بالمرتفع الجنوبي والغربي. واستمر جدار المدينة على القسم الشمالي من المرتفع فوق الوادي المتحول واستمر غرباً إلى القلعة وبوابة يافا الحديثة. وعند هذه النقطة استدار جنوباً واستمر فوق وادي هنوم على طول طريق جدار المدينة القديمة الحالي وإلى وادي صهيون، ثم انحدر على المنحدر الجنوبي للمرتفع باتجاه بداية وادي تريبونيون واستمر شمالاً إلى مدينة العصر الحديدي الثاني[63].



شكل (39) قدس يهوذا في العصر الحديدي الثاني آثار المنطقة G

أ. مختارات من الفخاريات والكريات والمواد الصخرية من (بيت الكريّات)

ب. الخشب المقوس من المنطقة المدمرة (نهاية العصر الحديدي الثاني.

ج. مختارات من طبعات الأختام من (بيت الكريّات).

المرجع Shiloh 1993 708-709

إن آثار العصر الحديدي الثاني بشكل عام تكشف لنا عن مدينة القدس اليبوسية التي طالها عمران جديد وتوسع واضح ولكنها لا تحتوي آثارياً من قريب أو بعيد إلى ما يشير إلى داود أو سليمان أو أولاد سليمان وليس هناك قطعة آثار واحدة تدل على ذلك. أما ما نراه من تسميات (مدينة داود، جبل الهيكل، الميلو.. إلخ) فكلها إسقاطات معاصرة على آثار لا علاقة لها بهذه الأمور. إن كل ما نعرفه آثارياً عن مدينة القدس في العصر الحديدي الثاني هو هذه الآثار المتواضعة جداً التي تمثل مدينة عادية من مدن الشام ثارت عدة مرات على النفوذ الآشوري فحوصرت عدة مرات.. ثم سنرى كيف تدمر من قبل البابليين الكلدانيين لأسباب

سياسية وغير دينية.. أما دين يهوذا فمازال جنيناً صغيراً انفصل عن الديانة الكنعانية اليبوسية التـي كانـت الديانـة العامة للمدن الكنعانية عامة في فلسطين.

القرن السادس قبل الميلاد حتى سقوط بابل السبي البابلي الأول والثاني (تدمير القدس ونهاية يهوذا)

السبي البابلي الأول 596 ق.م

قام ملك يهوذا (يهو ياقيم)، بتحريض من مصر، بالتمرد على حكم نبوخذنصر البابلي الكلداني فما كان من نبوخذنصر الثاني إلاّ أن يجهز حملة لمهاجمة القدس التـي استـسلمت بـسهولة، وأعلـن ملكهـا الـولاء لبابـل ودفـع الجزية.

وعندما تولى يهوياكين (يهوياقين) بن يهوياقيم (الذي ربما كان هو نفـسه يهويـاقيم ولـيس ولـده) الحكـم (596-598) قام هذا الملك بالتمرد على بابل فما كان من نبوخذنصر إلاّ أن يرد بسرعة وحزم على هذا الملك فحـاصر القدس ودخلها وأسر يهوياكين ومعه آلاف الجنـود والغنـائم وأرسـلهم إلى بابـل، وسُـمي هـذا النفـي لأهـل يهـوذا بـ(السبي البابلي الأول) الذي يشير له النص البابلي الآتي:

"العام السابع.. في شهر كسليمو، ملـك أكـد اسـتدعى جيـشه، وسـار ضـد سـورية وهـاجم مدينـة يهـوذا، واستولى على المدينة في اليوم الثاني من شهر آذار وأسر الملك وعين ملكاً آخر اختاره هو، وأخـذ الكثـير مـن الغنـائم وأرسلها إلى بابل"[64].

وحسب العهد القديم فإن أعداد الأسرى الذين رحّلهم نبوخذ نصر الثـاني إلى بابـل تـتراوح مـا بـين (3023-10000) شخص[65].

ويبدو أن هذا السبي الأول لم يستهدف السكان العزّل للقدس بل اسـتهدف "نـزع سـلاح القـدس ويهـوذا وإزالة العسكريين والحدادين الذين يستطيعون صنع السلاح ورجال الإدارة السياسية، بمن فـيهم الملـك وموظفـوه. ومن الطبيعي أن المواد اللازمة للقيام بالحرب أُزيلـت أيـضاً: الخزانـة الملكيـة وكنـوز الهيكـل، ولقـد اتبعـت هـذه المحاولة لإنزال العقوبة، وكذلك لإزالة إمكانية العصيان ومغرياتـه والإجـراءات القياسـية التـي اقتـضاها العـرف في الإمبراطوريات القديمة" [66].

إننا لا نتفق مع الآراء التي تسمي هذا السبي الأول والسبي الثاني سبياً لليهـود بـل هـو سبيٌ لأهل يهوذا وتحديداً لأهل أورشليم الذين مازالوا في أول خطواتهم لتكوين دين خاص بهم

أسميناه (دين يهوذا) أو (الدين اليهوذي) وهو ليس الدين اليهودي بمعناه المعروف إذ أن هـذا الـدين اليهـودي لم يتكون إلاّ بعد السبي الثاني خلال ما يقرب من القرنين من الزمان حتى مجيء الاسكندر المقدوني.

وسنقول ببـساطة ووضـوح أن الـدين اليهـودي تكـوّن في العـصر الحديـدي الثالـث (539-323)ق. م إبـان الهيمنة الفارسية على الشرق الأدنى القديم. أما قبل ذلك بقليل فلم يكن هناك سوى نواة أولية لدين جديـد يمكـن أن نطلق عليه اسم (دين يهوذا) بدأ مع إصلاحات يوشيا كما ذكرنا.

السبي البابلي الثاني (الكبير) 586ق. م

كان نبوخذنصّر قد عيّن بدلاً من يهويـاكين عمَّـهُ صـدقيا بـن يوشـيا (596-586)ق. م، فـيما أُخـذ يهويـاكين (يهوياقين) إلى بابل أسيراً وسجنه هناك. لكن صدقيا هذا لم يكن ملكاً حصيفاً إذ لم يـتّعظ مـما حـصل لأخيـه وابـن أخيه فقد ثار في السنة الثامنة من حكمه على نبوخذنصر الذي جهز جيشاً حـاصر بـه القـدس لمـدة سـنة ونـصف، فقام صدقيا بثقب سور القدس وهرب مـع جيـشه باتجـاه شرق الأردن لكـن جـيش نبوخذنـصّر أسره قـرب أريحـا وتفرق جيشه، فأخذه قائد جيش نبوخذنصّر الذي كان في (ربلة) في حماة ليحكم عليه فأعدمَ أبناءه بحضوره وقلع عينيه وأرسله مقيداً بالسلاسل ليُسجن في بابل.

وهكذا أصبح هناك ملكين سجينين في بابل هما (يهوياكين) من السبي البـابلي الأول وعمّـه (صـدقيا) مـن السبي البابلي الثاني.

وكان هذا هو التدمير الأكبر للقدس فقد قرر نبوخذنصّر أن لا يُبقي على هذه المدينة التي أتعبته بثوراتهـا وقلاقلها السياسية، ولم يكن الأمر متعلقاً بأية مسألةٍ دينية "وبعد شهر من سقوط المدينة وصل أحد ضباط الجيش الكبار لإحراق القصر والهيكـل وجميـع البيـوت الكبـيرة في القـدس، وأخـذ الكـاهن الأعـلى والـضباط العـسكريون وخمسة أعضاء في المجلس الملكي وموظفون مختلفون آخرون من ذوي الرتب العالية إلى ربله حيـث أعـدموا، وتـمّ ترحيل باقي السكان" [67].

ويبدو أن أغلب سكان القدس اقتلعوا من أَرضهم وهُجِّروا إلى أرض بابـل حيـث وضـعوا داخـل مـا يـشبه السور قرب بابل.

ولم تكن القدس هي العقبة الكبيرة في طريق نبوخذنصّر لإرجاع الشام إلى حظيرته، فقد تابع مهاجمته للمدن الفينيقية فأدبها جميعاً ما عدا مدينة صور التي قاومت حصاره على مدى ثلاثة عشر عاماً لكنها قبلت في النهاية دفع الجزية واعترفت بالسيادة البابلية.

ويبدو أن نبوخذنصّر كان مقبلاً على إعادة فتح مصر حيث تروي الأخبار حادث اصطدام الجيش البابلي مع الجيش المصري المعزز بالمرتزقة الإغريق في فلسطين في أول أيام حكم أحمس الثاني (أمازيس) (568-525)ق. م واستطاع الجيش البابلي هزيمة الجيش المصري[68]

وتذكر نصوص نبوخذنصر أنه في العام السابع والثلاثين من حكمه (562)ق. م سار نبوخذنصّر على رأس جيشه نحو مصر حيث كان يحكم فيها أمازيس لكن فتح مصر لم يتم فقد مات نبوخذنصّر في نفس هذه السنة.

الأحداث بين **586-539ق. م**

أحداث القدس: جدليا والثورة عليه

نال القدسَ دماراً كبيرً لكن أهلها لم يسبون كلهم، فقد بقي منهم القليل، فقد نصّب البابليون عليهم رجلاً منهم هو (جدليا) ويبدو أن مركز القدس لم يعد صالحاً للسكن، ولذلك اتخذ جدليا مكاناً آخر هو (المصفاة) (الذي يعتقد أنه تل النصبة قرب الجيب) وطمأن سكان القدس وأمرهم بالخضوع التام لملك بابل، وبعد هذا الاستقرار النسبي جاء إلى القدس بقايا جيش يهوذا، الذي تفرق عندما ألقي القبض على صدقيّا، من شرق الأردن.

ولا بد لنا أن نشير بوضوح أن أهل يهوذا والقدس المسبيين والذين كان أغلبهم من أتباع (دين يهوذا) الجديد تركوا فراغاً سكانياً كبيراً في القدس مما حدا بالقبائل الكنعانية والآرامية والأدومية والعربية الاتجاه نحو القدس والسكن فيها وبذلك تغيرت هوية القدس ويهوذا بصورة جدّية هذه المرة ولم يعد هناك ذكر للـ(اليهوذيين) الذين تحدثنا عنهم وسينتج عن هذا الأمر لاحقاً، بعد عودة المسبيين، خليطاً إثنياً من السكان كان (أهل السبي) لا يشكلون فيه إلاّ نسبة معينة.

وبعد مجيء بقايا جيش يهوذا قدم إلى القدس أحد المطالبين بالعرش من العائلة الملكية السابقة وهو (إسماعيل بن نثنيا أليشمع) وهجم مع أصحابه على المصفاة وقتلوا جدليا وبعض

البابليين وسكان القدس وكان هذا العمل بمثابة إعلان ثورة جديدة على بابل ولـذلك فـرّ بعـض شـعب القـدس إلى مصر طلباً للنجاة وخوفاً من انتقام البابليين.

وإذا كانت القدس قد سبيت من طبقتها الملكيـة والدينيـة والعـسكرية والـسياسية العاليـة فـإن الفقـراء و(سكان الأرض) كما تسميهم التوراة ظلوا هناك.

لقد زالت مملكة يهوذا وزالت معها سيادة صهيون الدينية (وهـو مقـر الحكـم) ولكـن أهـل الريـف قـد أفادوا، على الأرجح، من انتقال مركز العاصـمة الـسياسية مـن بلادهـم. فقـد تكـاثر عـددهم وتحركـت باتجـاههم العشائر الأدومية ولعل أفكار هذه العشائر أثـرت تـأثيراً دقيقـاً جـداً في تـشكيل التقاليـد الأدبيـة في فـترة مـا بعـد السبي[69].

كما أن العلاقة بين من تبقى من سكان يهوذا والقدس أصبحت جيدة مع أهل السامرة (وهذا يؤيد وجهة نظرنا حول الإحتراب لا الاتحاد بين يهوذا وإسرائيـل) فقـد كانـت الـسامرة تعـاني قبـل الـسبي، بعـد سـقوط دولـة إسرائيل، من مركزية القدس وتعاليها على أهل السامرة الذين فرّوا من السبي الآشوري وفقدوا آخر فـرص الخـلاص والعودة إلى بلادهم. وأمام غياب المركزية الدينية التي حاولت الطبقـة الدينيـة والملكيـة فرضـها عـلى النـاس في يهـوذا والمشردين من إسرائيل عن طريق ابتكار عقيدة جديدة لعلاقـات جديـدة بـين يهـوذا وإسرائيـل المحطمتـين، بـل ربمـا حلمت السامرة أن تزحف بأفكارها الدينية الكنعانية ورمزها المتمثل بالإله (إيـل) للتـأثير عـلى أهـل القـدس المتبقـين خصوصاً أنه صـار بالإمكان احتضان (يهـوا) وجعله إبناً لـ(إيل)، وما (يهوا) إلاّ شـكلٌ مـن أشـكال (بعـل) الـذي كانـت تتعبده السامرة بصفة ابن إيل. ونرى أن هذا الإجراء كان مدخلاً لعلاقة جديـدة بـين الـسامرة والقـدس، تلـك العلاقـة التي لن تصبح متكافئة بعد أن يعود أهل السبي، بل لتكون الفرصة المناسبة لدمج السامرة في عقائـد يهـوذا والتعامـل مع (إيل) على أنه (يهوا) أي (اللـه هو يهوا) ثم العودة إلى تـصفية تـاريخ إسرائيـل والـسامرة وتخيـل وجـود مملكـة موحدة بينهما سابقاً تمهيداً لدمج عقائدهما وضم إسرائيل المحتربة مع يهوذا إلى تاريخ يهوذا قاعدة الدين الجديد.

وهكذا كان السبي سواء في بابل أو في القدس فرصة عظيمة لتطور نـوعي باتجـاه ظهـور الـدين اليهـودي ودمج عقائد إسرائيل (السامرة) مع عقائد يهوذا نهائياً، وهو الجانب الخفـي الـذي لا يُـرى تحـت أحـداث الـدمار والقتل والسبي الذي قام به نبوخذنصر لبابل.

ولا تعرف أخبار القدس كلما اقتربنا من سقوط بابل عام 539ق. م، ويبدو أن الفوضى دبت فيها وأن بدو الصحراء من النقب وسيناء وآدوم كانوا يتسربون إليها وإلى مدن يهوذا المدمرة بطريقةٍ غير منظمة طيلة ما يقرب من النصف قرن.

كانت هذه النهاية المأساوية التي جرّها حكام القدس على أنفسهم وشعبهم هي المشهد الأخير لها في نهاية العصر الحديدي الثاني، والتي لم تكن لها أية علاقة بالمعتقدات الدينية أو بسبب دين جديد هو (الدين اليهودي) كما تحاول التوراة تصوير ذلك. لقد كان العملاق البابلي آنذاك مشغولاً بسعة إمبراطوريته وتجارتها أكثر من أي شيء آخر.

المنفى البابلي: التدوين الأول للمرويات التوراتية

لم يدرك البابليون (الكلدانيون) أنهم أخفوا في جسدهم، بل في موقع القلب لغماً اسمه (أهل السبي) سينفجر عليهم ذات يوم. كذلك لم يدرك (أهل السبي) أنهم سيحولون هذا المنفى إلى أكبر منعطفٍ في تاريخهم وأن هذا المنعطف هو الذي سيفصل بين شعب يهوذا والشعب اليهودي. وسيتم ذلك عن طريق التدوين.. والتدوين فقط.

لقد وجد (شعب السبي) أن أفضل وسيلة للبقاء هو عبر الكلمة التي تبقى في بطون التاريخ أكثر من بقاء الإنسان أو الأحداث التي يصنعها الإنسان، بل أن بالإمكان تدوين أحداث غير موجودة أو ليست لهم وجعلها جزءاً من تاريخهم إذ من سيقول لهم غير ذلك عندما يبتعد الزمن مئات وآلاف السنوات عن تلك الأحداث أمام ذلك النسيان الكبير الذي يلف أحداث العالم القديم بسبب شحة التدوين واقتصاره على فئات قليلة دون أخرى.

وجد شعب السبي أن بالإمكان الحديث عن تاريخ العالم كله من خلالهم، ولم لا، فهُم فئة قليلة يمكن استنبات جذور وهمية قديمة لهم ويمكن الحديث عن أول إنسان في الوجود (آدم!!) وتتبع ذريته وصولاً لهم حتى تصبح سلالة النسب هذه مرتبطة بهم.. وهو ما لم يفطن له أي شعب قبلهم.

كان ذلك يحتاج إلى نوعٍ من التهذيب والتشذيب وإعادة الصياغة. أما الأحداث التي تخص شعوباً أخرى فيمكن أن تصبح لهم بمجرد كتابتها بلغتهم وربطها بتاريخهم.

كانت اللغة السائدة آنذاك في الإمبراطورية البابلية هي اللغة الآرامية التي لم تكن بعيـدة عـن الكنعانيـة، لكن ميزتها الأساسية المرنة في طريقة كتابتهـا وسـهولة تـداولها ولـذلك دوّن أهـل الـسبي أولى مرويـاتهم الـشعبية باللغة الآرامية، وستصبح هذه المرويات نواة التوراة.

يأخذ التدوين أهميته من خلال جعل هذه المدونات مركزاً روحياً تلتفّ حوله الطائفـة الدينيـة الجديـدة التي بدأت تنتقل من مجتمعٍ قوميّ خليط (يهوذي) إلى مجتمع ديني متماسك (يهودي) لـه مركـز روحـي مـدون. وهو ما لم تستطع أن تدرك أهميته شعوب أُخرى ذهبت مدوناتها أدراج الرياح لأنها لم تبتكر فكرة (المركز الروحيّ المدوّن) أي فكرة أن يكون لها (كتاب مقدّس). وإذا كانت الأساطير قد لعبت مثل هـذا الـدور سـابقاً فـإن الكتـاب المقدس سيتجاوز الأساطير القديمة وسيلعب الدور الجديد الذي قام به اليهود أولاً مـع تغـيرات نوعيـة في العقيـدة الدينية لعلّ أهمها الانتقال من التفريد Henothesim إلى التوحيد Monothesim، ورغم أن هذا التوحيد ظل مـشوباً عند أهل السبي ثم اليهود لكنه اجتهدَ وسعى لأن يكون يهوا (إله يهوذا) هو الرب أو الإله الوحيد لليهود..

ولم يكن بالإمكان اعتباره إله البشرية كلها لأن الأمر مازال متعلقاً بلمٍّ مجموعةٍ من الناس معرضةٍ للفناء.

كان الأمر يتعلق إذاً بصناعة دين جديد توضع في المنفى البابلي خطواته الأولى ثم تكتمل صناعته في زمـن لاحق. وكانت هذه الخطوة رد فعل ذكي على آخر مرحلة من مراحل نهاية شعب يهوذا.

إذاً لا بد أن يتحول شعب يهوذا (الذي فقـد الأرض) إلى شـعب يهـود (الـذي يتعلـق بالـسماء) إذ لم يكـن هناك خيارٌ آخر، ولو أن شعب السبي كان يتوقع عـودةً إلى أرضـه بعـد (45) سـنة (كـما حـصل) لمـا فكّـر بتـدوين مروياته وتراثه على شكل كتاب مقدّس. ومع ذلك كانت فكرة (الأمل) و(الخلاص) تراوده ولـذلك وضـعها في كتابـه هذا على شكل انتظار للمخلص أو للمسيح الذي لا بد أن يكون ملكاً (ممـسوحاً بالزيـت) ولـذلك وجـدوا ضـالتهم بعد موت صدقيّا في الأسر البابلي في يهوياكين الذي أخرجه من السجن الملك البابلي التـالي لنبوخذنـصّر وهـو (أمـل مردوخ) Emil-Merdouk (وتسميه التوراة أويل مردوخ) وكان عمر يهوياكين عندما أخرج من الـسجن كبـيراً، ويبـدو أن أمل مردوخ أكرمه وجعله مستشاراً له وربما قتل الكهنة البابليون أمل مردوخ لهذا السبب.

لكن يهوياكين توفي بعد زمنٍ فوضع الكهنة من أهل السبي أملهم في إبنه (شألتيئيل) الذي عاصر ملوك بابل الآخرين الضعفاء (نرجال شار أوصر ثم لباش مردوخ). وهكذا أصبح شألتيئيل هو المسيح المنتظر وبذلك نشأت سلالة ملكية باطنية جديدة ليهوذا ترفع ملوكها إلى مستوى المسيح المخلص المنتظر. وكان هذا يترافق مع جهد كانت تبذله المؤسسة الدينية لأهل السبي من خلال الاستمرار بظهور من تسميهم بالأنبياء، ومن خلال جهد منظم دقيق كانت تقوم به مؤسسة الكهنة وعلى رأسهم (الصادوقيون) الذين بذلوا جهداً عظيماً في الجمع بين ترشيح الملك المسيح وربطه بالمؤسسة الدينية.

الدور الغامض للملك البابلي نبونائيد

كانت الأحداث تجري متسارعةً في بابل العاصمة أيضاً فقد خلع الكهنة الملك الصبي (لباش مردوخ) الذي حكم تسعة شهور وقرروا هم تولي الحكم من خلال تعيينهم لكاهن ناشط اسمه (نبونائيد أو نبونيد) (556-539)ق. م.

كان نبونائيد مجهول الأب وكانت أمه هي الكاهنة العليا لإله القمر (سين) في حرّان ولذلك نرجّح أن يكون أبوه هو (نبوخذنصّر الثاني) الذي ربما مثل دور الإله مع الكاهنة العليا (التي تقوم بدور الإلهة) في طقوس الزواج المقدس في حرّان.. ربما في عيد رأس السنة الحرّاني.

وكانت حرّان، منذ زمن بعيد جداً، مشهورة بعبادة إله القمر الذي هو إله المدينة الرئيسي وكان فيها معبد الـ(هلهول) المعبد الأكبر لإله القمر. ولعلّ حرّان كانت تابعة دينياً ذات يوم لمدينة أور مركز عبادة إله القمر أيام السومريين.

تركت أم نبونائيد (أدد كبي) في حرّان لوحاً شاهداً على سيرتها أوضحت فيه كيف أنها علّمت إبنها كهانة إله القمر وكيف أن عمرها امتد إلى 104 سنوات وأنها عاصرت آشور بانيبال حتى رأت ابنها ملكاً على بابل، وكيف رمم واعتنى بمعبد الهلهول.

تحيط بشخصية نبونائيد أحداث غامضة، وتحفّ دعوته الدينية أسرارٌ مازال الكشف عنها صعباً ومعقداً، وربما كان الكشف عنها مدعاةً لإعادة النظر كلياً بالديانة اليهودية وأصولها، فعلى الأرجح أن نبونائيد لعب دوراً هاماً في إعادة صياغة ديانة يهوذا وتحويلها إلى الديانة اليهودية.

لقد كان نبونائيد موحداً، وقد أدرك ببصيرته الثاقبة أن مأزق بابل الحقيقي ليس سياسياً، وأن عقيدتها الدينية كانت بحاجةٍ إلى ثورة جذرية لكي تجابه نزعات التفريد اليهوذية (من خلال

يهوا) ونزعات الثنوية الزرادشتية (من خلال إلهي النور أهورمزدا والظلام أهريمان) وكان لا بد من القيام بثورة توحيدية تنطلقُ من أرض بابل.

كان نبونائيد قد تربى في أحضان عقيدة أمه (أدد كبي) النزّاعة نحو التوحيد من خلال تفريدها للإله (سين) واعتباره أعظم الآلهة وأعلاهم. أما هو فقد قرر ،على ما يبدو، الإطاحة نهائياً بجميع آلهة بابل وإعلان الإله سين (إله القمر) إلهاً واحداً للعالم كله.

ورغم أننا لا نملك أدلة كافية ومفصلة عن دعوته هذه، ولكنّ شذرات منها ومن سيرته تدل على هذا. لقد شعر نبونائيد أن الإله مردوخ لم يعد صالحاً لتقديم عقيدة دينية جديدة، ولذلك رفض المشاركة في احتفالات رأس السنة البابلية لعدم إيمانه بمردوخ.

وكان كهنة بابل ينظرون إلى عقيدته وتصرفاته بريبةٍ وخوف، ولذلك دبّروا فاجعة هائلة له ولبابل يوم تآمروا مع كهنة أهل السبي داخل بابل واتصلوا بالفرس، وكان أهل السبي قد سبقوهم إلى ذلك في اتصالات سرّية مع الفرس، للإطاحة بنبونائيد وحكمه والتخلص من الدين الجديد الذي كان يبشر به في حرّان ويثرب وخيبر وتيماء وددان.. إلخ حيث انقطع للعبادة والتبشير في مدن وضواحي جزيرة العرب.

وهكذا أعدّوا هاوية لعقيدة نبونائيذ التوحيدية وقد حسبوا أنها ستكون له فقط ولدعاته، ولكن الهاوية ابتلعت بابل كلها وابتلعت تاريخ وادي الرافدين كله يوم سقطت بابل، ومعها سقطت آخر حضارة كبيرة لوادي الرافدين. وذهبت أوهام كهنة مردوخ سدى إذ أن الفاتح الإخميني كورش ومن تلاه قدّموا، شكلياً، الولاء لمردوخ في بداية احتلالهم، ثم فرضوا عبادة أهورامزدا إله فارس الجديد الذي كان يمضي باتجاه التوحيد.

وهكذا فلتت من بابل أعظم فرصةٍ تاريخية كان يمكن أن تقوم بها وهي فرصة دعوة التوحيد التي تقوم على أسس لاهوتية راسخة. وتلقف هذه الفرصة أنبياء يهوذا وفارس في صيغٍ مربكةٍ للتوحيد، فهي بين أن تكون صيغاً تفريدية أو غارقة في أشباح التعددية القديمة.

لكن نبونائيد، يقيناً، كان قد أثر في صياغة العقيدة الجديدة لشعب السبي الذي كان يفتقر إلى كاهن وملك عظيم مثل نبونائيد وربما كان هذا الرجل المؤسس الحقيقي للعقيدة الجديدة لكنّ أهل السبي وضعوا ثقتهم السياسية بعدوه (كورش) الذي جعلوا منه المسيح المنتظر وهذا ليس غريباً على كتبة التوراة وأهل السبي واليهود لاحقاً.

وإمعاناً في موت بابل وإزاحتها من مركز التاريخ أصبح تشويه تراثها ونصوصها، بل ونهب ما استطاعوا من هذا التراث وطمر بابل وشتمها والدعاء عليها بالفناء (أنظر أسفار العهد القديم) وكلّ ذلك لأن بابل تـشكل ضـميراً خفياً وعقدة ذنب لكل من مسّها أو أخذ منها سطراً أو كلمة.

وسيجود الزمن، ذات يوم، بالعظماء من الآثاريين والباحثين الذين سيكشفون سرّ بابل في أواخر أيامها وسرّ عقيدتها التي اغتيلت في مهدها بعد أن نهبت مادتها وربما ستتوفر فرصة أوسع لنا للحديث عن هذا الموضوع.

من اليهوذية نحو اليهودية

كانت العقيدة الجديدة التي ظهرت في أواخر سـنين مملكـة يهـوذا والتـي يمكـن تـسميتها (اليهوذيـة) أو (اليهوية) قبل السبي تتمثل في العبادة غير المنظمة والمرتبكة للإله (يهوا) الذي نرى أنه كـان إلـه القبائـل البدويـة المتاخمة ليهوذا، قبل انتقاله ليهوذا، وخصوصاً قبيلة مدين. وهو صورة صحراوية من صور بعل. وكانت عبادة هذا الإله التي نمت في أحضان عبادة بعل الحيثية اليبوسية في أورشليم مع تأثيرات صحراوية، في تخوم يهوذا، قد تمثلت في مطابقة بعل مع يهوا أو بالأحرى إحلال يهوا محل بعل ثم افتعال حرب بينهما وتناقض بين طبيعتهما.

وكانت عبادة (يهوا) في بدايتها ضمن صيغة تعددية مع غـيره مـن الآلهـة ثـم أصـبحت، بحكـم تكريـسها المستمر تفريدية، واستمرت على هذا الشكل حتى السبي.

أما في السبي فقد تعرضت عبادة يهوا إلى نقلات منتظمة أدت فيما بعد السبي إلى جعل يهوا إلهـاً واحـداً للعالم مع احتفاظهم بفكرة كونه إلهاً خاصاً بهم عن طريق فكرة (الشعب المختار) أي أنهم شعبه المختار.

ولعلّ أول هذه التحـولات أحـدثها (إرميـا) عنـدما ألغـى ارتبـاط (يهـوا) بمكـان عبادتـه (أورشليم) حيث وجد (أهل السبي) أنفسهم في حيرة من أمرهم إذ كيف تصير لهم فرصة عبادة يهوا وهم في أرض بابل بينما معبده وعبادته في أورشليم ويهوذا فأوضح لهـم إرميـا أن يتعبـدوا يهوا في بابل إذ قال لهم باسم يهوا (اطلبوا سلام المدينة التـي سـبيتكم إليهـا وصـلّوا لأجلهـا إلى الرب لأنه بسلامها يكون لكم سلام) وهذا يعني أنه يمكن عبادة يهوا في أي مكـان، في بابـل وفي

فلسطين على السواء لأنه إله الأرض كلها ولأنه يريد رحمةً لا ذبيحةً.. وهذه الفكرة الجديدة الجوهرية التي طرأت على أهل السبي صارت، فيما بعد، فكرة لكل يهود الشتات في العالم[70].

والحقيقة أن إرميا هو الذي أسس العمق التراجيدي للتيه اليهوذي، وهو الذي، بمراثيه، استطاع جعل اليهود يتفقون على مأساتهم ويعترفون بذنوبهم فقد جاء التصريح بدمار أورشليم على أنه عقابٌ إلهي على أهلها تتقبلُهُ على لسان أرميا مؤسساً أول نواة مأساوية في تاريخ يهوذا، وكانت هذه النواة ضرورية لخلق ديانةٍ جديدة، بل أنها كانت السبب لأن تتحول الديانة من اليهوية (اليهوذية) إلى اليهودية فيما بعد:

"ولماذا يشتكي الإنسان الحي الرجلُ من قصاص خطاياه. لنفحص طُرقنا ونمتحنها ونرجع إلى الرب، لنرفع قلوبنا وأيدينا إلى الله في السماوات. نحنُ أذنبنا وعصينا وأنت لم تغفر. التحفتَ بالغضب وطردتنا. قتلت ولم تشفق. التحفت بالسحاب حتى لا تنفذَ الصلاة.

جعلتنا وسخاً وكرهاً في وسط الشعوب. فتح كل أعدائنا أفواههم علينا. صار علينا خوفٌ ورعبٌ وهلاكٌ وسحقٌ. سكبت عيناي ينابيع ماءٍ على سحق بنت شعبي. عيني تسكب ولا تكفّ بلا انقطاع"[71].

ثم يقول عن أورشليم:

"من أجل خطايا أنبائها وآثام كهنتها السافكين في وسطها دم الصديقين. تاهوا كعمي في الشوارع وتلطخوا بالدم حتى لم يستطع أحدٌ أن يمسَّ ملابسهم. حيدوا نجس ينادون إليهم. حيدُوا حيدوا لا تمَسُّوا. إذا هربوا تاهوا أيضاً. قالوا بين الأمم إنهم لا يعودون يسكنون"[72].

ثم يقول:

"أذكرُ ياربُ ماذا صار لنا. أشرف وانظر إلى عارنا. قد صار ميراثنا للغرباء، بيوتنا للأجانب. صرنا أيتاماً بلا أبٍ. أمهاتنا كأرامل. شربنا ماءَنا بالفضة. حطبنا بالثمن يأتي. على أعناقنا نُضطهد. نتعب ولا راحة لنا"[73].

هذه هي صورة المأساة التي رسمها أولاً إرميا ثم ظلت ترافق اليهود أينما وجدوا، ولعل صورة المأساة هذه هي التي دعت كتبة التوراة في بابل إلى تتبع جذورها في الماضي وربط ما ليس لهم من مآسٍ ودمار الشعوب والأمم القديمة بهم وبتاريخهم من تاريخ التشرد المزعوم مع إبراهيم وأولاده في مصر حتى تاريخ التشرد المزعوم في مصر وسيناء مع موسى حتى مآسيهم مع

شاؤول وداود وسليمان. كل هذا التاريخ التراجيدي الموهوم في الماضي كـان نتـاج حـاضر التراجيـديا الحقيقـي بعـد سقوط أورشليم بيد البابليين وما بعد السبي. وكان هذا الحاضر هو الزمن الذي كتبت فيه بعض أسفار التوراة فلم لا يلفها الحزن الشديد والملاحقة والمآسي خصوصاً أن نبياً صريحاً مثـل إرميـا قـد شـكّل، كتابيـاً، النـواة التراجيديـة للمأساة اليهودية.

أما النبي حزقيال (ثاني أنبياء السبي) فقد ساهم في بناء اللاهوت والطقـوس الجديـدة، إذ كـرّس وحدانيـة (يهوا) واستطاع أن يحوّل يهوا من إلهٍ مُعاقِبٍ مدمرٍ لشعبه إلى إلهٍ غاسلٍ لآثام شعبه عن طريـق التوبـة، فهـو إلـه مطهرٌ ولذلك فإنه سيدبر لهم الخلاص بعد التطهير. ولذلك كـرّس حزقيـال صـورة الانتقـام والنــزعة الحربيـة التـي ستكون لليهود مع الأمم الأخرى كما أنه استمر في فضح صورة أورشليم التي أدت بها آثامها إلى هذا الدرك، وهكذا فإنه يصف أورشليم بالزانية لأنها تركت زوجها أو إلهها يهوا وأشركت مع آلهة آخرين، وهي صورة الديانة اليهوذية قبل السبي:

"وزنيتِ مع بني آشور إذا كنتِ لم تشبعي فزنيتِ بهم ولم تـشبعي أيـضاً. وكـثّرتِ زنـاكِ في أرض كنعـان إلى أرض الكلدانيين وبهذا أيضاً لم تشبعي. ما أمرضَ قلبكِ يقول السيد الرب إذ فعلتِ كل هذا فعل إمرأة زانية سليطة. ببنائكِ. قبتكِ في رأس كل طريق وضعكِ مرتفعتكِ في كل شارع. ولم تكوني كزانيةٍ بل محتقرة الأجـرة. أيتهـا الزوجـة الفاسقة تأخذ أجنبيين مكان زوجها. لكل الزواني يعطون هديةً، أما أنتِ فقد أعطيت كل محبيكِ هداياكِ ورشـيتهم ليأتوكِ من كل جانبٍ للزنا بكِ"[74].

وتسيطر صورة المرأة الزانية على تشبيهات حزقيال بحيث أنها تغطي سِـفرَه كلـه. وتعطينـا هـذه الـصورة انطباعاً واضحاً حول عبادة تعدد الآلهة التي كانت عماد الديانـة اليهوذيـة قبـل الـسبي حيـث كانـت تعبـد آلهـة عديدة منها آلهة الغزاة والجيران مع يهوا.

وأضاف حزقيال لذلك ما يمكن أن تفعله أورشليم وشعبها إذا حاربت تحت راية يهوا المحارب، رب الجنود. كذلك ساهم حزقيال بضبط الطقوس والشعائر الجديدة وتأصيلها خصوصاً شعائر التطهير وأصول التقديس، وهكذا أصبحت الشعائر مقدسة ثابتة لا يجوز التخلي عنها وهو ما جمع أهل السبي حـول نـواة شـعائرية ذوّبـت بيـنهم الفوارق الإثنية وجعلتهم يشعرون أنهم أهل دين مميز عن بقية الشعوب.

هذه الشعائر هي ما أُطلق عليه بـ (الناموس) مثل الختان وقوانين الطعام والإسبات وتحـريم الـزواج مـن غير اليهود. هذه العادات كانت أكبر عونٍ لهم على خلق شعور قوي بقومية أساسها الـدين يتفـرد بهـا اليهـود عـن سائر الأمم[75].

رؤيا حزقيال (أورشليم: من الخراب إلى اليوتوبيا)

يتحدث سفر حزقيال بنشوة فريدة منذ الإصحاح 40 وحتـى الإصـحاح 48 عـن يوتوبيـا أورشـليم متجـاوزاً خرابها في رؤيا حدثت له بعد ربع قرن من السبي ليصف لنا مدينة أورشليم الحلم التي يتمنى أن يراها، ويـسمّيها اسماً يوتوبياً أيضاً هو (يهوه شمَّهْ).

كان لا بد من العبور على أورشليم المخربة لصنع أورشليم الخياليـة حتـى تـصبح جـزءاً مـن أمـل الـشعب المسبيّ. وبذلك يكون حزقيال قد أعطى لأهل السبي فسحة أمل يجتازون بها بؤسهم. وهو ما ساهم أيضاً في صـنع اليهودية كدين ولكن حزقيال لا يذكر أورشليم بالاسم بل يسميها المدينة رغم أنه يقول في بداية كلامه أنها في ارض إسرائيل وليس يهوذا!! وهو أمرٌ مثير للاستغراب والتساؤل.

والرؤيا هي وصفٌ هندسي لما يريد أن تكون عليه المدينة ووصف طقوسها وكهنوتها وشعائرها. والحقيقـة أن هذه الرؤية لمدينة صافية نقية تؤدى فيها كل الـشرائع والمتـسمة، بـين أهـل الـسبي، بنـوع مـن العدالـة وذات الأبواب العديدة.. إلخ.

هذه الرؤيا كانت تشحذ في نفوس أهل السبي الأمل بالعودة، ولذلك كان أول شيء فعلوه بعد العودة هو بناء الهيكل والمدينة.

وتتكامل رؤيا حزقيال مع الرؤيا التي قدمها (سفر إشعيا) وخصوصاً منذ الإصحاح (40)حتى الإصحاح (55) عندما يتحدث كاتب هذه الفقرات عن نهاية عقاب أورشليم وأن جهادها قد كمل وأن إثمها قد عُفي عنه وأنها قد قبلت من يد الرب ضعفين عن كل الخطايا ولا بد من العودة إليها الآن، وأن من سيحقق هذا هـو كـورش: المـسيح المنتظر.

"إنهضي.. إنهضي.. قومي يا أورشليم التي شربت من يد الرب كأس غضبه. ثُفل كأس الترنح شربتِ مصصتِ ليس لها من يقودها من جميع البنين الذين ربّتهم. إثنان هما ملاقياكِ. من يرثي لكِ. الخـراب والانـسحاق والجـوع والسيف. بمن أُعزيكِ. بنوكِ قد أعيوا اضطجعوا في رأس كل زقاق كالوعل في شبكة. الملآنون مـن غـضب الـرب مـن زجرة إلهكِ"[76].

وهكذا هيأ أنبياء السبي والمؤسسة الدينية وما تبقى من البيت المالك جوّاً جديداً خلال ما يقرب من النصف قرن تحول فيه أهل السبي من عبّاد تقليديين ليهوا إلى يهود لهم نواة كتاب مقدس وأنبياء كبار ولهم مسيحٌ محرر هو (كورش) ومسيح منتظر هو (زرُبابل).

وكان أهل السبي يملكون وقت فراغٍ كبير ويعيشون في أمان نسبي ولا يحاربون ولا ينشغلون بالإعداد لحرب، ولذلك تأملوا في تراثهم القديم وبذل كتبتهم جهداً متميزاً في كتابةٍ جديدة لمروياتهم الشعبية القديمة، وصاغوا من جديد سجلات تاريخهم في ضوء تعاليم الأنبياء ونسقوا التقاليد الشرعية والطقسية[77].

إضافة لذلك وجدوا أنفسهم وسط تراث بابلي وسومري شفاهي ومكتوب لا حدود له وكان هذا أيضاً مادة أولية بالإمكان خلطها مع تراثهم الخاص وجعلها مادة لهم.

بداية فكرة الشتات Diaspora

الشتات أو الدياسبورا Diaspora هي فكرة ومرحلة تاريخية في حياة من أصبحوا يسمون يهوداً فيما بعد. ويقيناً أنها تبدأ مع السبي البابلي وليس مع السبي الآشوري، لأن السبي البابلي طال عاصمة يهوذا وأهلها الذين سيشكلون الدين اليهودي فيما بعد، أما السبي الآشوري فقد طال مدينة أخرى هي السامرة التي لا علاقة لها بيهوذا بل هي عدوتها اللدود.

فالشتات هي الفترة التي بدأت مع السبي البابلي الثاني (الأكبر) لسكان يهوذا وكان لهذه الفترة جوانب مهمة في تكوين مجتمع السبي لاحقاً. فمن الجوانب الدينية أنها كانت بداية تدوين التراث الديني السابق (المرويات التوراتية) وظهور الأنبياء الذين بنوا الأسس الأولى للدين اليهودي ومن هؤلاء عزرا ونحميا وحجي وزكريا وحزقيال. أما الجوانب السياسية للشتات فقد ظهر ملوك باطنيون لمجتمع السبي ثم مجتمع يهوذا الجديد بعد السبي ابتداءً من زرُبابل الذي اعتبروه المسيح المنتظر وسلالته حتى نصل إلى يسوع الذي أعلن نفسه مسيحاً بعد (14) جيلاً أي (ملكاً لليهود). ومن الجوانب الاجتماعية للشتات ظهور ما سمي فيما بعد بالـ (غوييم Goyim)وهو عزل اليهود لأنفسهم وعدم الاختلاط مع المجتمعات الأخرى والنظر إلى هذه المجتمعات بشكل سلبي. وتسمى هذه المجتمعات بالكفار أو الأميين (غوييم) وظهور ما يسمى بالـ (غيتو Ghetto) اليهودي أي الحي الخاص الذي يسكنه اليهود وحدهم في المدن التي يستقرون فيها وبدأ ذلك في بابل ورعى هذه الفكرة الأنبياء نحميا وعزرا وحزقيال[78].

ثم تطورت كلمة الشتات وأصبحت تُطلق على كل مجتمع يهودي خارج فلسطين[79].

كان الكثير من اليهود يعيشون منذ العصر الهيلينستي في مصر وسوريا وآسيا الصغرى وفي بلدان أخرى من حوض البحر الأبيض المتوسط. وكانت للهجرة اليهودية الجماهيرية أهميتها بعد قهر انتفاضة اليهود الأولى وخاصة الثانية ضد الحكم الروماني (66-70، 132-135)م. وكادت المستعمرات اليهودية تملأ كل بلدان حوض البحر الأبيض المتوسط. وبعد تدمير القدس على يد (تيطوس فلاويوس) عام 70م، وبعد تدمير القدس بالذات (عام 133م) لم يبقى لليهود مركز تقليدي للعبادة وهكذا تكونت ظروف تاريخية جديدة، مارست تأثيراً ملموساً في التبدلات التي طرأت على الدين[80].

وتشير هذه الحقائق إلى أن القدس بعد تخلصها من أهلا لسبي لم تعد مدينة للمجتمع اليهودي إلاّ لفترات قليلة جداً بعد السبي الذي كان فيه مجتمع القدس حاوياً على غير اليهود. ويمكننا القول أن فكرة الشتات، لا الوطن الثابت أو الموعود، هي التي سيطرت، عملياً، على حياة المجتمع اليهودي. وهي التي شكّلت مناخهم الاجتماعي والديني أكثر من فكرة الاستقرار والمجتمع التقليدي الديني أو القومي. ولهذه النقطة أهميتها في تاريخ القدس التي لم تشهد، كما عرفنا، تأسيس الدين اليهودي ولم تكن مدينة سياسية واجتماعية لليهود إلاّ لفترة وجيزة وكانت هذه المدينة، مثل غيرها من مدن فلسطين، مكاناً لهجرة الناس ولقائهم من جميع أرجاء فلسطين وما حولها.

المرجعية الآثارية

الآثار البارزة لهذه الفترة هي آثار التدمير البابلي لمدينة القدس بعد حصارها وغزوها وسبي أهل يهوذا. وسنعرض لبعض آثار هذه الآثار:

1. عثر أفيغارد Avigard على البرج (شمال المدينة) على طبقة ثانوية تحتوي على رؤوس سهام وهو ما يشير إلى نشوب حريق عندما هاجمها البابليون[81].
2. عثر شيلوح في المناطق G,E على طبقة ثانوية محترقة محطمة في البيت المربع، وبيت أهيل والغرفة المحترقة وبيت الكريّات، وكانت جدرانها وأرضياتها تحتوي على كميات كبيرة من الموجودات مثل الفخاريات والأواني الحديدية والحجرية والأدوات العظمية ومواد ذات خطوط[82].

3. عُثر على درزينات من السهام الحديدية المسطحة من النوع المحلي ورؤوس السهام النحاسية المثلثة من ما يدعى بـ(النوع السكيثي) في بيوت محترقة[83].

والحقيقة أننا لا نستطيع أن نقرر نهائياً، من خلال هذه الآثار، حجم هذا الغزو أو هويته بالتحديد. فقد غُزيت مدينة القدس، في العصر القديم، مرات عديدة ولا يمكننا الجزم المطلق بنسبة هذه الآثار (المحدودة) للبابليين حصراً.

العصر الحديدي الثالث (539-333)ق. م القدس في عهد اليهود والفرس

القرن السادس قبل الميلاد (بعد سقوط بابل 539ق. م) بناء هيكل يهوا

ظهور الإمبراطورية الفارسية الأخمينية (539-333)ق. م

كان الفرس، وهم من أصل آري، قد أكملوا هجرتهم الكبرى إلى شرق إيران واستقروا في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد قرب أرض عيلام واتخذوا من أرض مرتفعةٍ اسمها (بارسوماش) مكاناً لهم، وقد عرفت عاصمتهم الأولى باسم (جمشيذ).

انتهز (إخمينس) مؤسس الأسرة الإخمينية الفارسية الصغيرة الخلافات المتصاعدة بين الآشوريين والعيلاميين وأخذ في توسيع مملكته الصغيرة.

أما إبنه (تشبيش) (765-660)ق. م. فقد استولى على إقليم فارس عندما آلت عيلام إلى الزوال.

كانت ميديا قد عقدت تحالفاً مع بابل، أسقطتا به الإمبراطورية الآشورية، في عصر ملكها القوي (كي-أخسار). أما في عهد (أسيتاجز) فقد تحالفت بابل مع الفرس (أعداء الميديين). كان الميديون يسيطرون على شمال إيران وكان ملكهم (أستياجز) ضعيفاً، فقام كورش الأول ابن تشبيش بالثورة عليه وخلعه من العرش ونصّب نفسه ملكاً على ميديا وفارس، وأصبحت إيران بأكملها تحت سيطرة كورش الذي كان طموحاً وقوياً.

قام كورش بفتح مملكة ليديا أولاً، وأخضعها له، ثم أخضع السواحل اليونانية والمدن الأيونية في آسيا الغربية ووصلت حدود الإمبراطورية الفارسية نحو الغرب لمدىً بعيد جداً، فاتحة نحو بابل وأسقطها، وبسقوط بابل توحد غرب آسيا من البحر الإيجي إلى مشارف مصر تحت صولجان حاكم واحد، ويعتبر سقوط بابل ثم سقوط الشام ومصر بيد الفرس الإخمينيين إشارة

إلى نهاية الحكومات السامية الأصل في غرب آسيا والتي شغلت التاريخ القديم منذ 3000ق. م، أي حوالي 2500 سنة، ومعه بدأ الحكم الآري لغرب آسيا وشمال أفريقيا الذي استمر حوالي ألف سنة حتى ظهرت رسالة الإسلام التي أعادت للمنطقة طبيعتها الأولى مع عقيدة سماوية جديدة بعثت إبداعها وحضارتها على أكمل وجه.

سقطت بابل عام 539ق. م بيد كورش بسبب ضعف آخر ملوكها بالنيابة بل شاصر (بلثازار) ابن نبونائيد الذي ناب عن أبيه في بابل إثر غياب نبونائيد في مهمة مجهولة داخل جزيرة العرب.

وكانت إدارة بلثازار سيئة جداً سببت انتشار المجاعة وتأزم الوضع السياسي والديني، واستغل ذلك أهل السبي فأقاموا صلةً مع كورش الفارسي الذي كان يهدد بغزو بابل وعملوا كمؤيدين له عساه يكون مخلِّصاً لهم من الحكم البابلي، وانضمَّ كهنة مردوخ في تأييد كورش وانتظاره كي يعيد احتفالات رأس السنة البابلية (أكيتو) التي ألغاها نبونائيد.

وحين دخل كورش إلى بابل كافأ عملاءَه من الكهنة وأهل السبي، فأعاد الأكيتو وأمر بترميم معبد مردوخ للكهنة، وأمر بإعادة أهل السبي إلى القدس ويهوذا، وعيّن حاكماً جديداً على القدس اسمه (شيش بّصَّر) وأمره بأخذ ما سُبي من القدس وهيكلها وإعادتها إلى مكانها.

ويسمي سفر عزرا أهل السبي بـ (بنو الكورة) و(بنو السبي) ولا يسميهم اليهود[84]. وهؤلاء كان يقودهم (زرُبابل) مع عشرةٍ من رجاله الكبار، أما (بنو الكورة) فيتكونون من أكثر من خمسين بيت يحتوي كلّ بيت على مجاميع كبيرة أو صغيرة، ويبلغ عددهم جميعاً حوالي (42360) فرداً حسب ما يذكر سفر عزرا.

والملاحظ أن هناك الكثير من الأقوام الذين لا علاقة لهم بأورشليم أو يهوذا مثل (بنوعيلام، بنولود، يت لحم، بيت إيل، عاني، بنو أريحا.. وغيرهم) وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه من أن أهل السبي كانوا خليطاً من الأقوام يعكس طبيعة سكان أهل القدس الذين هم أصلاً خليط غير متجانس ثقافياً ودينياً، وربما كانت تجمعهم لغة واحدة هي اللغة الكنعانية التي صارت عند أهل السبي لغة وكتابةً آرامية.

وكان كورش قد أصبح عند أهل السبي كمخلصٍّ لليهود بل وكمسيحٍ منتظر حيث يذكر سفر إشعياء "هكذا يقول الرب لمسيحه لكورش الذي أمسكتُ بيمينه لأدوسَ أَّمامَهُ أُمماً وأحقاءَ ملوك أَحل لأفتح أمامه المصراعين والأبواب لا تغلق"[85].

وبدا كورش وكأن الإله (يهوا) هو الذي بعثه كمسيح مخلص لأهل السبي اليهوذيين كما تقول التوراة، لكنّ ذلك مخالف للحقيقة إذ أن كورش أصدر أمراً بعودة كل الأمم والأقوام التي كان البابليون قد سبوها أبناء السبعين سنة التي حكموا فيها، وكان من ضمن هؤلاء (سبي يهوذا) الذي حاول كتبة التوراة أن يصوروا أن الأمر خاص بهم.

ويصف لنا كتبة التوراة في بداية سفر عزرا حادثة إطلاق سراحهم كما يلي:

"وفي السنة الأولى لكورش ملك فارس عند تمام كلام الرب بفم إرميا نبّه روح كورش ملك فارس فأطلق نداءً في كل مملكته وبالكتابة أيضاً قائلاً: هكذا قال كورش ملك فارس. جميع ممالك الأرض دفعها لي الربّ إله السماء وهو أوصاني أن أبني له بيتاً في أورشليم التي في يهوذا فيبني بيت الرب إله إسرائيل. هو الإله الذي في أورشليم وكلّ من بقي في أحد الأماكن حيث هو متغربٌ فلينجده أهل مكانه بفضةٍ وبذهب وبأمتعةٍ وببهائم مع التبرع لبيت الرب الذي في أورشليم"[86].

ويمكننا استنتاج الأمور الآتية من هذا النص التوراتي:

1. أن كورش لم يتصرف لوحده بل أن كلام الرب (الذي نطق به إرميا) هو الذي نبّه روحه فتكلم وكتب أمراً بإرجاع السبي!!.
2. أن الرب (الذي هو من المفروض إله يهوذا فقط) أصبح إله كورش (الذي كان يؤمن بإله آخر هو أهورا مزدا إله النور) وأن هذا الإله (الذي هو يهوا) أخضع له الأمم وأوصاه بعد ذلك أن يبني له بيتاً في أورشليم. وكأن كورش يفي بنذر ووعد كان قد قطعه مع (يهوا) وهذا أمرٌ زائف.
3. يقضي الأمر ببناء بيت الرب وليس بإعادة بناء بيت الرب الذي كان في أورشليم.
4. هناك من بقي في بابل وزوده أهله أو أقرباؤه بالأمتعة والبهائم.

ويرى بعض الباحثين أن كتبة التوراة "زيّفوا في صيغة المرسوم الملكي حتى يوهموا الجميع بأن مرسوم العودة يخصهم وحدهم، ولذلك اختفت الصيغة الفارسية الأصلية من خزائن ميديا في فارس، واحتفظوا بالصيغة الآرامية حسبما أرادوا"[87].

زرُبابل: المسيح المنتظر وقائد العودة

تعتبر شخصية (زرُبابل) هامة في هذه المرحلة فقد لعبت دوراً بارزاً في نهايات السبي في

بابل وبدايات عودة السبي وبناء بيت الرب. كان معنى اسم (زرُبابل) هو (أسير بابل) ولذلك فهو يبدو لنا لقباً أكثر من كونه اسماً.

كان أهل السبي يعتبرون زرُبابل حفيد آخر ملك مسبيّ وهو (يهوياكين) وكان والده هو (شألتيئيل)، رغم أن سفر أخبار الأيام الأول يضعه كإبن لـ (يكنيا) ابن يهوياقيم.

المهم في هذا الأمر أنه من سلالة ملوك يهوذا، وقد قام كتبة التوراة لاحقاً بنسب هذه السلالة إلى الملك/النبي داود الذي نتحفظ على عصره ونسبه كما ورد في العهد القديم!!

ومعروف أن كتبة التوراة قاموا، لغايات تتعلق بدمج إسرائيل بتراثهم، بجعل داود وسليمان يكوّنان مملكة متحدة من (إسرائيل ويهوذا) وهو أمر لا تؤيده الآثار ولا الوقائع المادية.

كان زرُبابل أمل (أهل السبي) في عودة الملوكية إلى يهوذا ولأن ذلك مستحيل فقد أعتُبر الملك المنتظر أو المسيح المخلص ليهوذا كشكل من أشكال الملوكية الباطنية. وكان النبيان حَجَّي وزكريا قد أيداه ودفعاه حثيثاً إلى أن يكون ملكاً على يهوذا أو أورشاليم. وكذلك الكاهن الصادوقي (يوشع بن يهوصادق) الذي يمثل المؤسسة الدينية الداعمة لملوك يهوذا وهكذا أُحيط زرُبابل بكل إمارات القوة الدينية لتتويجه ملكاً على أورشليم.

ربما كان هذا هو السبب الذي أشعر الناس في يهوذا و(جماعة السامرة) ومجمل (ولاية عبر النهر) بالخوف من أن يهوذا ستستقل وستخرج على الحكم الفارسي وهو ما سيسبب لها دماراً جديداً. وربما أن الفرس شعروا باحتمال تتويج زرُبابل ملكاً، ولذلك تعطّل البناء أولاً.. ثم عندما أُعيد واكتمل لم يكن زرُبابل مع المحتفلين واختفى ذكره إلى الأبد.

كان زرُ بابل قد نشأ في بيئتين: الأولى بابلية ذات تراث شعبي محتشد بفكرة العودة الدورية للإله المخلص (تموز) والثانية فارسية تؤمن بظهور المخلص (الفارقليط) الذي نشأ مع الأفكار الزرادشتية وهو دين الدولة الفارسية الإخمينية الرسمي. ولذلك لم تكن فكرة المسيح المنتظر المخلص وليدة الصدفة بل هي بتأثير هذين التراثين أولاً، ثم إنها تنمو، عادةً، في أجواء النكوص وترقب الخلاص.

قاد زرُبابل بني الكورة من بابل إلى يهوذا والقدس. وكانت أول أعمالهم هو بناء (بيت الرب) أو (الهيكل) فما هو هذا الهيكل؟ ومن هو هذا الرب؟

تسمي أسفار العهد القديم هذا المعبد بـ(بيت اللـه) و(بيت الرب) و(هيكل الرب) إله إسرائيل ولا تسميه مطلقاً (هيكل سليمان). والمفروض أنه يكون معبداً للإله يهوا لكن عبارة إله إسرائيل ترد أيضاً. فهو بين أحد احتمالين:

1. معبد إيل إله إسرائيل القديم والذي لم يكن موجوداً في القدس بل في السامرة.
2. معبد يهوا الإله الواحد ليهوذا الذي تبلورت شخصيته قبل السبي وبعده والمرجح هو الاحتمال الأول بسبب ورود العبارة التالية في سفر عزرا:

"ولما سمع أعداء يهوذا وبنيامين أن بني السبي يبنون هيكلاً للرب إله إسرائيل. تقدموا إلى زُربابل ورؤوس الآباء وقالوا لهم نبني معكم لأننا نظيركم نطلب إلهكم وله قد ذبحنا من أيام أسرحدون ملك آشور الذي أصعدنا إلى هُنا"[88].

ولم يكن أعداء يهوذا وبنيامين هؤلاء سوى أهل إسرائيل والسامرة، فقد اغتاظوا لأنهم رأوا أعداءهم أهل يهوذا يبنون معبداً (هيكلاً) لإله إسرائيل الذي هو إيل.

ويحدث هذا الاستنتاج بلبلة كبيرة فهم إما حاولوا أن يبنوا هيكلاً لإله أكبر هو إيل الذي هو بمثابة أب يهوا لكي يسحبوا البساط نهائياً من تحت أهل إسرائيل والسامرة أو إنهم وحّدوا إيل مع يهوا وتعمّدوا تسميته بالرب (إله إسرائيل).

يبدو أن الذين قادوا بناء (بيت الرب) في أورشاليم هم :

1. زرُبابل بن شألتئيل حسب سفر عزرا، وهو الذي يصفه سفر أخبار الأيام الأول بأنه ابن يكنيا ابن يهوياقيم.
2. يشوع بن يهوصاداق.
3. الكهنة اللاويون.

وبدأوا أولاً بتشييد المذبح ثم الهيكل، ويبدو أنهم كانوا أثناء ذلك يبنون المدينة وأسوارها، وكانت يهوذا كلها تابعة لولاية فارسية اسمها (عبر النهر).

وهكذا قام عدد من أهل السامرة القدماء وأهل ولاية (عبر النهر) من كنعانيين وآراميين بإرسال رسالةٍ إلى ملك فارس آنذاك وهو أكسركيس (أحشويرش) ثم تقول التوراة (أرتحششتا)!! يخبرونه بأن (أهل اسبي) بدأوا ببناء المدينة وسورها، وهذا يعني أن هذه المدينة ستعود وتعلن التمرد والعصيان على فارس أيضاً وهو سبب دمارها سابقاً من قِبل بابل، فأمر الملك الفارسي بإيقاف عمليات البناء بعد أن قاوم أعداء يهوذا هذا الأمر بالتهديد بالعصيان

وشن الهجمات على يهوذا ومنها "الهجوم الذي شنه الملك جشم ملك قبيلة قيدار العربيـة، وكـان العـرب يقطنـون آنذاك في جنوبي فلسطين حتى حبرون، وفي بعض المدن الساحلية، وأمام هذه المقاومة كان ملوك الفـرس يـضطرون إلى إصدار أوامرهم بكفِّ أيدي اليهود عن إتمام البناء"[89].

ويبدو أن إعادة المباشرة بالبناء ظهرت في السنة السادسة من حكم الملك الفارسي داريوس (دارا الأول) أي في سنة 515 ق. م.

ويقع كتبة العهد القديم في أخطاء تاريخية فاحشة فيما يخص تسلسل تاريخ ملـوك الفـرس فهـم يثبّتـون (أحشويرش) قبل (دارا) وغير ذلك.. مما يدل على أنهم كتبوا أسفارهم المتعلقة بهذا الموضوع (عـزرا مـثلاً) في فـترة متأخرة معتمدين على الذاكرة والروايات الشفاهية وجمع ما لـيس لهـم أيـضاً وجعلـه باسـمهم وصـناعة بطـولات وأحداث وهمية وهو ما ينسحب على كل أسفار العهد القديم من عدم دقة وتلفيق وتحوير.

بعد أن اكتمل بناء (بيت الرب) واحتفل أهل السبي في يوم اكتماله ودشّـنوه بالـذبائح ثـم احتفلـوا بعيـد الفصح وعيد الفطير. لكن الأسفار لا تذكر لنا المكان الذي بُني فيـه بيـت الـرب في أورشـليم. كـذلك لا نلمـح اسـم زُربابل من بين المحتفلين بنهاية البناء، فهل اختفى أو قُتل هذا الملك الباطني لأهل السبي؟؟ لكن سـلالته تـستمر فتنتقل الملوكية إلى ولده (أبيهود) وهكذا حتى نصل إلى يسوع المسيح الذي يفصله عن زُربابل أربعة عشر جيلاً أو أباً.

حَجِّي وزكريا: نبيا العودة

ظهر هذان النبيان في عصر زرُبابل، وهما من أشد أنصاره ومن أكثر الأنبياء حثّاً عـلى بنـاء أورشـليم ثانيـةً حتى بمواد أولية بسيطة فقد قام النبي حَجِّي بحث أهل السبي على بنائها "بما استطاعوا إليـه سـبيلاً مـن أخـشاب بلادهم، وتلك رسالة تنطوي على الجرأة والشجاعة، أما زكريا فقد ندد بتشاؤم الذين يزدرون بيوم الأمـور الـصغيرة فما وافت سنة 516ق. م حتى كان الهيكل قد أعيد بناؤه، وعلى الرغم من أن مصير المدينة كان معلقاً في كفة القدر لبقاء أسوارها متهدمةً، فإن هذا العمل الضخم الذي قام به اليهود بعث فيهم روحاً جديدة، وداعبهم الأمـل في أن تغدو أورشليم مرة أخرى القصبة الدينية لليهود"[90].

وكـان النبـي حجَّـي يبـشر بملوكيـة زرُبابـل وبأنـه المـسيح المنتظـر، وكـان زرُبابـل يـسعى أن يكـون

كذلك من خلال جهده المثابر في بناء بيت الرب عسى أن يكون هذا الطريق هو السبيل إلى ما تنبأ به حجَّي:

"وصارت كلمة الرب ثانيةً إلى حجَّي في الرابع والعشرين من الشهر قائلاً. كلّمْ زرُبابل والي يهـوذا قـائلاً إني أزلزلُ السماوات والأرض. وأقلبُ كرسي الممالك وأبيدُ قوة ممالك الأمم وأقلب المركبات والراكبين فيها وينحطُّ الخيل وراكبوها كلٌّ منها بسيف أخيه. وفي ذلك اليوم يقول ربّ الجنود آخذك يا زرُبابل عبدي ابن شألتيئيل يقـولُ الـربّ وأجعلكَ كخاتم لأني قد اخترتكَ يقولُ ربّ الجنود"[91].

أما زكريا فقد أكمل مهمة حجَّي في التبشير بزرُبابل من جهةٍ كـما أنـه بنـى أول الـصور اليوتوبيـة المثاليـة لأورشليم القادمة:

"يقول الرب باسط السماوات ومؤسس الأرض وجابل روح الإنسان في داخله هاأنذا أجعل أورشليم كأس ترنُّحٍ لجميع الشعوب حولها وأيضاً على يهوذا تكون في حـصار أورشـليم. ويكـون في ذلـك اليـوم أني أجعـل أورشـليم حجـراً مِشوالا لجميع الشعوب وكلّ الذين يشيلونَه ينشقّون شَقّاً. ومجتمع عليها كلُّ أمم الأرض. في ذلـك اليـوم يقـول الـربُ أضربُ كلِّ فرسٍ بالحيرةِ وراكبه بالجنون. وأفتح عيني على بيت يهوذا وأضربُ كل خيل الشعوب بالعصا"[92].

ويقلل زكريا ذو النـزعة المثالية من أهمية الأحجار والحصون والأسوار ويُزيد من التأكيد على الإيمان وعلى حضور ربّ الجنود (يهوا) في المدينة، ويرى زكريا برؤياه المثالية أن جميع الأمـم سـتصعد إلى أورشـليم وتـسجدُ إلى الرب في عيد المظال "وفي ذلك اليوم يكون على أجراس الخيل قُدْسٌ للرب والقـدور في بيـت الـرب تكـون كالمناضـح أمام المذبح. وكل الذابحين يأتون ويأخذون منها ويطبخون فيها. وفي ذلـك اليـوم لا يكـون بعـدُ تـاجرٌ في بيـت ربّ الجنود"[93].

ومن الجدير بالذكر أن المؤرخ اليوناني هيرودوتس الذي عاصر أحـداث مـا بعـد الـسبي والعـودة زار بـلاد الشام في هذه الفترة ولم يأت لا من قريب ولا من بعيد على الإشارة إلى اليهود وعودتهم المزعومة وبناء الهيكـل ... إلخ وهو ما يدحض كل هذه المرويات التوراتية.

نهاية القرن السادس قبل الميلاد

كان الربع الأخير من القرن السادس خالياً من الأحداث إذا استثنينا اكتمال بنـاء الهيكـل في عام 515ق. م، وبعد ذلك لا نعثر على أخبار مفـصلةٍ عـن القـدس. وقـد انتهـى الأمـر بفكـرة

ملوكية سلالة بني يهوياقين، الذين أُرجعوا إلى داود، إلى نهايتها. فبعد النهاية الغامضة لزرُبابـل لم نـسمع بالمطالبـة بملوكية يهوذا أو انتظار المسيح.

وربما انتصر الكهنة الصدوقيون (الحزب الديني) على زرُبابل وجماعته (الحزب السياسي) وتحولت القدس إلى مدينة دينية يسيطر عليها الصدوقيون وهي تحت السيطرة الفارسية سياسياً.

كان تأثير القدس محدوداً جداً، بل إنها لم تستطع أن تحقق لأهلهـا، مـن (أهـل الـسبي) و(الأقـوام الـذين نزحوا إليها بعد السبي)، أي شيء من تلك الصورة اليوتوبية التي رسمها لها أنبياؤها (حجّي وزكريا) وأصـبح همهـا محصوراً في رضى الوالي الفارسي عنها وفي درء مخاطر (آدوم) جارتها وفي ما يتيسر من عيشٍ هابط القيمة فيها.

القرنان الخامس والرابع قبل الميلاد حتى ظهور الإسكندر المقدوني في الشرق

استمر النمو البطيء للقدس في زمن الاحتلال الفارسي في القرنين الخامس والرابع قبل المـيلاد حتـى ظهـور الإسكندر المقدوني في الشرق حوالي (333 ق. م) وسعى سـكان القـدس إلى تجنـب خـراب جديـد مـن قِبـل جيرانهـا والتمسك بحماية الفرس لهم.

ولا نعرف على وجه الدقة ما إذا كانت هناك من أحداث قاسية قد مرت بالمدينـة مطلـع القـرن الخـامس قبل الميلاد، ولكن هناك من يرجِّح ذلك.

وعلى مدى هذه الفترة التي تتجاوز القرن ونصف القرن نجح أهـل الـسبي في تطـوير الـدين اليهـوذي إلى الدين اليهودي. وذلك بحكم ابتعادهم الواضح عن السياسة وخضوعهم الكامـل للفـرس بـل وحمايـة الفـرس لهـم ولحريتهم في العبادة.

استطاع أهل السبي تكوين نواتين أساسيتين لهذا التحول الديني، الأولى أرضية هي (بيت الرب) أو الهيكل الذي رسخ معه القدس كمدينة مركزية حتى لو كان ذلك عبر اليوتوبيـات فأصـبحت مركـز العـالم، والنـواة الثانيـة سماوية تتمثل في كتابة (أسفار التوراة الخمسة).

لقد كان بناء القدس مستمراً ولكن بناء الهيكل بعث فيهم روحاً جديدة، لكنّ أهل الـسبي تخلـوا، نـسبياً، عن فكرة ملك أورشليم الظاهري أو الباطني وارتضوا بالوالي الفارسي لولاية (عبر النهر) التـي كانـت يهـوذا القـدس جزءاً منها.

وسرعان ما تبدد حلم اليوتوبيا الذي رسمه حزقيال ثم شجع عليـه زكريـا وحجّـي عـلى أرض واقـع مدينـة القدس، ولأن الهيكل كان قد اكتمل فقد اشتعل الخيال اليوتوبي حولـه فقـط ونُـسي الخـراب المـادي للمدينـة. بـل وتهافتت تنبؤات حزقيال بمصائر الشعوب التي حول يهوذا والتي كانـت قاسـية "فكـان عـلى أورشـليم، بالـضرورة، والحالة هذه، أن تسعى جاهدة للإبقاء وللتشديد على ميزة الديانة التي كانت هـي مركزهـا والتـي لم تتميـز عنهـا عملياً. فكلّ تقرب، ولو بعيد، من عقيدة دينية غريبةٍ، وكل تبنٍ، ولـو بعيـد أيـضاً، لممارسـة طقـسية غريبـة، يثـيران الريبة والشُبهة. ثم أن عبادة العديد من الآلهة، خارج أورشليم، وهـي نتيجـة شـبه حتميـة للإيمـان بتعـدد الآلهـة كانت لهذه الديانة بالمرصاد"[94].

ولم تكن هناك حاجة لظهور معبد أوكنيس أو مجمّع لممارسة الديانة، فقد كان الأمر مقتصراً عـلى القـدس وكان (هيكل يهوا) فيها كفيلاً بذلك. وهكذا ظهرت الحاجة، أمام محاولة ترسـيخ يهـوا كإلـه واحـد وحيـد لمحاربـة معابد الآلهة الأخرى والتحريض على هجرها وهدمها، وهكذا رأى أهل السبي بأن هناك هيكلاً واحداً للـرب مـثلما هناك ربٌ واحد للعالم. وبذلك تصاعدت أهمية الهيكل. ولم تظهر المعابد والكنيـسات اليهوديـة إلاّ في القـرن الثـاني قبل الميلاد كمكان للتربية الروحية لأن الهيكل كان هو المسيطر منذ القرن الخامس حتى القرن الثاني قبل الميلاد.

نحميا وإعادة بناء أسوار القدس عام 444ق. م

ظهر في هذه الفترة نبيان مهمان هما (نحميا وعزرا). كان (نحميا) ساقياً عند الملـك الفـارسي (أرتحشـشتا) في العاصمة سوسة ثم طلب من الملك التوجه إلى القدس لبناء أسوارها طالباً العون منـه عـلى أن يـساعده في ذلـك ولاة (عبر النهر).

وباشر (نحميا) مع وجهاء المدينة وكهنتها خصوصاً (ألياشيب) رئيس الكهنة بنـاء الأسـوار وذلـك في حـدود 444ق. م واستطاع خلال فترة قياسية بناء جزءٍ كبير من أسوار القدس يتضمن ثمانية أبـواب هـي حـسب مـا يـذكره سفر نحميا: (باب الضأن، باب السمك، الباب العتيق، باب الوادي، باب الدمن، باب العين، باب الماء، بـاب الخيـل) ومجموعة من الأبراج هي: (برج حننئيل، برج التنانير، المصفاة) وسور بركة سلوام (سلوان). وهذه الأسماء، كما هو واضـح ،لا تحمـل أيّ طـابع دينـي يخـص (الـدين اليهـودي) الـذي مـازال جنينـاً. ويبـدو أن حركـة البنـاء هـذه

أغاظت حكام المدن حول القدس، مرة أخرى، مثلما أغاظها، سابقاً، بناء الهيكل. لكن (نحميا) استمر بالعمل واستطاع أن يكسب ثقة الملك الفارسي فيكون والياً على يهوذا لمدة إثني عشر عاماً[95].

لقد كان نحميا رجل سياسة ورجل بناء أكثر من كونه رجل دين "فقد اتخذ عدته للإكثار من سكان المدينة وللنهوض بإدارة شؤونها الداخلية ولتشجيع التعاطف والتراحم بين أغنيائها وفقرائها. ولكن اليهود المتهاونين المتراخين، وأعوان السامريين كانوا أقوياء النفوذ، فما أن عاد نحميا إلى فارس حتى نُقضت إصلاحاته"[96].

لكن نحميا عاد من جديد إلى أورشليم عام 432ق. م واتخذ تدابير جديدةً أشد صرامةً وعنفاً على مستوى اللاهوت مثل التشديد على عدم الزواج من الأجانب وعدم إهمال يوم السبت، ثم قام بطرد أحد الكهنة من أورشليم هو (منسي) الذي كان حفيد رئيس الكهنة وصهر (سنبلط) حاكم السامرة. وهو الحادث الذي حسم العلاقة بين أهل السبي وأهل السامرة كما سنرى.

عَزْرا والتدوين الثاني للمرويات التوراتية (حوالي 445-400)ق. م

إثر تنامي نفوذ مؤسسة الكهنة الصادوقية في القدس وإحكام قبضتها على أهل السبي واليهوذيين فيها، ظهر في منتصف القرن الخامس قبل الميلاد كاهنٌ من بيت (صادوق) اسمه (عَزْرا) وكان لامعاً ومتميزاً جداً، فقد أظهر إطلاعاً واسعاً تركه أهل السبي من إرث مكتوب وخصوصاً (سفر الشريعة) الذي كتب في عهد يوشيّا، وقد هيأته موهبته الدينية والثقافية للقيام بدور كبير جداً من تاريخ الدين اليهودي وهو التدوين الثاني للمرويات التوراتية بشكل متسلسل وذلك بالتعاون مع فريق منتخب من الكهنة اللاويين والكتبة.

قام عَزرا بعمل يشبه عمل هوميروس وهسيودوس بالنسبة للدين الإغريقي، فقد جمع أكبر عدد من المرويات الشعبية التي كانت شائعة في بلاد يهوذا وعرضها بطريقة دينية مركزية ولكنه لم يكتب كلّ المرويات بل قام، بتشجيع من الكهنة اللاويين، بكتابة (سفر اللاويين) والأسفار المتعلقة بالشريعة (سفري العدد والتثنية). أما سفر (عَزرا) نفسه فيرجّح أنه كُتب في العصور اللاحقة لأن مضمونه لا يشير إلى أن عَزرا هو الذي كتبه.

وتبدو لنا قصة أمر الملك الفارسي أرتحشتا لعزرا بالتوجه إلى القدس حوالي عام (458ق. م) مشابهة لأمر الملك الفارسي كورش لزرُبابل للذهاب إلى القدس، وهو ما يشير إلى ركاكة الروايات الإخبارية في العهد القديم ونقلها عن بعضها البعض.

في هذه المرة يظهر أرتحششتا، دون مناسبة، وكأنه المخلّص الجديد لأهل السبي، فهل يُعقل أن يكون مضمون رسالته إلى عَزرا، بعد ما يقرب من قرن كامل على عودة أهل السبي، دائراً حول العودة للقدس وجمع تبرعات الكهنة وتسليم الآنية وما إلى ذلك!!

وتضعنا هذه الروايات أمام ما يشبه (العودة الثانية) إلى القدس بقيادة عَزرا، وتصل ثقة أرتحششتا بعزرا إلى الإيعاز له بأن يعين الحكام والقضاة حسب ما يرى:

"أما أنتَ يا عزرا فحسب حكمة إلهك التي بيدك ضَعْ حكّاماً وقضاةً يقضون لجميع الشعب الذي في عبر النهر من جميع من يعرف شرائع إلهك والذين لا يعرفون فعلموهم. وكل من لا يعمل شريعة إلهك وشريعة الملك فليُقضَ عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة المال أو بالحبس"[97].

ويصل عدد الذين عادوا مع عَزرا إلى حوالي (1172) شخصاً حسب العهد القديم، وعندما وصل عَزرا إلى القدس وجد أن أهل السبي والكهنة قد اختلطوا بالشعوب الأخرى وتزوجوا من نساءِ الأقوام الأخرى المجاورة لهم، وهو ما رآه إثماً عظيماً سيعاقب عليه الرب وطلب منهم أن يستغفروا للرب.

إن عقيدة منع زواج اليهود من غيرهم ظلّ أمراً نظرياً، طيلة التاريخ، رغم تشدد الشريعة في ذلك، وكان الأنبياء الذين سنّوا هذه الشريعة ومنهم (عزرا ونحميا) يعتقدون أن دمار اليهود متأتٍ من هذه النقطة بالذات، فهم شعبٌ خاص بالإله يهوا (شعب مختار) وليس من الصحيح اختلاطهم بشعوب أخرى تؤمن بآلهة أخرى كما يرون.

وكانت هذه النقطة بالذات تدلّ على ضيق الأفق والتعلق بالأمور اللاهوتية ذات الأصل الأسطوري، لكنها كانت على ما يبدو جزءاً من التعاليم التي حاولت بناء المجتمع اليهودي وفق طقوس أصولية ثابتة.

ولحسن حظ المجتمع وسلامته في المستقبل، من حيث الوراثة، فإن القانون كثيراً ما كان يتم تجاهله بما فيه الكفاية لمنع الآثار المؤذية المترتبة على الاستيلاء الداخلي Inbreeding وكذلك فإن دخول غير اليهود بقي عقيدة غيبية حتى الوقت الحاضر[98].

عاد عَزرا إلى بابل واستمر في إعادة كتابة المرويات التوراتية بعد أن جمع له من التراث الكنعاني ما طاب له وأدخله مع تراث يهوذا السابق والتراث البابلي في الأسر حتى تكون ما يمكن أن نسميه بـ (نواة التوراة) التي ضمت المادة الأولية للأسفار الخمسة الأولى.

إن كلمة (توراة) مشتقة من الفعل العبري (يَرَشْ) الذي له علاقة بالفعل العربي (ورث) والذي يقترب بمعناه من الفعل العربي (رأى) الذي يفيد اليقين والاعتقاد. وأساس التوراة هي الأسفار الخمسة الأولى (التكوين، الخروج، اللاويون، العدد، التثنية) ثم أضيفت لها الأسفار الأخرى التي ازدادت مع الزمن، ويبلغ الحد الأدنى لكل أسفار التوراة (39) سفراً وتسمى بـ(العهد القديم) الذي يحمل بالعبرية الإسم الحرفي (توراة الأنبياء والكتبة) أي (إرشاد الأنبياء والكتبة).

ونرى أن التدوين الأول الذي حصل أثناء السبي كان بدائياً وبسيطاً وقد كتب باللغة الكنعانية الخاصة بشعب يهوذا أو باللغة الآرامية التي كانت لغة تفاهم في الشرق الأدنى بأكمله.

أما التدوين الثاني الذي قام به عزرا في بابل بعد قرابة ثلاثة أرباع القرن فقد كان باللغة الآرامية وهي (لغة التلمود) أيضاً فيما بعد، وقد بدأ عزرا بعمله هذا وكأنه المرجع الكتابي الأول لليهود بعد المرويات والتعاليم الشفاهية السابقة والأب الروحي للدين اليهودي. أما ما قبله من عقائد وأنبياء وكهنة فقد كانوا مادة أولية وأخلاطاً منوعةً شكلت ينابيع الدين اليهودي الخام.

ولأن عزرا ولد وتعلم وتثقف وكتب كتبه ومات في بابل فيمكننا القول بأن اليهودية نشأت في بابل وليس في فلسطين (يهوذا أو القدس) وأنها رحلت من بابل إلى القدس عن طريق عَزرا ومعاونيه.

واليهودية كديانةٍ لم تكن تسمى مطلقاً بهذا الاسم (يهودية)، والتوراة كلها لا تذكر اسم (دين يهودي) فقد كان القصد من هذه الديانة هي ديانة أهل ما بعد السبي (وقد اصطلحنا عليه بالدين اليهوذي) وتحديداً منذ حوالي (445ق. م) على ضوء اتخاذ أهل السبي للشريعة والكتاب الذي دونه لهم عَزرا أساساً وتعاهدوا عليه.

ويرى الدكتور كمال الصليبي أن الرسول بولس (المتوفي عام 67م تقريباً) هو أول من اشتق لفظة (اليهودية) (باليونانية Ioudaismos) من اسم (اليهود) (باليونانية Ioudaioi) للدلالة

على ديانتهم على ما يظهر، وذلك في رسالته الشهيرة إلى أهل غلاطية (1: 13، 14) ولا توجد أية إشارة معروفة إلى اسم هذه الديانة من قبل"[99].

وفي عام 445ق. م قام عزرا بزيارة ثانية للقدس، بعد أن أكمل كتابته لـ (الشريعة) وجاء بها إلى أهل يهوذا ليهديهم إلى السنّة الصحيحة التي يراها حيث يذكر سفر نحميا تفاصيل ما حصل:

"فأتى عَزرا الكاتب بالشريعة أمام الجماعة من الرجال والنساء وكل فاهم ما يُسمع في اليوم الأول من الشهر السابع. وقرأ فيها أمام الساحة التي أمام باب الماء من الصباح إلى نصف النهار أمام الرجال والنساء الفاهمين وكانت آذان كل الشعب نحو سفر الشريعة"[100].

ومن حقنا أن نثير تساؤلاً منطقياً هنا هو: هل كتب عَزرا سفر الشريعة على ضوء سفر الشريعة الذي عثر عليه في عهد يوشيّا (في القرن السابع ق. م) أم أنه تلقف آثاره الشفاهية على لسان الكهنة الذين سبقوه أم أنه مؤلف هذا السفر كله ولا وجود لسفر الشريعة قبل السبي؟ هذه الأسئلة تبدو مشروعة أمام خلط الأوراق الذي يضجّ به تاريخ اليهود.

كان الكهنة الذين مع عَزرا (وعددهم ثلاثة عشر) واللاويون يشرحون ما ورد في كتاب (الشريعة) ويفسرون معانيه للناس، ثم قالوا هؤلاء مع عَزرا للشعب:

"هذا اليوم مقدس للرب إلهكم لا تنوحوا ولا تبكوا. لأن جميع الشعب بكوا حين سمعوا كلام الشريعة. فقال لهم اذهبوا كلوا السمين واشربوا الحلو وابعثوا أنصبة لمن لم يعد له لأن اليوم إنما هو مقدس لسيدنا ولا تحزنوا لأن فرح الرب هو قوتكم"[101].

وفي اليوم الثاني جمع الشعب أغصان الأشجار لعمل مَظال لهم (أي ظلال الأغصان لحمايتهم من الشمس) وفي بيوتهم وسطوحهم وساحاتهم، وهكذا صار عيد المظال كما هو معروف.. وتثير فينا هذه الحادثة تساؤلاً موازياً للتساؤل السابق لأن هذه المناسبة تشبه أول حصول عيد الفصح مع يوشيّا بعد قراءة سفر الشريعة أيضاً !

استمرت قراءة الشريعة (من قِبل عَزرا) سبعة أيام (وهي أيام عيد المظال) ثم اعتكفوا بعدها في اليوم الثامن.

وقد قام أهل السبي في القدس بقطع ميثاقٍ وكتابته، وختم عليه الرؤساء واللاويون والكهنة بالالتزام الكامل بشريعة الرب. ولذلك كان هذا اليوم هو اليوم الرابع عشر من الشهر السابع (في تقويمهم) الذي يصادف في العام 444ق. م وهو يوم تأسيس الدين اليهودي الذي

يـصادف في نهايـة عيـد المظـال الأول. حيـث ظهـر الـدين اليهـودي، لأول مـرة، كـدين مـنظم وواضـح عـلى يـد عَزرا.

ويذكرنا بالطبع هذا الحادث بتأسيس الدين اليهوذي، لأول مرة أيضاً، قبل ذلك بقـرنين عنـدما عـثر يوشـيّا على سفر الشريعة كما أسلفنا.

ونرى أن الحادثة المتأخرة لعَزرا عام 445ق. م هي التي حصلت، أمـا الحادثـة الأولى ليوشـيّا عـام 636ق. م فنضع عليها الشكوك وعلامات الاستفهام رغم أننا اعتمدناها في السرد لتاريخي.

ويرد في سفر نحميا ما يشير إلى اسم القدس مرافقاً لاسم أورشليم:

"وسكن رؤساء الشعب في أورشليم، وألقى سائر الشعب قُرعاً ليأتوا بواحد من عَشَرةٍ للسكنى في أورشـليم مدينة القُدس والتسعة الأقسام في المدن. وبارك الشعب جميع القوم الذين انتدبوا للسكنى في أورشليم"[102].

وهذا يعني أن اسم القُدس له علاقة باسم النذور والتقدمات التي وهو عـلى وجـه التحديـد الجـزءُ الـذي شُرِّف أن يكون في المكان المقدّس، فالشخص الواحد المنتخب من عشرة للسكن في أورشـليم هـو (قُـدس) والتـسعة الآخرون ليسوا كذلك. وهكذا يرد معنى أورشليم مدينة القُدس: أي المدينة التي يسكنها القسم الذي وقعت عليهم القرعة من كل بيوت أهل السبي بواقع واحد من عشرةٍ لكل بيت إضافةً لرؤساء الشعب.

ويرد اسم (مدينة القدس) واضحاً لا لبس فيه في سفر إشعياء:

"اسمعوا هذا يا بيت يعقوب المدعوين باسم إسرائيل الذين خرجوا من مياهِ يهـوذا الحـالفين باسـم الـربّ والذين يذكرون إله إسرائيل ليس بالصدق ولا بالحق. فإنهم يُسمَّون من مدينة القُدسِ ويُسنَدونَ إلى إلـه إسرائيـل. ربُّ الجنود اسمه"[103].

ونعتبر هذه الإشارة فريدة من نوعها فهي تسبق تاريخاً، ولو على المستوى الشكلي، إشارة نحميا.

ونعود إلى عَزرا لنلاحظ أنه كما اختفى ذكر زرُبابل في التوراة اختفى ذكر عَزرا كذلك، ولا نعرف لذلك سبباً، ويذكر المؤرخ اليهودي يوسيفيوس (الذي كتب تاريخ اليهود في القرن الميلادي الأول) أن عَـزرا تـوفي في يهـوذا ولكـن هـذا غـير صـحيح. إذ يبـدو أنـه عـاد بعـد عيـد المظـال

وبعد التوقيع على الميثاق إلى بابل وتوفى فيها عام 444ق. م ودفن فيما يعرف اليوم في جنوب العراق بـ(مقام النبي عُزير) ومازال اليهود يحملون تقديساً لهذا المزار.

والظاهر أن العمل استمر في بابل، بعد وفاة عَـزرا، لجمـع المـدونات والمرويـات الموروثـة وإعـادة ترتيـب محتوياتها والإضافة إليها حتى اكتمل هذا العمل في أواخر القرن الرابع أو بداية القرن الثالـث قبـل المـيلاد وبـذلك أصبح لليهود (كتاب مقدس) متفق عـلى مـضمونه، وكانـت المؤسـسة الـصادوقية هـي المـشرفة عـلى إخـراج هـذا الكتاب[104].

اليهودية الأصولية

شهدت الفترة اللاحقة لظهور عَزرا ونحميا، تزمتاً شديداً في الدين اليهـودي، ففـي فـترة القـرن الأخـير مـن حياة الإمبراطورية الفارسية كان اليهود يرسخون التقاليد والشعائر الأصولية لشريعة عَـزرا كي يـضمنوا نمـو مجتمـع يهودي متماسك وقوي.

ومع ترسخ تعاليم الشريعة ازداد ترسيخ القـدس كمدينـة مركزيـة وبـدت القـدس كـما لـو أنهـا اسـتأثرت بالعبادة الحقيقية، ولم يوجد، خارجاً عنها، سوى أماكن للصلاة المشتركة. ولم يـشذ عـن هـذا المبـدأ، خـلال التـاريخ، سوى تجاوزات نادرة حصلت كلها في العصور القديمة. وبالرغم من تشتت الشعب فقـد توجـب الاحتفـال بالأعيـاد الكبرى، ولا سيما الفصح، وفقاً للطقوس، على رابية صهيون، مما جرّ إلى فريضة حج دوريّ سنوي إلى الهيكل[105].

ومع ترسخ تعاليم الشريعة إزداد الإصرار على اعتبار (يهوا) إلهاً وحيداً للعالم رغم أنه مازال الإلـه القـومي لليهود. ولا بد لنا من الإشارة إلى أن نزعات التوحيد البابلية والمصرية والفارسـية كانـت قـد وجـدت قبـل التوحيـد اليهودي لكنها ارتبطت على الدوام بمركزية الملك البابلي أو المصري أو الفارسي وكانت انعكاساً لطغيانه وجبروته أما التوحيد اليهودي فقد تجاوز هذه العقبة لأنه كان دينياً صرفـاً وينطلـق مـن اليـأس العميـق بظهـور ملكيـة قويـة وكبيرة فلا ملك ولا دولة ولا أمة واحدة لهم، ولذلك كان الذهاب إلى المطلق يسيراً لا يصطدم بأية عقبات ملكية أو إمبراطورية أو جغرافية أو متعلقة بالاصطدامات العنيفة بين الشعوب والأمم الكبرى. ومن هنا ازداد تـوتر المطلـق عند هؤلاء القلّة من الناس (أهل السبي) لأنهم لا يملكون إلاّ هذه البقعة الصغيرة من الأرض، ولذلك فإنهم بـالكلام والخيال يستطيعون امتلاك العالم والدنيا والآخرة.. إلخ. وهكذا دفعوا بوحدانية (يهوا) إلى أقصاها ونجحوا في ذلك.

وإذا كان غيرهم قد فشل وتحطمت محاولاتهم الوحدانية على أسوار مقاومة كهنة العبادات المحلية والقوى الطاردة المركزية الأخرى، وإذا نجح الكهنوت المقدسي الآن في إقامة وحدانية صارمة بالفعل، فمرد ذلك يعود إلى الوضع الاحتكاري الذي كان عليه كهنوت المعبد المقدسي، وانتفاء وجود منافسين أقوياء، أما الملوك (الإيرانيون وغيرهم) فأمنوا لهم التغطية والحماية[106].

وفي أجواء مركزية الهيكل والرب والأعياد والشعائر هذه نشأت الأصولية اليهودية متزمتة مغلقة على نفسها، ولعل أول ثمار هذه الأصولية هو اضطهاد السامريين ونبذهم، الأمر الذي أدى بهؤلاء القيام ببناء هيكل في جبل جرزيم ينافس هيكل القدس قبيل 330ق. م حيث ادعى السامريون أنه هيكل الرب الوحيد في أرض فلسطين.

ويشير هذا الحادث، ببساطة، إلى أن إقامة فكرة الهيكل المركزي لليهود لم يكن يتعلق مطلقاً بما له علاقة بـ(سليمان) بل بـ(الرب)، سواء كان يهوا أو إيل، وهو ما قصده السامريون. بل إنهم ذهبوا إلى أبعد من ذلك عندما اعتبروا أن جبل جرزيم هذا هو الجبل الذي قدم فيه إبراهيم ولده قرباناً وليس جبل موريا في أورشليم، ولذلك مازال السامريون يجتمعون إلى اليوم فوق قمته ليحتفلوا بعيد الفصح حيث يقدمون الحمل ذبيحةً ويشوون لحمه ويرتلون صلواتهم باللهجة السامرية القديمة التي هي، بلا شك، لهجة كنعانية.

ويبدو أن عام 330ق. م شهد طلاقاً نهائياً بين يهود أورشليم واليهود السامريين ومازال هذا بينهم إلى الآن، ومعروف أن سبب ذلك أصلاً يعود إلى استقلالية السامرة الدينية عن يهوذا قبل السبي وإلى الاختلاف بين العقيدتين.

وكان من ثمار الأصولية هذه أيضاً هجرة بعض اليهود الأصوليين إلى البلدان المجاورة مثل مصر لتعليم سكان يهوذا الذين هاجروا إبان السبي البابلي إلى مصر والذين كانت عقائدهم مندمجة بعقائد الأديان الأخرى وخصوصاً الدين المصري القديم.

لقد روت لنا بعض المرويات الآرامية أنه حتى سنة 408ق. م يبدو أن جالية من يهوذا في (إلفنتين) الواقعة على الذيل بصعيد مصر كانت تطالب المعونة في ثقة من السلطات المدنية والدينية بفلسطين ويبدو أنها كانت تقسم أموال المعبد بين (يهوذا) وإلهتين هما زوجتاه فيما يلوح [107].

ويبدو أن تأثير الأصوليين على هؤلاء كان واضحاً حتى إننا سنرى جالية يهودية كبيرة في مصر في العصر الهيلنستي القادم.

كانت الأصولية اليهودية قد تركت بصماتها الواضحة في العادات التي ظلت بعد ذلك في طابعهم المميز مثل حفظ السبت، والأعياد الثلاثة السنوية الكبرى، ونظام القرابين، وممارسة طقوسهم في ظروف الحياة العادية والطارئة، سواء فرادى أو جماعة، وتعيين الكهنة وحقوقهم وواجباتهم، ونفوذ رئيس الكهنة الذي لا ينازعه منازع في بلوغه مقام الزعامة في الأمة شيئاً فشيئاً، وتكون هيئة من الكهنة النبلاء من حوله[108].

ومع بداية القرن الرابع قبل الميلاد دبّ الفساد في المؤسسة الكهنوتية وبدأت طموحات الزعامة تتناهب هذه المؤسسة.

فعلى سبيل المثال أصبح يوحنا، حفيد الياشيب معاصر عزرا، كاهناً أعلى، لكن أخاه، يشوع، تملق الحاكم الفارسي باغوز، الذي وعد يشوع بمنصب الكاهن الأعلى وأدى هذا الحادث إلى إيقاع عقوبات على نظام القدس وعن استياء مؤقت في الإمبراطورية الفارسية[109].

وفي كل الأحوال كان اليهود خلال القرن الذي مضى قبل ظهور الإسكندر المقدوني قد ثبتوا أركان ديانتهم، وفصلوها شيئاً فشيئاً عن الديانات المحيطة بهم، وقاموا بتسريب بعض عقائد الديانة الفارسية الزرادشتية المهيمنة مثل الأفكار الثنوية وقصص الملائكة والشياطين، بالإضافة لتأثير فئة العائدين إلى القدس من بابل أثناء الحكم الفارسي والذين يسمّون (المهستانيون Mehestanist) والذين كانوا مشبّعين بالعقائد الفارسية السائدة آنذاك.

المرجعية الآثارية: الطبقة التاسعة(القرن**6-4**)ق. م

خلال فترة ما بعد السبي عاد السكن في القسم القديم من القدس، ويرجّح أن بناء الهيكل الذي قام به زرُبابل قد حصل بمواجهة مهماز (spur) مدينة يبوس شمالاً. وقد ظهرت أثار قليلة من أثار هذه الفترة في غير هذا الموقع.

كانت الطبقة الخاصة بالفترة الفارسية أقل وضوحاً لأنها تقع بين تدمير المدينة الواسع على يد البابليين وبنائها الواسع في الفترة الحاشمونية والهيرودية وقد تطورت المدينة قليلاً في المنطقة القريبة من مكان الهيكل المقترح[110].

والأمر المحيّر حقاً هو أن لا وجود لأثار تؤيد وجود هذا الهيكل الذي كان رمزاً لعودة أهل السبي إلى القدس. وهكذا يضعنا الرنين العالي للمرويات التوراتية أمام مفارقة جديدة.. فكيف نستطيع الحكم على صدق هذه المرويات أمام غياب آثار متماسكة وواضحة لهيكل ما بعد العودة من السبي أو لنقل لهيكل المرحلة الفارسية من احتلال القدس. والحقيقة أن هذه المبالغات لها علاقة بالمبالغات الكبيرة والخيالية التي تمت قبل ذلك والتي تحدثنا عن بعضها.

أما أهم الآثار التي كشف عنها في الطبقة التاسعة فهي قطع فخارية وطبعات أختام على أيدي جرار تشير إلى أنواع مختلفة من هذه الطبقات منها أسماء المرزبانات والكهنة مثل: أحزاي وحنانيا.

وطبع ختم يوضح حيواناً واقفاً وعملةً فضيةً كاذبة من القرن الخامس قبل الميلاد، وهذا يعني أن مهماز القدس في الفترة الفارسية عاد فأصبح مركز المدينة المأهول وأن المدينة آخذةً بالتوسع والتطور شمالاً وإلى الغرب، كما كانت عليه في العصر الحديدي الثاني، كلما اتجهنا نحو العهد الحاشموني. وهذا يعني أن منطقة المشنا (على المرتفع الغربي) في هذه الفترة كانت مهجورةً [111].

هوامش ومراجع الفصل الثالث

1. توماس طومسون، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح، بيروت، 1995، ص149.
2. أحمد فخري، مصر الفرعونيـــة (موجز تـاريخ مـصر منـذ أقـدم العـصور حتـى عـام 332ق. م)، القـاهرة، 1995، ص293.
3. توفيق سليمان، دراسات في حضارات غرب آسية القديمة (من أقدم العـصور إلى عـام 1990ق. م)، دمـشق، 1985، ص8.
4. فخري، أحمد، المرجع السابق، ص392.
5. نفسه، ص309.
6. طومسون، المرجع السابق، ص189.
7. نفسه، ص182.
8. نفسه.
9. نفسه، ص186.
10. نفسه، ص177-178.
11. كيث وايتلام، تلفيق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة ممدوح عـدوان مراجعـة زيـاد منـى، دمشق، 2000، ص127.
12. طومسون، المرجع السابق، ص115.
13. وايتلام، المرجع السابق، ص127.
14. طومسون، المرجع السابق، ص195.
15. نفسه، ص101.
16. نفسه، ص110.
17. نفسه، ص199.
18. نفسه، ص197.
19. وايتلام المرجع السابق، ص144-145.
20. Yigal Shiloh , "Jerusalem. The early periods and The first Temple period" The

New Encyclopedia of Archealogy Excavations in the Holy Land, Volume2 , Jerusalem, 1993. P. 703

21. طومسون، المرجع السابق، ص211.

22. نفسه، ص214.

23. وايتلام، المرجع السابق، ص178.

24. نفسه.

25. طومسون، المرجع السابق، ص226.

26. Kathleen M. Kenyon, "Jerusalem. Excavating 3000 years of History , London , 1967 Katheen M. Kenyon, "Royal cities of the old Testament , London, 1971

27. إبراهيم الفني، القدس عبر الحضارة والتراث منذ ستة آلاف عام، عمّان، 1997، ص50

28. سير ألن جاردنر، مصر الفراعنة، ترجمة الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم، ط2، القاهرة، 1987، ص361.

29. العهد القديم، الملوك الأول 14: 25-26. الملوك الأول 1: 16-18.

30. جاردنر، المرجع السابق، ص361.

31. طومسون، المرجع السابق، ص12.

32. Shiloh, OP. CIT. P. 703

33. Kenyon, Jerusalem. Excavating 3000 years of history, London , 1967, P. 46

34. Shiloh , OP. CIT. P. 704.

35. Shiloh , OP. CIT. P. 703.

36. طومسون، المرجع السابق، ص218.

37. نفسه، ص210.

38. نفسه، ص215.

39. نفسه.

40. علي أبو عساف، الآراميون (تاريخاً ولغةً وفناً)، طرسوس، 1988، ص55. عن:

Michel E , "Die Assur, Texte Salmanassars III (858-824)", Die welt des Orients, 1947, P. 67 ff.

41. العهد القديم: الملوك الثاني 8: 28-29.

42. فواز طوقان، "دراسة عن اللغة المؤابيـة وترجمة نقش الملـك ميـشع"، حوليـة الآثـار الأردنيـة العـدد 10، 1970، ص19-51.

43. طومسون، المرجع السابق، ص288.

44. Shiloh , OP. CIT, P. 704.

45. نبيلة عبد الحليم، معالم العصر التاريخي في العراق القديم، القاهرة، 1983، ص220-221.

46. عبد الحليم، نبيلة، المرجع السابق، ص221.

47. نفسه.

48. طومسون، المرجع السابق، ص229.

49. نفسه.

50. عبد الحليم، المرجع السابق، ص224.

51. طومسون، المرجع السابق، ص234.

52. طومسون، المرجع السابق، ص234.

53. Shiloh, OP. CIT, P. 704

54. IBID P. 47.

55. Hillel Geva, "Jerusalem. The early periods and The first Temple period" The New Encyclopedia of Archaeology Excavations in the Holy Land, Volume2, Jerusalem, 1993, P. 713.

56. IBID, P. 714.

57. IBID.

58. IBID.

59. IBID P. 715.

60. Shiloh, OP, CIT, P. 708.

61. IBID.

62. Geva, OP. CIT, P. 709.

63. IBID.

64. عبد الحليم، المرجع السابق، ص234-235.

65. العهد القديم: إرمياء 52: 28 والملوك الثاني 24:16.

66. جورج مندنهول، "القدس من 1000-63ق. م"، القدس في التاريخ، حرر الطبعة الإنجليزية وترجمها الدكتور كامل جميل العسلي، عمّان، 1992، ص79.

67. مندنهول، جورج، المرجع السابق، ص79.

68. فخري، المرجع السابق، ص454.

69. و. إلمسلي، "سقوط أورشليم وأهميته العالميـة"، تاريـخ العالم، السيرجـون.

أ. هامرتون، المجلد الثالث، الفصل التاسع والستون، ترجمة إدارة الترجمة بوزارة المعـارف العموميـة، القـاهرة، ب. ت، ص639.

70. إلمسلي، المرجع السابق، ص640-641.

71. العهد القديم: إرمياء 3: 39-50.

72. العهد القديم: إرمياء 4: 12-6.

73. العهد القديم: إرمياء 5: 1-6.

74. العهد القديم: حزقيال 16: 28-34.

75. إلمسلي، المرجع السابق، ص641.

76. العهد القديم: إرمياء 51: 17-20.

77. إلمسلي، المرجع السابق، ص463.

78. محمود نعناعة، المشكلة اليهودية وهل تحلها إسرائيل حـ1، القاهرة، 1972، ص321.

79. فيليب حتي، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين. ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، بيروت، 1958، ص204.

80. سيرغي أ. توكاريف، الأديان في تاريخ شعوب العالم، ترجمة د. أحمد م. فاضل. دمشق 1998. ص388.

81. Shiloh, OP. CIT, P. 709.

82. IBID.

83. IBID.

84. العهد القديم: عزرا 6: 19.

85. العهد القديم: إشعياء 45: 1-2.

86. العهد القديم: عزرا 1: 1-5.

87. عزمي عبد محمد أبو عليان، القدس بين الاحتلال والتحرير، عمّان، 1993، ص94.

88. العهد القديم: عزرا 4: 1-3.

89. أبو عليان، عزمي، المرجع السابق، ص95.

90. إلمسلي، المرجع السابق، ص644.

91. العهد القديم: حَجَّي 2: 20-23.

92. العهد القديم: زكريا 12: 1-5.

93. العهد القديم: زكريا 14: 20-21.

94. أندريه إيمار وجانين أوبواويه، الشرق واليونان القديمة، ترجمة فريد م. داغر وفؤاد ج. أبو ريحان. ط2، بيروت. باريس، 1981، ص271-272.

95. العهد القديم: نحميا 1،2،3،4،5.

96. إلمسلي، المرجع السابق، ص646.

97. العهد القديم: عزرا 7: 25-26.

98. مندنهول، المرجع السابق، ص84.

99. كمال الصليبي، البحث عن يسوع، عمّان، 1999، ص25.

100. العهد القديم: عزرا 8: 1-4.

101. العهد القديم: نحميا 8: 9-11.

102. العهد القديم: نحميا 11: 1-3.

103. العهد القديم: إشعياء 48: 1-3.

104. الصليبي، كمال، المرجع السابق، ص32.

105. إيمار، أندريه وأوبواويه، جانين، المرجع السابق، ص271.

106. توكاريف، سيرغي، المرجع السابق، ص383.

107. إلمسلي، المرجع السابق، ص640.

108. نفسه، ص648.

109. مندنهول، المرجع السابق، ص85.

110. Shiloh. OP. CIT P. 709.

111. IBID.

الفصل الرابع

القدس في العصر الهيلنستي



بطليموس الثاني (فيلادلفيوس) الذي جرت في عصره الترجمة السبعونية للتوراة

https://en. wikipedia. org/wiki/Ptolemy_II_Philadelphus

الفصل الرابع

القدس في العصر الهيلنستي

كان ظهور الإسكندر المقدوني في بلاد اليونان ثم في الشرق القديم إشارة إلى تبدل جوهري في مسرى تـاريخ العالم، وكان هذا التبدل متأتياً من خلط تراثات الأمم الشرقية والغربية في بوتقة واحدة.. وقد نتج عن هذا الخلـط مزاج حضاري جديد هو بمثابة أول عولمة حقيقية في التاريخ.

يطلق على العصر الذي أتى بعد وفاة الاسكندر المقدوني اسم العصر الهيلنـستي (323-30)ق. م، ويـستغرق ما يقرب من ثلاثة قرون تم خلالها فتح القنوات بين الشرق والغرب، وظهرت ثمار ناضجة كثيرة من هذا العمل رغم أن هذا العصر كان متسماً بنوع من الاستعمار الاستيطاني هو الأول من نوعـه في التـاريخ أيـضاً، فقـد كـان الحكـام الإغريق يحكمون شعوب الشرق المتململة من الهند مروراً بآسيا الصغرى وبلاد الشام حتى شمال أفريقيا.

كان هذا العصر ومازال جذاباً وغامضاً ومستعصياً على البحث التاريخي الصرف، فهو يحتـاج إلى نـوع مـن المعرفة الخاصة والذوق الخاص لتحليل مادته، إنه تاريخ يشبه الطبقـات الغامـضة لمرحلـة القـرون الوسـطى التـي مرّت بها أوربا فهي قرون مليئة بالألغاز والنوادر والثقافات الخاصة.

ولعلّ بلاد فلسطين شهدت، دون غيرها، تاريخاً خاصاً في هذا العصر ظهرت ملامحه من اخـتلاط الثقـافتين البطلمية والسلوقية مع الثقافات المحلية الزاخرة بالتنوع. وكانت القدس قلب مسرح الاختلاط هذا فقد أثّرت فيـه وتأثرت به بعمق كما سنرى ذلك.

ينقسم تاريخ القدس في العصر الهيلنسي إلى ثلاثة أقسام:

1. القدس في عهد الاسكندر المقدوني (332-323) ق. م.
2. القدس في عهد البطلمي (320-200)ق.م.
3. القدس في عهد السلوقي (200-63)ق.م.

القدس في عهد الاسكندر المقدوني (332-323) ق. م.

ولد الاسكندر المقدوني (الاسكندر الثالث) ابن فيليبوس الثاني مـن زوجتـه أولمبيـاس في بـيلا عـام 306ق. م وكان لوسيماخوس أول من علمه، ولكن أرسطو طاليس كان قد تولى تعليمه منذ الثالثة عشر من عمره عندما تولى حكم مقدونيا بعد اغتيال أبيه عـام 336ق. م وحاولـت بعـض مـدن اليونـان الوقـوف بوجهـه لكنـه اسـتولى عليهـا ووحدها تحت قيادته، وفي عام 334ق. م خرج الإسكندر في حملته على الشرق وكان عمره (22) عاماً. عبر الاسـكندر مضيق الدردنيل إلى طروادة وألتقي بأول جيوش الفرس عند نهر جرانيكوس حيث انتـصر علـيهم انتـصاراً سـاحقاً واستولى على مدن أسيا الصغرى وفي عام 333ق. م التقى الإسكندر الأكـبر بـالإمبراطور الفـارسي داريـوس الثالـث في موقعة (ايسوس) وانتصر عليه بينما فرّ داريوس هارباً. وقرر الإسكندر أن لا يتبع الإمبراطـور المهـزوم متبعـاً خطـة غريبة نوعمّا حيث استولى على الساحل الشرقي للبحر المتوسط للسيطرة على المدن الفينيقية، حيـث اسـتولى عـلى جبيل وصيدا وحاصر صور مدة سبعة أشهر حتى سقطت ثم توجه إلى دمشق وغزة ومنها إلى مصر ليعزل الأسطول الفارسي الكبير في البحر المتوسط عن الولايات الفارسية وبلاد فارس وأصبحت مصر تابعة له.

وفي عام 331ق. م، وبعد أن ثبت حكمه في مصر، عاد مرة أخرى إلى آسيا لينتصر عـلى داريـوس في موقعـة (جوجميلا)، ثم سار إلى إيران ودخل برسيبوليس عاصمة الإمبراطورية الفارسـية، ثـم اسـتولى عـلى بـلاد أفغانـستان وسمرقند ووصل إلى الهند في جهلوم فرفض رجال الإسكندر التقدم أكثر من ذلك، وفي عـام 323ق. م عـاد الإسـكندر إلى بابل، التي أتخذ منها عاصمة للإمبراطورية المقدونيـة التـي كوّنهـا في عـشر سـنوات، ليـنظم أمـور إمبراطوريتـه ويستأنف فيما بعد خطته في فتح بلاد العرب، ولكنه مات فجأة بـالحمى (بـسبب الملاريـا أو الطـاعون) وفي العـام نفسه تاركاً هذه الإمبراطورية دون وريث.

وبعد صراع طويل بين خلفاء الإسكندر انقسمت الإمبراطورية المقدونيـة إلى ثـلاث ممالـك هـي: البطلميـة والسلوقية والمقدونية.

السؤال الذي يطرح هنا هو: هل دخل الإسكندر المقدوني مدينة القدس؟ والحقيقـة أننـا لا نعثر في الكثير من المراجع القديمة على إجابة شافية، لكن علينا التوقف عند الروايـة القديمـة

الوحيدة حول دخول الاسكندر المقدوني إلى مدينة القدس عام 332ق. م التي أوردها (يوسيفوس) في كتابة عن تاريخ اليهود (الكتاب الحادي عشر-الفصل الثامن)[1]. وهي الرواية التي أثارت جدلاً وشكوكاً عند المؤرخين، وسنقوم بتلخيص هذه الرواية:

1. كان الفرس في عهد الملك داريوس قد أقاموا حاكماً على السامرة اسمه (سنبلاط)، وقد قام (سنبلاط) بتزويج إبنته من أحد أشراف القدس أسمه (منسه)، وهو أخ كاهن اليهود الأعظم في القدس (يهوياداع بن يوناثان) وكان هذا الزواج غير مقبول من اليهود وكاهنهم فطلبوا من (منسه) أن يتخلى عن زوجته لكنة رفض فقامت بينهم عداوة طويلة.
2. كان (سنبلاط) يأمل باقتراب جيش داريوس منه ليقوي مركزه ومركز (منسه) ويواجه تيار اليهود المضاد لهما. لكن هزيمة الجيش الفارسي على يد الإسكندر جعلته يفكر بالاقتراب من الإسكندر لتحقيق مآربه ومده بالمتطوعين.
3. أرسل الإسكندر إلى (يهوياداع) رسالة يطلب فيها الوقوف إلى جانبه ومدِّه بالمتطوعين من الوقوف مع الفرس، فلم يرد (يهوياداع) الجواب إلى الإسكندر. وكانت (صور) قد سقطت في يد الإسكندر فقرر الإسكندر أن يؤدب كاهنها الأعظم.
4. قام (سنبلاط) مع سبعة آلاف من رجالة بالتوجه إلى الإسكندر عندما كان منهمكاً بحصار غزة فقال له: أنه وقومه يؤثرون الدخول تحت رايته على البقاء في حكم داريوس، وقد حدّثه (سنبلاط) بما كان يدور في خلده في ذلك الحين عن صهره (منسه) وعن أخيه الكاهن الأعظم وأكدّ له أنه من مصلحة الملك أن تكون قوى اليهود مشطورة إلى شطرين لكي لا يتفقوا ويتحدوا، وإلاّ فإنهم يكونون مصدر شغب وتعب لملوك اليونان كما كانوا في السابق مصدر شغب وتعب لملوك آشور.
5. استطاع الاسكندر احتلال غزّة بعد حصارها فقرر الذهاب إلى القدس قاصداً تدميرها، فلما سمع اليهود باقتراب الإسكندر وجيشه من المدينة هرعوا جميعهم لاستقباله في ظاهرها ولم يبق أحد فيها، والتقى الإسكندر بشيوخهم وكهنتهم على جبل سكوبس (معناه الهدف والإشراف) شمال مدينة القدس (التي كان عدد أهلها آنذاك 120 ألفاً). وراحوا يرحبون بقدومه طالبين عفوه.
6. قام الكاهن يهوياداع بتقديم سفر دانيال (وهو أحد أسفار التوراة) وقد جاء فيه (أن أحد

اليونان سيتغلب على الفرس وسيقوّض عرش الأكاسرة) فأجاب الإسكندر بأنه رآه في حلمه وهو يحثه على مهاجمة الفرس، ثم دخل الإسكندر الهيكل وقدّم الذبائح هناك.

7. طلب الكاهن من جميع الكهنة أن يسموّا كل مولود ذكر يولد لهم في هذه السنة باسم (إسكندر) وأن يدعون له كلما دخلوا الهيكل.

8. رحب الإسكندر بكلام الكاهن وطلب منه عرض ما يريد فقال الكاهن انه لا يريد شيئاً سوى أن يتاح له العمل بقوانين أجداده، وأن لا يدفع الجزية في السنة السابعة، فمنحه الإسكندر ما يشاء، وطلب منه أن يتطوع من اليهود في جيشه وأن يرافقوه في حروبه فتطوع عدد منهم لهذه الغاية. وسأل الإسكندر رئيس الكهنة قائلاً: إنني ذاهب لمحاربة داريوس وقومه الفرس فهل ذلك بإرادة اللــه أم لا فأرجع إلى بلادي ،فقال له رئيس الكهنة: إذهب أيها الملك العظيم فإن اللـه معك.

9. عيّن الإسكندر رئيس الكهنة في القدس والياً عليها إضافةً لمنصبه الديني، وسكّ اليهود في المدينة على عهده نقوشاً كتب عليها (أورشليم المقدسة: خلاص صهيون. عصا هارون) ورسم عليها إناءٌ على شكل كوب بدون مقبض. وقد نقش عليها من الخلف بالعبرية شاقل إسرائيل، نصف شاقل، ربع شاقل[2].

وقد رفض معظم الباحثين هذه الرواية، فقد اعتبرها جورج مندنهول حكاية خيالية حول أحلام متبادلة أسفرت عن سماح الإسكندر للمجتمع (اليهودي) بأن يحكم بمقتضى قوانينه الخاصة. وقد مُدد هذا ليشمل أيضاً اليهود القاطنين في أي مكان في إمبراطوريته[3] ورفضها (تشركوفر) لعدم قيامها على أساس تاريخي لان سفر دانيال لم يكن قد كُتب في عهد الإسكندر[4].

ونرى أن الرواية ركيكة مثلها مثل أغلب روايات (يوسفيوس) حول تاريخ اليهود إذ لا تبرر مقدمتها الطويلة حول زواج إبنة سنبلاط ما قامت به السامرة من عداء للقدس، أو اتفاق مع الاسكندر، فمن المعروف العداوة بين السامرة والقدس قديمة جداً. وقد ضخّم يوسفيوس وجود الإسكندر في الهيكل اليهودي على غرار ما حصل للإسكندر في هيكل أمون سيوة في مصر، وهو ما يجعلنا نقرر أن يوسفيوس صاغ حكايته عن زيارة الإسكندر للقدس وهيكلها على غرار ما عرفه عن زيارة الاسكندر لسيوه وهيكلها، وتعدّ هذه الأخيرة راوية ثابتة من الناحية التاريخية.

ويهدف يوسفيوس إخفاء القوة والهيبة والانتباه لمدينة القدس واليهود في تلك العصور، في حين أنها لم تكن سوى مدينة بسيطة محتلة ولم يلفت النظر الدين الجديد الذي بدأ يظهر والمغلق على أهل السبي الذين لم يكونوا لوحدهم سكان القدس.

فكيف لنا أن نتخيل أهمية هذا الدين وسط تلك الأحداث والحضارات الكبرى المتلاطمة.. ووسط سقوط وصعود الأباطرة والملوك الكبار. ولا نعتقد أن الإسكندر الملتهب الخيال والطموحات والمشغول بحكم الأرض كلها سينتبه لمدينة صغيرة ولدين صغير في طور النشوء ونتذكر أنه انحدر مع الساحل الشامي للبحر المتوسط واحتل مدنه واحدةٌ بعد الأخرى ليصل إلى مصر أولاً ثم ليفصل الفرس عن أسطولهم البحري في المتوسط، فما علاقة القدس بهذه الأهداف.. أما المتطوعون في جيشه فلا يحتمل أن تشكل القدس أهمية بشرية كبيرة لتمده بهم.. ودليلنا على ذلك أن التوراة بكل ما جرفته من أحداث الأمم الأخرى لا تتحدث عن شخصية لامعة وكبيرة مثل الإسكندر المقدوني وغزوه للشرق.

ويرى تارن بأنة ليس من المستبعد أن تكون هيئة أركان حرب الإسكندر قد ظنت أنها دولة كهنة من الطراز المألوف لهم بآسيا الصغرى وسورية، ولم يكن (ثيوفراستوس) يعرف عن اليهود إلاّ أنهم من المتفلسفة المتطلعين للنجوم وأنهم الذين ابتدعوا التضحية البشرية[5].

ويقيناً أن القدس دخلت تلقائياً ضمن الإمبراطورية المقدونية وانتهت من الهيمنة الفارسية، ولا نمتلك أية معلومات أكيدة عن تغير وضعها الإداري والسياسي على ضوء هذه الحقيقة.

القدس في عهد البطالمة (**320-200**)ق. م

بطليموس الأول

فتح القدس والسبي البطلمي لليهود

إنقسمت الإمبراطورية المقدونية بعد وفاة الإسكندر وانعقاد مؤتمر بابل بين قواد الاسكندر كولاةٍ من قِبل الأسرة المالكة المقدونية، فقد قرر المؤتمر أن يعهد إلى بطليموس بن لاجوس بمصر والي لاومدون بسوريا.. إلخ.

وهكذا صارت القدس جزءاً من أصقاع بلاد الشام الكبيرة التي يحكمها لاومدون. وكانت حروب خلفاء الإسكندر قد بدأت منذ قيام بطليموس بسرقة الناووس الذي يحتوي على رفات الإسكندر، وهو في طريقه من بابل إلى مقدونيا، ونقله إلى منف ثم الإسكندرية.. وكان هذا يعني انشقاقاً على حكم برديكاس المركزي للإمبراطورية.

وما أن قُتل برديكاس (وصي الملك الجديد إبن الاسكندر) ثم توفي انتيباتروس حاكم بلاد الإغريق حتى أعلن بطليموس عن نواياه الواضحة في احتلال جوف سوريا (Qoele Syria) الذي كان يشمل فلسطين وجنوب سوريا ويحده شمالاً جبل حرمون (جبل الشيخ) وشرقاً نهر الأردن وغرب البحر المتوسط ومع جوف سوريا كانت فينيقيا أيضاً[6]..

وقد عرض بطليموس الأول (سوتر) وهو مؤسس الأسرة البطلمية في مصر على لاومدون حاكم سوريا أن يشتري منه جوف سوريا لكن لاومدون لم يوافق على ذلك فما كان من بطليموس الأول إلاّ احتلالها عام (319-318)ق. م[7].

قاومت القدس حملة بطليموس التي كان يقودها بنفسه، وأعلنت الولاء للاومدون فحاصرها بطليموس وصعبت علية، ولما علم أن سكانها اليهود يتوقفون عن أعمالهم ولا يحملون أسلحة أيام السبت اختار ذلك اليوم وهاجم المدينة ودكّ بعض أسوارها وتمكن من اقتحامها ثم سيطر عليها. وقام بسبي نحو مائة ألف من اليهود إلى مصر، وأثقل من تبقى في المدينة بالضرائب وعاملهم بقسوة ولكنه ما لبث أن تراجع عن سياسته تلك[8]. والحقيقة ان هذه الرواية، التي تمر سريعاً في تاريخ اليهود، لا يمكن أن تكون حقيقة إذ أن مائة ألف من اليهود المسبيين إلى مصر لا يقل عن عدد أصل اليهود المسبيين إلى بابل قبل عدة قرون بل أنه يفوقه بأضعاف!! إننا لا ننفي الحادثة بل ننفي عدد المسبيين ونعتبر ذلك من مبالغات الروايات عن المعارك والحروب.

لقد حصل السبي البطلمي لليهود ولكنه تضمن بضعة آلاف من اليهود ولكن هذا السبي كان مؤثراً في نتائجه أيضاً فقد أتاح لليهود نقل ديانتهم إلى مصر وشمال أفريقيا وهو أول انتشار واسع وكبير لليهود خارج يهوذا.

يذكر المؤرخ اليهودي (يوسفيوس) أن "بطليموس أرسل فريقاً من اليهود إلى مدينة قوريني (شحات) ليستقروا بها، ذلك لأنه كان مهتماً بتشديد قبضته على هذه المدينة ومدن ليبيا (برقة) الأخرى"[9].

وهناك عدد كبير من اليهود بقوا في مصر وأصبحوا في الجيش البطلمي وسكن أغلبهم الإسكندرية وسرعان ما تأقلموا مع الجو الإغريقي فيها وتركوا لغتهم الآرامية وتعلموا اليونانية وكونوا لهم جالية كبيرة سكنت الحي الرابع المسمى (دلتا) من أحياء الإسكندرية الخمس[10].

ويشير هذا إلى أن بطليموس الأول قبل أن يصبح ملكاً على مصر، أي عندما كان والياً على مصر، غزا فلسطين والقدس وسبى اليهود، بل ونقل بعضاً منهم إلى قوريني (برقة) في ليبيا "ويُفهم أيضاً من قول يوسف أن العناصر اليهودية الأولى في برقة كانت ذات صبغة عسكرية. وقياساً على ما حدث بمصر يرجّح أن غالبية الجند اليهود كانوا من الأسرى الذين أتى بهم بطليموس نتيجة لغزواته المتكررة لأرض فلسطين"[11].

وهذا يعني أن اليهود انتشروا الآن خارج القدس على جناحين أو لهما بقي في بابل بعد السبي الأكبر وثانيهما في مصر وليبيا منذ السبي البطلمي. "ويبدو كذلك أن بعض اليهود في أرض يهوذا بفلسطين. المتمسكين بحرفية الشريعة لجئوا إلى برقة وانضموا إلى يهودها إبان تلك الفترة التي تعرضوا فيها لمحنة قاسية عندما أراد أنطيوخس أن يحملهم على التأغرق"[12].

وفي عام 301 ق. م، بعد معركة إبسوس في فريجيا الكبرى، انحلت إمبراطورية الإسكندر ودخلت في مرحلة التفكك النهائي ولم يعد هناك طريق لعودتها.

وعندما قرر حلفاء بطليموس إعطاء جوف سوريا (ومن ضمنها القدس) إلى سلوقس كان قلب بطليموس يغلي لفقدانه جوف سوريا الذي يعتبر بالنسبة لمصر منذ العصور الفرعونية القديمة عمقاً استراتيجياً وعسكرياً.

"ومن أجل هذا يعتبر اتفاق عام 301 ق. م السبب المباشر في خلق ما يسمي بالمسألة السورية لأن بطليموس يعتبر نفسه صاحب الحق الأول في سوريا الجنوبية وفعلاً عاد واحتلها للمرة الرابعة عقب معركة ابسوس"[13].

لكن سلوقس تمسك باتفاق القواد ورأى أن بطليموس قد فقد حقه في سو ريا وطالبه بالانسحاب منها لكنه لم يتخذ أية خطوة إيجابية بسبب الصداقة التي كانت بين الملكين ولكن سلوقس تمسك رسمياً بسيادته على سوريا.

وإذا كانت الدولة السلوقية قد أسست لنفسها كياناً يمتد من الهند إلى سوريا الشمالية، فإن سوريا الجنوبية ومنها فلسطين لم تتبع لأي من الدولتين السلوقية أو البطلمية بل ظلت معلقة ولو أن هناك ما يشير إلى وجود بطلمي واضح فيها حتى مجيء بطليموس الثاني.

أما القدس نفسها فقد وقعت تحت كاهل ثقيل من الضرائب، فقد رفض الكاهن الأعظم للقدس دفع الجزية التي فرضها عليه بطليموس فأرسل بطليموس أحد عمّاله إلى القدس ليرغم أهلها على الدفع وهددهم بالطرد فعظم القلق في القدس فأوفدوا رجلاً يدعى (يوسف بن طوبياس) وكان معروفاً بذكائه فأصبح مديراً للمال والجباة في سوريا وفينيقيا وأرفقه بألفي جندي مستأجر لهذه الغاية ليتمكن من تحصيل الضرائب بالقوة عند اللزوم[14].

وقعت القدس ومعها فلسطين تحت حكم بطليموس حوالي (36) سنة لا نعرف خلالها الشيء الكثير عن القدس ولكننا نرجّع أنها كانت سنوات صعبة يمكن أن يكون حال مدينة مفتوحة مسبية مثقلة بالضرائب مترنحة بين الصراعات الدائرة في مملكة حديثة مازالت قلقة إلى حدٍّ كبير.

وفي هذه الفترة واصل كهنة اليهود استكمال كتابة أسفارهم الباقية، إذ ربما كتب جزء من سفر زكريا (الإصحاحات من 9-14)، وربما كان تاريخ كتابة سفر إرميا هو 306ق. م وسفر يونان (يونس) حولي 300ق. م[15].

بطليمــوس الثانــي

الحرب السورية الأولى والثانية

وعودة السبي والترجمة السبعونية

خاض بطليموس الثاني (فيلادلفيوس أي المحب لأخته) (283-246)ق. م حربين كبيرتين في سوريا هما الحرب السورية الأولى والثانية ضمن مسلسل الحروب الستة التي حصلت بين البطالمة والسلوقيين في فلسطين.

نشبت الحرب السورية الأولي عام 276ق. م حول جوف سوريا الجنوبية وخرجت قوات بطليموس لتحتل دمشق لكن أنطيوخس الأول (السلوقي) أسترجعها فاحتفظت مصر بفلسطين وفينيقيا.

أما الحرب السورية الثانية فقد نشبت عام 262ق. م لكن مصر كانت في ظرف دولي صعب حيث هزمت في اكثر من مكان في آسيا الصغرى وسواحل آسيا الغربية وبحر إيجة، وانتهت الحر ب عام 253ق. م بصفقة زواجٍ سياسي تزوج فيها أنطيوخس الثاني إبنة بطليموس

الثاني (برنيكي) شريطة أن يدفع أنطيوخس مبلغاً كبيراً من المال إلى جانب تنازل السلوقيين عن المطالبة بجوف سوريا ولذلك سميت برنيكي بحاملة المهر (Phorno phoros)[16].

ويبدو أن بطليموس الثاني كان متسامحاً مع اليهود، فقد رفع الحظر عن اليهود الأسرى في مصر وسمح لمن يريد العودة منهم إلى يهوذا أو القدس رغم أننا لا نملك معلومات أكيدة ودقيقة عن هذا الموضوع وترجيحنا لعدم عودة عدد كبير من اليهود إلى فلسطين فقد بقي أغلبهم في مصر وليبيا وشكلوا فيها جاليات واضحة.

لكن الحدث الأهم الذي يُذكر في عهد بطليموس الثاني هو (الترجمة السبعونية) لبعض أسفار التوراة إلى اللغة اليونانية (Septuagint) وتروي كتب لأخبار القديمة قصصاً أسطورية حول هذا الترجمة علينا تحليلها وتمحيصها علمياً منها أن بطليموس الثاني استقدم إلى الإسكندرية (72) عالِماً من يهود فلسطين وكلفهم بان يقوم كلّ واحدٍ منهم على انفراد بترجمة التوراة إلى اليونانية، وبعد (72) يوماً فرغوا جميعاً من الترجمة ولما قورنت التراجم المختلفة وجد أنها مطابقة لبعضها البعض مما يعني أن ترجمة الكتاب المقدس قد تمت بوحي من الإله حتى لا تختلف كلماته عند الترجمة[17].

ويرى وليم وود تورب تارن أن هذه القصة ما هي إلاّ حديث خرافة وأن هذه الترجمة امتدت لفترة طويلة من الزمن حيث تمّ نقل الأسفار الخمسة الأولى وهي التوراة في القرن الثالث قبل الميلاد، وترجم أشعياء وإرمياء بين (170-132)ق. م، ونقل سفر الأنبياء وسفر المزامير بصورة عامة حوالي (132)ق. م، على حين أن الكتاب الأخير وهو سفر الجامعة لم يترجم إلاّ حوالي (100) ميلادية[18].

ويرى تارن أيضاً أن يهود الإسكندرية قد أصبحوا يستخدمون في الجيل الثاني اللغة اليونانية وفقدوا لسانهم الأصلي، كما يرى أن بطليموس الثاني كان صديقاً لهم بدرجة جعلت مثل هذا العمل ينسب إليه[19].

ولاشك إن مشروع الترجمة الطويل قام به يهود مصريون تأغرقوا في فترة مبكرة "لأن كثيراً من اليهود كانوا قد تأغرقوا تماماً وأصبحت اليونانية هي لغتهم الوحيدة وبعد إتمام الترجمة نجد أن هذا الاتجاه يشتد وتصبح المراسيم الدينية تؤدى باللغة اليونانية، وبالتدريج، يفقد اليهود في مصر أي صفة مميزة لهم عن الإغريق، فاتخذوا الزي اليوناني وتسموا بأسماء إغريقية وتحدثوا

اللغة اليونانية"[20]. أما أوضاع القدس فيبدو أنها نعمت باستقرار نسبي في ظل حكم بطليموس الثاني ولم تردنا أخبار استثنائية عنها.

بطليموس الثالث

الحرب السورية الثالثة وجزية القــدس

كان بطليموس الثالث (يورجيتس الأول أي الخيّر) (246-221)ق. م متزناً ومتمتعاً بأخلاقٍ رفيعةٍ ومحباً للعلم والثقافة والتنوير. وكان قد أشعل فتيل الحرب السورية الثالثة عام 246ق.م انتقاماً لمقتل أخته (حاملة المهر) على يد الزوجة الأولى للملك السلوقي أنطيوخس الثــاني (لاوديقا)، فقام باحتلال سوريا الشمالية وكليكيا ثم عبر الفرات ووصل إلى مدينة سلوقية على نهر دجلة دون مقاومة تُذكر، وأصبح الجناح الغربي للإمبراطورية السلوقية تابعاً له، ولكن عاد في آخر لحظةٍ إلى مصر بسبب حدوث مجاعة فيها، ثم أعاد سلوقس الثاني سوريا الشمالية وكليكيا وظلت مصر محتفظةً بفلسطين وفينقيا.

وحاول سلوقس الثاني بكل الوسائل إضعاف مصر فلجأ إلى التحالف ضدها مع مقدونيا وحرّض بعض المدن الواقعة تحت سيطرة مصر، ومنها القدس، بعدم دفع الجزية لها.

فقام الكاهن الأكبر للقدس (اونياس الثاني) بعدم دفع الجزية فأرسل بطليموس عاملاً إلى القدس لإرغامهم على الدفع وهددهم بالطرد، فعظُمَ القلق في المدينة ثم أوفدوا رسولاً من ملتهم إلى بطليموس استطاع أن ينال حظوةً لديه ويجعله يعفي اليهود من معظم الجزية التي كانت قد تراكمت عليهم[21].

كانت القدس حتى هذا الوقت بعيدة عن الهلينة (إدخال الثقافة الهيلينية على الشعوب الشرقية) وكانت واقعة تحت تأثير عائلتين رئيسيتين متصارعتين أولهما عائلة اونياس oniads الذين كانت بيدهم وظيفة رئيس الكهنة وعائلة طوبيا tobiads الذين كان معقلهم بالقرب من حشبون في عمّون، وربما كانوا من دم عموني إلى حدٍّ ما وربما لم يكونوا كذلك[22].

بطليموس الرابع

الحرب السورية الرابعة

وأول محاولة لهلينة القدس

كانت الحروب السورية الثلاثة التي خاضها البطالمة ضد السلوقيين تعطي شعوراً بالانطباع بأن ارض فلسطين لم تكن، في حقيقة الأمر، ملكاً لأحدهما وكانت هناك ثلاثة تيارات بادية للعيان فيما يخص ارض فلسطين والقدس، أولاهما يتملق الحكام البطالمة ويندرج في الشروع بالهلينة، والثاني يعمل سراً مع السلوقيين ويندرج هو الآخر بالهلينة، أما الاتجاه الثالث فكان يدعو للتخلص من البطالمة والسلوقيين معاً.

وكانت هذه التيارات الثلاثة، كلها، تنمو في وقت واحد وباتجاه واحد. كان بطليموس الرابع (فيلوباتر أي المحِّب لأبيه) (221-205)ق. م. شخصاً متهوراً ضعيف الأخلاق سيطرت عليه منذ بداية حكمة عصابة باخوسية متهتكة جعلته يطلق على نفسه لقب (ديونسيوس الجديد)، وقد استغل أنطيوخس الثالث ضعف الملك البطلمي فشنَّ الحرب السورية الرابعة (221-217)ق. م ففشل أول مرة، ثم نجح مؤقتاً، ثم انحدر في معركة رفح التي استبسل فيها الفلاحون المصريون وأعادوا للبلاط البطلمي سوريا الجنوبية من سيطرةٍ سلوقيةٍ أكيدة.

كان بطليموس الرابع يقود معركة رفح وفاز بغنائم وفيرة، لم تكن في الحسبان، بينما فرّ أنطيوخس متجهاً إلى أنطاكيا. وقد زار بطليموس الرابع عام 217 ق. م عندما كان في فلسطين عدة مدن منها القدس ويبدو أنه زار الهيكل وقدّم هناك تقدمة له ثم أراد الدخول إلى (قدس الأقداس) فمنعه رئيس الكهنة فاغتاظ من ذلك جداً وأخذ يضطهد اليهود[23].

وهناك مراجع تتحدث عن محاولة بطليموس الرابع لهلينة القدس والدين اليهودي وربما حصل هذا بعد زيارته للقدس ورجوعه غاضباً من اليهود. رأى بطليموس الرابع انه يمكن، من ناحية، مطابقة الإله زيوس في صورة سابا يوس مع اصباؤوت (بحكم التقارب اللفظي بينهما)، ومن ناحية أخرى يمكن مطابقة الإله الهيلنستي (سرابيس) مع الإله (ديونسيوس) (إله الخمرة والقصف) وذلك لوجود تتطابق بين ديونسيوس وأوزريس المصري أصل سرابيس، خصوصاً أنه كان يرى أن بالإمكان تعميم نموذج سرابيس الهيلنستي على اليهود وإنشاء ديانةٍ موحدة تجمع (أوزريس وزيوس وديونسيوس ويهوا) بالإضافة لـ(سرابيس) وإذا كان البطالمة قد نجحوا قليلاً

في صياغة الديانة الهيلينية الجديدة عبر سرابيس وأقنعوا المصريين بها، فإنهم، وفق صياغة بطليموس هذا فشلوا فشلاً ذريعاً لأنهم لم يحسبوا حساباً لنزعة التوحيد اليهودية وأنهم إزاء دين جديد يختلف عن الأديان المحيطة به والتي يمكن تطويعها وفق رؤية إغريقية. ورغم إننا لانعرف مدى جهد بطليموس الرابع لإدخال عبادة ديونسيوس في يهوذا، إن كان قد بذل أي جهد في هذا السبيل، ولكنة يقيناً أثار فعلاً عداوة شطرٍ من رعاياه. فبذلوا كل جهد لتشويه ذكراه كما يتجلى ذلك في سفر المكابيين، ويقدم الينا سفر الجامعة صورة مفجعة لدولة اليهود كما يصورها الجانب الأرستقراطي في نهاية حكم هذه الملك[24].

بطليموس الخامس

الحرب السورية الخامسة

ونهاية حكم البطالمة للقدس وفلسطين

عندما اعتلى بطليموس الخامس (ابيفانس- المتجلي أو الظاهر) (205-180)ق. م عرش مصر كان صبياً في الخامسة من عمره، وكانت عصابة سوسبيوس وأجاثوكلس تعبث في القصر البطلمي. وبعد زمن تقدم رئيس حامية بلوزيوم واسمه (تليبو ليموس) وأعلن الثورة على القصر ثم أصبح وصياً على الملك ثم جاء بعده (أرستومينس) الذي بدأت في عصره الحرب السورية الخامسة (202–200)ق. م، فقد استغل أنطيوخس الثالث في سوريا اضطرابات الحكم في مصر وصغر سن الملك البطلمي وقام بالزحف جنوباً واستولى على سوريا الجنوبية وفينيقيا وسقطت غزة في يده عام (202) ق. م. ورغم أن ارستومينس الوصي حاول إنقاذ سوريا الجنوبية إلاّ انه فشل. وفي هذه الأثناء كانت روما قد حققت نصراً كبيراً على قرطاج في الحرب البونية الثانية وأصبح مركزها قوياً في البحر المتوسط فأرسلت عام (202)ق. م مبعوثاً رومانياً إلى مصر اسمه (لبيدوس) أُشيع أنه أصبح وصياً رومانياً على بطليموس الخامس. ولكن أحداً لم يستطع أن يحرك واقع الحال الذي فرضه السلوقيون على الأرض، وهكذا أصبحت بلاد الشام كلها تحت الحكم السلوقي نهائياً.

حصل ذلك في عام (200) ق. م تماماً.. وبذلك انتهى حكم البطالمة لفلسطين والقدس.

ولم يكن لبطليموس الخامس الذي كان عمره آنذاك عشر سنوات أي دور يذكر في تاريخ القدس. إلاّ انه في عهده، داخل مصر، وتحديداً في مدينة أثريبس (محلها الحالي بنها) قام اليهود في مصر بالانجذاب إلى سياسة الهلينة الإغريقية فجعلوا لـ (يهوا) مقابلاً إغريقياً هو ثيوهبسستوس Theos Hipsistos، ومعناه الرب الأعلى (وهو اسم استخدمه فيما بعد فيلون اليهودي[25]. وكان هذا الإله يُعبد في آسيا الصغرى، وفي مصر وتحديداً في أثريبس كرّس اليهود معبداً له باسم (بطليموس الخامس وزوجته الملكة)[26].

وقد ظهرت جمعية دينية تعبد هيباستيوس على أنه سابازيوس الذي طابقوه مع رب الجنود اليهودي (صباؤوث) وهو لقب من ألقاب (يهوا). ومن هذه النقطة نعثر على حلّ اللغز الذي كان وراء طرد الرومان لليهود عام 139، فقد قام اليهود بإدخال عبادة سابازيوس إلى روما (وكانوا يقصدون به اصباؤوث يهوا) تحت اسمٍ إغريقي قريب منه.

إذاً فقد دخل يهود الشتات الهيليني، بشكل خاص، في متاهات الدين الاغريقي، وينطبق على ما فعله اليهود المطابقة بين اسم المقصورة المقدس لكاهنة كلدانية وهي (سامبيثون) مع أسم (سامبثوس) أي المولود في السبت وهو أسم يهودي شائع في مصر.. إلخ.

وهكذا أظهرا الدين اليهودي هشاشته اللغوية والفلسفية والروحية أمام الثقافة الإغريقية وكان سقوطه سهلاً تحت أية سلطة دينية وافدة، فقد هبت رياح المثولوجيا الإغريقية عليه وبلبلت صموده التوحيدي المزعوم، وسنرى أن سياسة الهلينة هذه تتضح بفاعلية أكبر داخل فلسطين بل وداخل القدس وسينتج عنها صراع كبير بين القدس والسلوقيين.

لم تكن سياسة الهلينة قد اتخذت طابعاً حاداً من قبل البطالمة ولذلك كان البيت الديني الحاكم في القدس (يرأسه الكاهن الأكبر أونياس) ويميل إلى البطالمة، أما البيت السياسي (يرأسه طوبيا) فقد كان يميل إلى السلوقيين والى سياسة الهلينة التي كانوا يلوّحون بها.

مع نهاية الصراع لصالح السلوقيين بدأ البيت السياسي يشتد قوة، وبدأ الانفتاح على الهيلينية داخل القدس يزداد، وكان ذلك يحصل بسبب تذمر أثرياء القدس من الضرائب البطلمية الكبيرة واضطرار اليهود إلى الهجرة عن فلسطين إلى الشتات.

وفي حومة هذا الصراع أكمل اليهود كتابة (سفر الجامعة) حوالي عام 200 ق. م وحمل هذا السفر أثراً هيلينياً واضحاً وكذلك سفر الأمثال وكان ذلك بمثابة نتاج تفاعل بين اليهودية والهيلينية "وربما كانت الهيلنستية اليهودية هي المرأة الأجنبية الملقة بكلامها التي يذكرها سفر

الأمثال ولكن بيتها يهبط إلى جذور الموت، وقد اتهموا بإهمال الختان وانهم يتصفون بكل النقـائص الخلقيـة التـي تنسب عادة في العهد القديم للمارقين المرتدين"[26].

القدس في عهد السلوقيين **200-63** ق. م

أنطيوخس الثالث (الكبير)

التسامح مع اليهود

كان أنطيوخس الثالث (الكبـير) (223- 187)ق. م طموحـاً، فبعـد احتلالـه لجنـوب سـوريا دخـل في حـرب طويلة مع الرومان خسر فيها كلّ أمجاده واضطره إلى توقيع معاهدة صـلح مهينـة مـع رومـا عـام 188 ق. م هـي معاهده أباميا. ويبدو انه زار مدينة القـدس واسـتقبله اليهـود فيهـا بالـسرور فعـاملهم برفـق وأطلـق لهـم حريـة معتقدهم واكمل الإصلاحات التي بقيت لازمه في الهيكل وأعفى اليهود من الضرائب لفترة من الزمن،

سلوقس الرابع (يوباتر)

نزاعات اليهود الداخلية

في عهد الملك السلوقي الرابع (187 –175) ق. م بدأت نزاعات داخلية بـين اليهـود أنفـسهم، وقـد مهـدت هذه النـزاعات لظهور الهيلينية السلوقية في القدس بأوسع أشكالها. نشب الخلاف أولاً بين رئيس الكهنـة (أونيـاس الثالث) ورئيس حرس الهيكل (سمعان) ثم اتفق سمعان مع الملك على سحب أموال الهيكل وأخذها للملـك، وكـاد أمين صندوق المملكة، حين حاول دخول الهيكل لينفذ هذا الموضوع أن يقتل وعاد الملك معه دون نتيجة[29].

وترك هذا الحادث شرخاً في المؤسسة الدينية اليهودية استطاع السلوقيون أن ينفذوا منها لاحقاً لتنفيـذ مـا يريدون أو لهلينة اليهود.

وخلال هذه الفترة أسس السامريون لهم هيكلاً في (جزريم) على غرار هيكل (يهوا) في القدس ويـرجّح أن يكون هذا الهيكل للإله (إيل) وسيفعل مثل ذلك يهود مصر بعد حـوالي عقـدين عـلى يـد الكـاهن الأكـبر أونيـاس الرابع الذي فرّ إلى مصر.

أنطيوخس الرابع

هلينة اليهود

كان الملك أنطيوخس الرابع (أبيفاس، الظاهر أو المتجلي) (175-164) ق. م آخر الملوك السلوقيين الأقوياء، وهو الذي بلغت به الجرأة أن غزا مصر مرتين وأشعل فتيل ما يسمى خطأً بـ(الحرب السورية السادسة) التي لم تجر بسبب سوريا الجنوبية ولم تكن على أرضها بل على أرض مصر. بدأ هذا الملك حكمه بشق صفوف كهنة اليهود في القدس، وقام ببيع منصب الكهنوتية لـ(يشوع) أخ (أونياس الثالث) رئيس الكهنة الشرعي، وكان ذلك مرهوناً لقيام يشوع بنشر الهيلينية في الدين اليهودي فغيّر اسمه الأول إلى (ياسون) وأنشأ في القدس ملعباً وميداناً للعب والاحتفالات فعمّ الفساد العامة وحتى الكهنة أنفسهم فأنهم هاموا في أودية الرذائل لما رأوا رئيسهم من أئمة الإثم والمعصية[30].

وهكذا بدأت الهيلينية بالنفوذ داخل المجتمع اليهودي، ويقول ج. أ. سمث "إن العالم الوثني لم يعد يضرب شواطئ يهوذا ذلك الضرب الذي قرع أسماع إشعياء، لم يعد يلطمه في غضب وصخب كما تلطم أمواج البحر الهائج شاطئ فلسطين الوعر، بل أخذ يداعبه الآن بموسيقى الحرية والمغامرة والثروة والسعادة الحرة التي لا حدود لها"[31].

ولاشك أن هناك معارضة للأساليب الهيلينية ولكنّ الأُسر النبيلة الغنية، بل وأوساط الكهنة أيضاً تغلغلت فيها المطامع الدنيوية.

لكن الكاهن الأكبر (أونياس الثالث) لم يسكت على هذا الأمر فقام باستعادة منصبه عن طريق شرائه بمبلغ أكبر من المبلغ الذي قدّمه أخوه وسمّى نفسه اسماً هيلينياً هو (منلاوس)، وقد أضطر لبيع بعض أواني وتحف الهيكل ليسدد المبلغ لأنطيوخس الرابع. وعندما أفتضح أمره حدث شغب واضطراب في القدس.

وفي أثناء غزو أنطيوخس لمصر وبدء الحرب السورية السادسة، قام الكاهن المخلوع ياسون (يشوع) وقاد قوة عسكرية تقدر بألف جندي ودخل بها إلى القدس واستولى عليها وحاصر أخاه أونياس الثالث (منلاوس) في البرج وقتل الكثير من اليهود أتباع أونياس ولكنه لم يتمكن من احتلال القدس كلها، وهكذا عمت الفوضى مدينة القدس.

ورغم أن أنطيوخس الرابع كان قد حقق نصراً كبيراً في مصر إبان غزوته الأولى لها وتنصب ملكاً على مصر في منف ثم زحف منها إلى الإسكندرية العاصمة لكنه عندما سمع باضطرابات القدس ترك كل ما حققه هناك وعاد إلى فلسطين وذهب مباشرة إلى المدينة وانتقم من جميع معارضيه هناك، ونهب الهيكل وعيّن لحفظ المدينة قائداً يونانياً يدعى (فيلبس) وأقاما والياً على المدينة مع قوة عسكرية، وانتهى بذلك عهد (اونياس) (يشوع) تماماً. وفي عام 168ق.م أرسل أنطيوخس الرابع رئيس الجزية (أبولونيوس) إلى القدس وبقيه مدن ولاية يهوذا على رأس اثنين وعشرين ألف جندي للقضاء على اليهود نهائياً في المدينة، وحين وصل لها أظهر السلام في بداية الأمر ثم انتظر يوم السبت وحين تعطل اليهود عن حمل السلاح انقضّ عليهم وقتل منهم كثيرين ثم أنقضّ على المدينة وأحرقها وأسر من فيها وبلغ عدد القتلة والأسرى حوالي (84) ألفاً، ثم بنى قلعة عسكرية سميت (أكرا) اتخذت حصناً للقوات السلوقية وللسيطرة على المدينة.

وفي هذه المرحلة بالذات بدأت الهلينة المنظمة لليهود والتي قام بها أنطيوخس الرابع لطبع القدس بالطبع اليوناني، وأوكل هذه المهمة إلى والٍ جديد عليها هو (أثنيوس) وقد كانت مظاهر هلينة القدس وما جاورها واضحة في الإجراءات التالية:

1. استبدال الإله (يهوا) بالإله زيوس أوليمبوس Zeus olympios إله المشتري في هيكل القدس الرئيسي وإقامة مذبح إغريقي (وزر الأوزار) على المذبح المقدّس ليهوا في فناء ذلك المعبد ونصب تمثال للإله زيوس.
2. استبدال معبد (يهوا) كلياً إلى معبد زيوس زينوس Zeus Xenios على جبل جرزيم في السامرة وإقامة تمثال له.
3. تحريم الختان.
4. تحريم الامتناع عن أكل لحم الخنزير، وتقديم ذبائح الخنازير إلى الإله زيوس.
5. التفتيش عن نسخ (سفر الشريعة) وإعدامها وإعدام من احتفظوا بها.

وقد استجاب الكثير من اليهود لدعوة أنطيوخس الرابع وأخذوا ينخرطون في الديانة الإغريقية ويتركون ديانتهم اليهودية. أما الذين تمسكوا بديانتهم فكانوا هم (حزب الناموسيين) أو (القديسون) ويسمون (الحسديم) أي (المؤمنون الأوفياء) فقد قرروا أن يقفوا بوجه السلوقيين ويقودون المقاومة ضدهم.

وبدأ الصراع مركباً شديداً عنيفاً بين هذين الفريقين والسلوقيين وكان من أهم نتائجه هـرب بعـض اليهـود إلى مناطق خارج القدس وخارج يهوذا والذي أدى إلى أحداث جديدة كما سنرى.

دولة يهوديّا Ioudaia 164ق. م-70م

1. دولة يهوديّا المكابية (**142-106**)ق. م.

هرب بعض يهود القدس من الاضطهاد الديني للسلوقيين ومحاولة إدخالهم في الهيلينية ديناً وتراثـاً. وكـان حكم أنطيوخس مازال في سنينه الأخيرة.

وربما كان من بين الذين هربوا إلى مدينة (مودين) رجل يدعى (متتيا) مـن أسرة تـدعى أسرة الحـشمونية (Hasmonaeos) أو الإشمونية ولقبها هذا يوحي بجذورها المرتبطة بالإله (إشمون) إلـه الطـب الكنعـاني الـذي كـان يعبد على نطاق واسع في فلسطين والذي طابقه الإغريق مع الإله (إسكلابيوس) ولكننا لا نعـرف عـلى وجـه الدقـة علاقة هذه الأسرة بهذا الإله.

وكان لـ(متتيا) خمسة أولادهم (يوحنا، سمعان، يهوذا، إلعازر، يوناثان) وكان يهوذا يلقب بـ(مكابيوس) أو (المكابي) ومعناه (المطرقة) وهو أكثرهم همّة وقوة.

ونرى أن أسرة الحشمونية كانت موجودة أصلاً في مدينة (مـودين) والتـي نـرجّح أن تكـون (مـدين) التـي كانت فيها أُسر يهودية والتي كانت تتعبد أصلاً الإله (يهوا) قبل أن يصير الإله الأوحد لأهل يهوذا. كـان موقعهـا في جنوب يهوذا متاخماً للصحراء.

ودليلنا على أن أسرة الحشمونيين كانت أصلاً في مدينة (مـودين) قيـام (متتيـا) أب الأسرة في ذلـك الوقـت بقتل رسول أنطيوخس الرابع القادم لهلينة المدينة ولذلك فرّ من (مودين) إلى الجبال وأعلن الثورة والعـصيان ضـد الحكم السلوقي وقد هزم حملة عسكرية أُرسلت ضده من القدس.

بعد وفاة (متتيا) عام 166ق. م بدأت مرحلة جديدة فقد أسس إبنه يهوذا المكابي دولة جديدة هي (دولـة يهوديّـا) أو (دولة يهوديّة) التي قدر لها البقاء تحت ظل الانقسامات والاضطرابات السلوقية والبطلمية والرومانيـة مـدة تقـترب مـن قرنين ونصف (164ق. م-70م)، ولطالما التبس الأمر كثيراً على المؤرخين والباحثين، بقـصد وبـدون قـصد، وخلطـوا بـين دولتـي

(يهوذا Iouda) و(يهوديّا Ioudaia) على اعتبار أن الثانية استمرار للأولى وأن الفارق الصوتي بينهما قليل. وهذا خطأٌ فادح. فيهوذا هي الدولة الإقليمية التي أخضعها نبوخذنصّر إلى مملكته البابلية ودمّر عاصمتها القدس (أورشليم) ولم تستمر تحت الاحتلال الفارسي كدولة أو مملكةٍ إقليمية بل ظلت مدينة القدس وريثةً لتلك الدولة الآفلة واستمرت مدينة القدس بتبدلاتها الإثنية الدينية المعروفة مع الإحتلالين البطلمي والسلوقي.

ولم تكن نشأة يهوذا على علاقة باليهود كما عرفنا. أما (يهوديّا) فهي الدولة التي أنشأها يهوذا المكابي في عام 164ق. م ولا تطابق خارطتها خارطة دولة يهوذا وكانت عاصمتها القدس لفترات معينة فقط.

ينقسم تاريخ (يهوديّا) إلى أربعة عهود موضّحةً في هذا الجدول:

إسم الأسرة	الملك (الحاكم)	صفته	الفترة الزمنية
المكابية	1. يهوذا المكابي	إبن متتيا	167-161ق. م
	2. يوناثان	أخ يهوذا	161-144ق. م
	3. سمعان	أخ يهوذا	144-135 ق. م
	4. يوحنّا (هركانوس الأول)	إبن سمعان	135-106 ق. م
الحاشمونية	5. أرسطو بولوس الأول (فلهلن)	إبن يوحنّا	106-103 ق.م
	6. إسكندرينيوس (حنايوس)	إبن أرسطو بولوس	103-76 ق.م
	7. إسكندره (سالوم الكزاندرا)	أم اسكندرينيوس	76-67 ق. م
	8. أرسطو بولوس	إبن اسكندره	67-63 ق. م
	9. هركانوس الثاني	أخ أرسطو بولوس	63-48 ق. م
الهيرودية	10. أنتباتر	من أصل آدومي	48-43 ق. م
	11. هيرودوس الأكبر		43-4 ق. م
	12. تقسيم يهوديّا إلى أربعة أقسام يحكم ثلاثة منها أبناء هيرودوس والرابع حاكم روماني، وأصبحت قيسارية هي العاصمة بدلاً من القدس.	ثلاثة أبناء هيرودوس+حاكم روماني	4 ق. م-37م
	13. هيرودوس أغريبا عودة يهوديّا الموحدة وعاصمتها القدس	حفيد هيرودوس الأكبر	37-44م

تقسيم يهوديّا	14. تقسيم يهوديّا إلى أقسام وعاصمتها قيـسارية، حكم القدس سبعة ولاة رومان.		44-70م

جدول (6) تاريخ مملكة (دولة) يهوديّا وأسرها الحاكمة

تاريخ دولة يهوديّا

أ. الأسرة المكابية (**164-106**)ق. م

1. يهوذا المكابي (161-167)ق. م

أسس يهـوذا المكـابي دولـة أو مملكـة يهوديّـا (يهوديّـه) الإقليميـة الـصغيرة. وقـد بـدأ يهـوذا ثورتـه ضـد السلوقيين، بعد وفاة أبيه (متتيا)، بهجوم ناجح على مدينة القدس عام 164ق. م هزم فيه السلوقيين رغم بقاء قلعة (أكرا) بيدهم.

كان أنطيوخس الرابع منشغلاً بصد الفرثيين شرقاً فتوجه إلى إيران وأوكل مهام مملكته إلى (ليسياس) فقام هذا بحملة استطلاعية في بلاد يهوذا ورأى أن من الحكمة إتباع سياسة معتدلة مع أهلها فـأوقف اضـطهاد اليهـود وحزب القديسين ودعاهم للعيش جنباً إلى جنب مع اليهود الهيلنـستيين وأعـاد الهيكـل إلى (يهـوا) وأعـاد الكـاهن (مينلاوس) زعيم اليهود المتأغرقين كاهناً أكبر،

وفي عام 163ق. م توفي أنطيوخس الرابع في أصفهان (جاباي) وجاء بعده إبنه الطفـل أنطيـوخس الخـامس وكان وصيّاه هما (ليسياس) و(فيليب) فتناحرا وهرب فيليب إلى مـصر. واسـتغل يهـوذا المكـابي هـذه الاضـطرابات فقام خلال الفترة (164-162)ق. م بهجومات كثيرة شرق الأردن وشـمال فلـسطين ولم ينـتج عنهـا شـئ سـوى القتـل والتدمير المجانيين.

قام ليسياس عام 163ق. م بمحاولة استعادة القدس من يهوذا المكـابي وفـك الحـصار عـن قواتـه الـسلوقية هناك، فانتصر على يهوذا عند بيت صور وقتل أخاه إلعازر، فتراجع يهوذا إلى القدس وتحصن بهـا فـضرب ليـسياس حصاره حولها وضيّق عليها وضربها بالمنجنيقات لأيامٍ لكنّ أخبار الاضطرابات التي بدأت تحـدث في العاصـمة إنطاكيـا جعلته يستعجل الصلح مع المكابي ويطلق لليهود حريتهم الدينية شريطة إبقاء القيادة الكهنوتية بيد اليهود المتأغرقين (الهيلينيـين) أو (الحـزب الهيلينـي) وفيـه اسـتبدل مينلاوس الـذي قـضى مـدة طويلـة بهـذا النـصب ونـصّب مكانـه

يهودي هيليني آخر هو (ألياكيم) وكان ليسياس قد هدم القلعة التي أقامها القديسون لمجابهة المعقل الملكي للسلوقيين وهو المكان الذي كان مأوى للحزب الهيليني أثناء الاضطرابات[32].

ولم يهدأ يهوذا (الذي يناصر حزب القديسين) أمام هذه التغيرات التي أحدثها ليسياس، وما أن استلم الحكم السلوقي دمتريوس الأول واختفى تأثير ليسياس قام يهوذا المكابي بعزل (الياكيم) فالتجأ الأخير إلى دمتريوس الأول في إنطاكيا، فوجد الملك السلوقي الفرصة سانحة للتدخل في أمور القدس فأرسل قائده (بكايدس) على رأس جيش كبير ومعه (الياكيم) وكان عند أول وصولهم إلى القدس أن قاما بقتل ستين معارضاً فوقع الرعب بين اليهود ثم قتل وسجن منهم الكثير وأُعيد تنصيب (الياكيم) رئيساً للكهنة وأبقى معه جيشاً ليحميه فقام (الياكيم) باضطهاد معارضيه من اليهود[33].

كان المكابي يراقب ما يحصل بحذر وما أن غادر القائد السلوقي حتى دخل المكابي إلى القدس وهدد الياكيم، فقام الياكيم بإخبار الملك من جديد.

وهكذا قام الملك بتجهيز حملة جديدة بقيادة (نكانور) عام 161ق. م وكان يهوذا المكابي في القدس فتصدى له ودفعه للإلتجاء في القلعة السلوقية، ثم وقعت معركة فاصلة بينهما في مدينة (عدسة) في نواحي الرملة فقتل (نكانور) وقطع يهوذا رأسه وجاء به إلى مدينة القدس وعلّقه على أسوارها، وهرب (الياكيم) إلى إنطاكيا [34].

هذا ما تذكره أخبار سفر المكابيين في العهد القديم التي نتحفظ على تفاصيلها، وتمضي هذه الأخبار فتروي أن يهوذا الثائر ضد حكم الدولة السلوقية توقع أن يقوم الملك بردة فعل عنيفة ضده فما كان منه إلاّ الاتصال بروما وطلب حمايتها.. وكانت روما تبحث عن جيوبٍ مناصرة لها في كيان المملكة السلوقية فقامت بإخبار الملك السلوقي (دمتريوس الأول) بأن اليهود موالون لها وأنها ستحاربه إذا عاد إلى ضربهم، لكن روما لم تفِ بوعدها لليهود واعتبر دمتريوس هذا التمهيد تدخلاً في شؤونه الداخلية فقام بتجهيز جيش جديد بقيادة باخيدس (Bacchides) ومعه (الياكيم) ودارت معركة كبيرة في بئروت (البيرة) شمال القدس حيث كان المكابي يتحصن وقُتل يهوذا المكابي وهُزمت قواته سنة 161ق. م، ثم دخل باخيدس والياكم القدس ونُصّب الياكيم رئيساً للكهنة مرة أخرى.

2. يوناثان(161-144)ق. م

تولى (يوناثان) أخ يهوذا المكابي أمر التمرد ضد السلوقيين فقام بالعبور نحو شرق الأردن، ومـن هنـاك قـام بعمليات حاولت إرباك الجيش السلوقي.

وفي عام 158ق. م عقدت معاهدة صلح بين يوناثان وباخيدس تعهد فيها القائد الـسلوقي بعـدم التعـرض لليهود وردّ أسراهم، وعاد باخيدس إلى إنطاكيا وصار يوناثـان، عمليـاً، رئـيس دولـة وكهنـة يهودّيـا، وكـان مقـره في مكماش (مخماس) شمال القدس وانتصر حزب القديسين من جديد وقام بملاحقة الحزب الهيليني اليهودي.

وبدأت دويلة/إمارة يهوديّا تستقل شيئاً فشيئاً من الحكم السلوقي خصوصاً أن المملكة السلوقية تعرضت إلى إضطرابات سياسية واسعة خلال هذه الفترة.

وهرب الكاهن (أونياس الرابع) من يهودّيا إلى مصر وكان كاهناً أكبر قبل ياسون وزعـم بأنـه ظُلـم بإقامـة الياكيم بهذا المنصب فمنحهُ فيلومتر (بطليموس السادس) في إقليم ليونتوبوليس أرضاً ليقـيم عليهـا معبـداً يهوديـاً يكون نموذجاً صغيراً لمعبد بيت المقدس[35].

وبدأ يوناثان باللعب على حبال السياسة السلوقية المضطربة فعندما ضجر الرومـان مـن دمتيريـوس الأول قامت برجام (الموالية لروما) بإرسال شخص يطالب بعرش سوريا اسمه (الإسكندر بالاس) سرعان ما اعترفت به روما ملكاً، وكان الملك الحقيقي دمتيريوس الأول في إنطاكيا.

وأرسل الإثنان (دمتيريوس الأول وبالاس) إلى يوناثان يكسبان ودّه في هذه المعركـة الـدائرة بيـنهما فاختـار يوناثان الوقوف إلى جانب (بالاس) وعندما انتصر (بالاس) على غريمه عام 150ق. م صـار يوناثـان رئـيس الكهنـة في القدس بعد أن استغل قبل هذا الوقـت موقـف دمتيريـوس معـه وقـام بـدخول القـدس وتجديـد بعـض حـصونها ومبانيها.

كان (بالاس) ضعيفاً وترك الأمور بيـد وزيـره (أمونيـوس) فقـام دمتيريـوس الثـاني (ابـن دمتيريـوس الأول) بتجهيز جيشٍ كان يقوده لاسثنس بالمطالبة بعرش أبيه وتوجه هذا الجيش إلى شمال سوريا أو(كليكيـا) مـع جـيش من مرتزقة كريت.

وبينما كان بالاس يقوم بالدفاع عن إنطاكيا ضد هذه الحملة شمالاً قام حاكم جـوف سوريا السلوقي (أبولونيوس) بتأييد دمتيريوس الثاني وكـاد يـضيّق الخنـاق عـلى بـالاس مـن الجنوب لكنّ (يوناثان) تصدى له واستولى على مدن يافا وأشـدود وعـسقلان. وعنـدما علـم

بالاس بما أصابه يوناثان من النجاح رفعه إلى مرتبه (قريب الملك) وكانت أرفع مراتب الدولة، ومنحه مدينة عكير (إكرون Ekron) ملكاً خاصاً له[36].

ولما مالت موازين القوى ضد بالاس وقام بطليموس السادس بالوقوف ضدّه ودحره كان يوناثان يقف إلى جانب دمتيريوس الثاني الذي انتصر نهائياً على بالاس عام 147ق. م، فما كان من دمتيريوس الثاني الاّ وثبّته على يهوديّا.

ولكن الدولة السلوقية لم تهدأ فقد قام قائد من قوات بالاس بتنصيب ابن بالاس باسم (أنطيوخس السادس) لكنه سرعان ما قتل هذا الصبي في 142ق. م وتناول بيده الصولجان وحكم تحت اسم (تريفون) ولم يستطيع دمتيريوس الثاني أن يخلعه، وظلّ العرش السلوقي منقسماً بينهما.

ويبدو أن لعب يوناثان على الحبال هو الذي قاده إلى دعوةٍ من(تريفون) حيث استدرجه هذا إلى (عكا) وقتله هناك عام 144ق. م وهكذا ذهب يوناثان ضحية نزعته الانتهازية.

3. سمعان (144-135)ق. م

استلم أخ يوناثان المسمى (سمعان) قيادة يهوديّا وقام دميتروس الثاني عام 143ق. م بتكريسه رئيساً للكهنة ورئيساً سياسياً في القدس وأعفى اليهود من الجزية التي كانت مقررة عليهم وسمح لهم بالدخول في صفوف الجيش السلوقي فاعتبر اليهود تلك السنّة تحولاً كبيراً في حياتهم وصار سمعان أول ملك رسمي لدويلة (يهوديّا) وبذلك أقرّ لنسله الحكم من بعده[37].

ودخل سمعان القدسَ عام 141ق. م بعد أن حاصرها وهدّم القلعة ونزع شيئاً من الصخرة كي لا تصبح أساساً لبرجٍ جديد، ثم قوّى أسوار المدينة خصوصاً المحيطة بالهيكل ليصبح قوياً.

وعندما توّج أنطيوخس السابع (الذي قضى على تريفون قاتل يوناثان) منح (يهوديّا) ما كان لها في بداية حكمه عام 139ق. م لكنه بعد أن ثبّت أركان حكمه في إنطاكيا وتزوج كيلوباترا ثيا (زوجة أخيه دميتروس الثاني) عاد وتنكر لاستقلال يهوديّا، وجهّز حملة عسكرية بقيادة قندباوس إلى القدس وما جاورها لاحتلالها.

لكنّ سمعان أوكل لولديه مهمة صدّ القوات السلوقية فتمكنا من ذلك واستقر سمعان في القدس قوياً حتى تعرضَ لمؤامرة اغتيال من قبل زوج إبنته حاكم أريحا سنة 135 ق. م.

4. يوحنّا (هركانوس) (135-106) ق. م

تولى ابن سمعان (يوحنّا) الحكم وهو الملقب بـ(هركانوس) وظلّ لفترة طويلة قاربت الثلاثين عاماً.

وفي عهده استقلت يهوديّا عن السيادة السلوقية وشهدت حرباً بين الأحزاب الدينية.

ابتدأ عهد هركانوس بالحملة الثانية التي جهزها أنطيوخس السابع إلى القدس محاولاً احتلالها بقيادته فضرب الحصار حولها عام 133ق. م ولكنه بعد حصار طويل لم يستطع اقتحامها فاضطر إلى عقد صلح اعترَفَ فيه هركانوس بالسيادة السلوقية على المدينة ودفع الجزية لأنطيوخس وقبل بهدم أسوار القدس حتى تبقى مفتوحةً أمام الجيش السلوقي[38].

وأراد أنطيوخس إبقاء قواته في القدس الأمر الذي ينال من مركز هركانوس فيها، ولذلك قام هركانوس بدفع ما قيمته 500 وزنة من الفضّة لأنطيوخس ثمناً لرحيل قواته وتثبيت هركانوس رئيساً للكهنة والسلطة في القدس ففعل أنطيوخس ذلك شرط أن يكون هركانوس ومدينته تحت سيادته وتابعة لإنطاكيا.

نفّذ هركانوس ما كان مطلوباً منه وأثبت ذلك عند مشاركته إلى جانب جيش أنطيوخس ضد الفرس عام 128ق. م عندما فتح أرض الجزيرة وإقليم بابل وطرد فراتيس ملك الفرثيين خارج ميديا، وبدا أنطيوخس كمن أوشك على استرداد إمبراطورية أنطيوخس الثالث السلوقية. لكنّ الأمور انقلبت رأساً على عقب عندما قام ملك الفرس الفرثيين بمباغتة أنطيوخس السابع في معسكره الشتوي وهزَمه وقتله واسترد منه كل فتوحاته وبعث بجثمانه إلى بلاده فشيّعه السلوقيون بأعلى مظاهر التفجع والحزن وكأنهم كانوا يشعرون أن تاريخهم بدأ بالأفول بعد مقتل آخر ملك منحدر من السلالة السلوقية الأولى.

استغل هركانوس هذا الوضع الجديد وخرج على السلطة السلوقية نهائياً، وهكذا استقلت يهوديّا منذ سنة 128ق. م تماماً عن الدولة السلوقية واستمر هذا الأمر حتى قضاء الرومان على السلوقيين عام 63ق. م[39].

ويبدو أن هركانوس قام بتوسيع حدود يهوديّا وتثبيت أركانها، فقد فتح السامرة وخرّب هيكل جزريم ثم فتح آدوم وأجبر أهلها على الدخول في الدين اليهودي خارجاً على الأسس الوراثية للدين اليهودي. وكان من المفروض أن تبدأ الأمور الداخلية ليهوديّا بالإزدهار لكن

العكس هو الذي حصل حيث نشبت حربٌ دينيةٌ شرسة بين فـرقتين دينيتـين أساسـيتين لليهـود هـما: الـصدوقيون والفريسيون.

الصدوقيون (Sadducces) هم الفرقة القديمة التي لها علاقة تاريخيـة مـع المؤسـسة الكهنوتيـة الـصادوقية التي قامت بتنظيم اليهود كجماعة دينية في زمن السبي البابلي. وكان الصدوقيون لا يقـرّون بعبـادة مـشروعة غـير العبادة التقليدية القائمة على الذبيحة في الهيكل، وهم يصرّون على التمسك بحرفية الـشريعة كـما هـي مدونـة في التوراة (وهي الأسفار الخمسة الأولى المنسوبة إلى موسى من العهد القديم)[40].

وكان الصدوقيون يمسكون بزمام الكهانة اليهودية بقوة، ولا يعترفون برئاسةٍ يهوديـة مـشروعة غـير رئاسـة الكهنة وكانوا يتمتعون بدعم الطبقات الثرية دائماً ومن هؤلاء الصدوقيين ظهر فريق متشدد اسـمه (الربـانيون) أو (الحسديم Chasidim) الذي ترأسه الكاهن والنبي عـزرا في حـدود 444ق. م وكـان بـذرةً لحـزب القديـسيين الـذين خاضوا الحرب ضد الهيلينية.

وفي القـرن الثـاني قبـل المـيلاد (أي مـع الحكـم الـسلوقي) ظهـر فريـق جديـد منـشق مـن الربّـانيين هـم (الفريسيون Phareesis) الذين يرد أول ذكر صريح لهم حوالي 120 ق. م ولكنهم ظهـروا قبـل ذلـك بقليـل. وهـؤلاء الفريسيون هم الذين نادوا بالحفاظ على التقاليد الشفوية إضافة إلى الـشريعة المكتوبـة وهـذا يعنـي أنهـم نـادوا بالاعتماد على (توراة غير مكتوبة) إلى جانب (التواراة المكتوبة) وهي التي أوحى بها مـوسى كـما يقولـون وتوارثهـا العارفون بالشريعة من بعده عن طريق التقليد الشفوي، وهو ما اسماه اليهود فيما بعد بـ (التلمود) الذي يتكـون من المتن (المشنا) والشرح (الجمارا).

وظهر من هذا الانشقاق الفريسي مجموعة من الطقوس والتعاليم الدينيـة الجديـدة منهـا أن الفريـسيين، على عكس الصادوقيين، كانوا يقرون بصلاحية العبارة خارج الهيكل معتمدين في ذلك عـلى (المجـامع) أو (الكُنُس) حيث كانت العبادة لا تقوم على الذبيحة بل على قراءة الأسفار المقدسة وتفـسيرها. ومـن ذلـك (الفريـسيين) مـن الجذر الآرامي (فرش) بمعنى إنعزل أو تميز فهـم المعتزلـة أو المتميـزون وهـؤلاء لم يكونـوا كهنـةً بـل معلمـين مـن طبقات العامة، وكانت شعبيتهم لدى العامة تفوق الصادوقيين لهـذا الـسبب. ولا بـد مـن الإشـارة إلى أن اليهوديـة التي استمرت تاريخياً منذ ذلك الزمن هي يهودية الفريسيين لا يهودية الصادوقيين التـي زالـت مـن الوجـود قبـل نهاية القرن الميلادي الأول[41].

هكذا إذاً نحن أمام إنعطافة جديدة في الديانة اليهودية تشبه الإنعطافة التي أحدثها (عزرا) فهي إنعطافة مضادة لإرث عزرا (رغم أن الفريسيين يعتبرون عزرا أكبر معلم يهودي)، ولكن تفتتيهم للمؤسسة الكهنوتية الرسمية الأرستقراطية وللمنهج الكتابي وتبنيهم للتعليم الحر بين الناس والمنهج الشفاهي جعل منهم صنّاع ثورة جديدة في الدين اليهودي (الذي لم يعد ديناً سماوياً كما يدعوّن بل دين كهنةٍ محافظين وكهنةٍ ثوّار).

ويبدو أن عصر هركانوس شهد ذروة الصراع بين الطائفتين الصادوقية والفريسية، فقد كان الصادوقيون يمثلون دولة يهوديّا وطبقتها الحاكمة والثرية والذين أصبحوا أشد تعلقاً بالجاه والحياة الدنيا. أما الفريسيون فظهروا بمظهر المؤمنين الأوفياء والوطنيين المتحمسين الذين يرفضون الجمع بين رئاسة الكهنة والملك في يد واحدة، وأخذ الصدام بين الفريقين طابع القتل والتدمير.

ويبدو أن الغليان الديني الذي عاشته يهوديّا هذه الفترة أنتج الكثير من الأدب الديني اليهودي الذي مثلته بعض الأسفار الموجودة في العهد القديم مثل (سفر الجامعة) الذي يشكل نموذجاً للهلينة اليهودية إذ أن مؤلف هذا الكتاب كان على ما يبدو من الطبقة الأرستقراطية التي عاشت في فلسطين عام 200ق. م ويعتبر أحد الكفرة وأحد أنصار التهلين، وقد جاءت لغة هذا الكتاب متأثرة بالإغريقية إلى حدٍّ ما. ويشعر المرء بأن زمانه كان إغريقياً[42].

وكذلك نشمّ رائحة الهيلينية في أسفار الأمثال والمزامير ودانيال وأيوب وغيرها من الأسفار التي حُذفت من العهد القديم مثل سفر الحكمة وسفر أخنوخ ووصاية البطاركة الإثني عشر وغيرها ويبلغ عدد هذه الأسفار المحذوفة أربعة عشر سفراً من التوراة السبعينية التي يحذفها، اليوم، اليهود والبروتستانت من العهد القديم.

وكان أغلب هذه الأسفار المحذوفة يدور حول فكرة المسيح المخلّص والمنتظر ويبدو أن هذه الفكرة عادت بعد أن تولى المكابيون رئاسة السلطة والكهانة في يهوديّا (وهم ليسوا من سلالة زرُبابل الذي كان يشكّل أول مسيح منتظر بعد السبي ونسجت حوله أسطورة أصله من داود وإسرائيل).

وقد اختلفت التعاليم المتعلقة بالمسيا (المسيح) اختلافاً عظيماً فهناك من يقول بأنه قدسي إلهي موجود قبل خلق العالم، وهناك من يقول بأنه بشر معرض للموت، بيد أن الفكر كان في

تغير دائم، فقد انتقل من مملكة للمسيح على الأرض مع بعث الأجساد بعد الموت إلى مملكة خالدة سرمدية في السماوات يصحبها الخلود الروحي[43].

ونستنتج من كل هذا أن العصر الهيلنستي، وخصوصاً في قسمه السلوقي، شهد على المستوى الكتابي تأليفاً جديداً لبعض أسفار العهد القديم التي جمعت مع الأسفار الأولى. بالإضافة إلى الأسفار المحذوفة الكثيرة كما أنه شهد ولادة الأسفار الشفاهية التي تشكل متن وشرح ما يسمى بـ(التلمود).

وهذه إنعطافة جديدة في تاريخ الأسفار اليهودية المقدسة الثالثة يمكن أن نعدّها الثالثة بعد إنعطافة عزرا الثانية في العهد الفارسي والصادوقية الأولى إثناء السبي البابلي.

وفي أواخر أيام هركانوس قام جيشه بحصار مدينة سماريا Samaria الإغريقية فاستغاثت هذه المدينة بأنطيوخس التاسع (كيزينكنوس Cyzincenos) فهزمهم جيش هركانوس فقام جيش كيزينكنوس بالاستنجاد ببطليموس التاسع (سوتر الثاني) عام 108ق. م فأنجده بجيش لكن الهزيمة كانت مصيره أيضاً وقُتل أحد القائدين الذين تركهما في كيزينكنوس، أما سماريا فبعد أن اشترى اليهود خدمة الآخر، استولوا على المدينة وذبحوا أهلها وقامت أمه كيلوباترا الثالثة بتدبير أمر جعل الشعب يطرده من الإسكندرية فاراً إلى قبرص[44].

وهكذا ازدادت قوة (يهوديّا) وقوة اليهود في القدس قياساً إلى يهود مصر في الإسكندرية الذين كانوا أداةً في يد البطالمة.

ب. الأسرة الحشمونية

5. أرسطو بولوس الأول (106-103)ق. م

توفي هركانوس عام 106ق. م فتولى إبنه الذي حمل إسماً إغريقياً هو (أرسطو بولوس) منصبي الملك ورئيس الكهنة " واتخذت الدولة اليهودية في عهده لقب الإسمونية أو الحشمية تمييزاً عمن سبقها من المكابيين الذين لم يسموا ملوكاً " [45].

والحقيقة أن لقب الإسمونية أو الحشمية أو الحشمونية هو اللقب الأصلي للأسرة المكابية ويبدو أن أرسطو بولوس صاحب نزعةٍ هيلينية كبيرة ولذلك لم يكتفِ باسمه الهيليني بل لقبّ نفسه بـ(فلهلن Philhellen) أي المحب للهيلينية. ولم يدم عهده طويلاًوكان رجلاً مسكوناً

بوساوس الخوف على كرسيه فقد بدأ عهده باغتيال أمه وإخوته وأبقى أخاً واحداً له هو (انتيغونس) اعتمد عليه في البداية ثم اعتقله وقتله فيما بعد.

كانت يهوديّا تحتوي على عدة مدن وقرى وقصبات كان يشكل أغلبها العربُ والكنعانيون الذين لم يكونوا يعتنقون الديانة اليهودية لكن أرسطو بولوس أدخل بعض سكان يهوديّا في اليهودية إكراهاً وخاصة عرب الجليل الإيطوريين.

6. يانايوس إسكندر (104-76) ق. م

توفي أرسطو بولوس عام 103 ق. م ولم يكن أحد يشغل كرسي الحكم فقامت أرملة أرسطو بولوس واسمها (سالومي) أو (سالينا) بتنصيب إبن آخر لهركانوس هو(الاسكندر يانابوس) أو (اسكندرينيوس). وكانت الأسرة الإسمونية قد بدأت بالابتعاد عن حزب القديسيين الصادوقي واتسع نطاق هذه الدولة بالفتوحات التي بلغت ذروتها في عهد يانايوس وامتدت دولة يهوديّا لتحاول مطابقة دولة يهوذا القديمة لفترة مؤقتة. إذ حاولوا توسيعها بالاتجاه نحو المدن الساحلية مثل عكا وصور وغزة التي حاولوا غزوها وضمها.

وعندما غزا اسكندرينيوس عكا عام 102 ق. م استنجدت هذه المدينة ببطليموس التاسع الذي وجدها فرصة للتدخل في شؤون سوريا واسترداد جوفها ولذلك جمع جيشاً في قبرص وتوجه إلى عكا،لكن عكا غيرت رأيها ورفضت استقباله فاستغل يانايوس هذا الحرج الذي وقع فيه بطليموس التاسع فقام بشراء خدمات جيشه بمبلغ كبير وطلب منه أن يستولي على إقليم زويلوس طاغية ستراتونوبيرجوس ويعطيه لليهود، فقام بطليموس بالاستيلاء على شخص الطاغية لكنه علم أن يانايوس كان يتفاوض في الوقت نفسه مع الملكة كيلوباترا الثالثة، فقام بطليموس التاسع بالزحف على الملك اليهودي وانزل به هزيمة فادحة في (أسوفون) كانت مذبحة مروعة[46].

ثم استولى بطليموس التاسع على عكا بالقوة ولكن أمة كيلوباترا الثالثة وقفت بوجهه وأوقفت نواياه للتقدم في جوف سوريا، وكانت تريد هي أن تحتل جوف سوريا فهرب بطليموس التاسع إلى غزة واستولت كيلوباترا الثالثة على عدة مدن ساحلية حتى وصلت إلى عكا فاستقبلها هناك يانايوس. وكادت كيلوباترا الثالثة أن تستدرج يانايوس وتعتقله وتستولي على مملكته، لكن مستشاريها نصحوها بأن لا تفعل ذلك لكي لا تخسر صداقة اليهود قاطبة

فاستمعت إلى هذه النصيحة وعقدت مع يانايوس معاهدةً أعطته غطاءً داعماً ليفعل ما يشاء في مدن جوف سوريا ليكون وكيلها في هذا المكان تمهيداً لضم جوف سوريا إلى مصر مرة أخرى. وهكذا كسب يانايوس هذه الجولة وقام بالاستيلاء على مدنٍ جديدةٍ مثل جدارا (أم قيس الأردنية) وعسقلان وغزة على الساحل، وقد أقام مجزرةً عند استيلائه على غزة ثم عاد يانايوس إلى القدس بعد رحلةٍ حربيةٍ طويلةٍ حوّلت مدن الشاطئ الفلسطيني المزدهرة إلى صحراء بلقع[47].

قام يانايوس بصلب ثمانمائة من الفريسيين وعمل وليمة فاخرة على مشهد منهم وهم يعانون سكرات الموت، وكان هذا الاضطهاد نذيراً بصعود قوة الفريسيين القادمة.

أما على المستوى الداخلي فقد وقف يانايوس إلى جانب الصدوقيين ضد الفريسيين فقد ثار الفريسيون ضد يانايوس لأنهم اعتبروه المسؤول عن مذبحة اليهود في أسوفون، وكان الصدوقيون يقفون إلى جانبه فقام الفريسيون بالاستنجاد بالملك السلوقي أنطيوخس ديمتيريوس الذي هبّ للانتقام من يانايوس (صديق البطالمة) وأرسل له حملة عسكرية ودارت المعركة في نابلس هُزم فيها يانايوس وفرّ إلى الجبال، ثمّ عاد إلى القدس سنة 89ق. م ثم توفي أثناء حصاره لأحد الحصون عبر الأردن سنة 76ق. م

7. إسكندره (سالوم الكساندرا) (76-67) ق. م

تولت أرملة يانايوس (إسكندره) الحكم وعّينت ولديها في منصبين مهمين: هيركانوس الثاني رئيساً للكهنة وأرسطو بولوس الثاني قائداً للجيش. وكانت بوادر الصراع بين الأخوين تظهر بينما الصراع الصادوقي الفريسي ما زال متفجراً فوقفت إسكندره إلى جانب الفريسيين.

كان مستشار هيركانوس الثاني من أصل أدومي يدعى (أنتيباتر الآدومي) حاذقاً وذكياً وماكراً، والذي جعل من هيركانوس قوياً في وجه أرسطو بولوس الثاني، وهو من أهالي عسقلان ومن الآدومين الذين أُجبروا على الدخول في الديانة اليهودية والذي سيصبح فيما بعد أب الأسرة الهيرودية التي حكمت بعد الأسرة الحشمونية لأنه كان أب هيرودوس الأكبر مؤسس هذه الأسرة.

واشتد الصراع بين الأخوين واستنجدا بالرومان بينما كانت الدولة السلوقية تعج بالصراعات وتتلقى الضربات الداخلية المتتالية فبعد هزيمة ومقتل الملك السلوقي أنطيوخس

ديونسيوس أمام الحارث الثالث ملك الأنباط عام 86 ق. م واحتلال دمشق من قبل الأنباط قام الأرمن عام 69 ق. م باكتساح سوريا كلها وأنشأوا حكومة فيها لكن الرومان عزلوا هذه الحكومة فدبت الفوضى في سوريا كلها.

وكان بطالمة مصر يشهدون حكم بطليموس الثاني عشر (الزمّار) الذي سلّم زمام أموره كلها إلى روما. وهكذا بدأت روما وكأنها شبحٌ كبير يجوب آفاق مصر والشام قبل أن ينقض على الأنظمة الهيلنستية المتهرئة فيها.

8. أرسطو بولوس الثاني (67-63) ق. م

بعد أن توفيت إسكندره عام 67ق. م تولى إبنها هيركانوس الحكم مكانها ولم يسكت أرسطو بولوس فتمرد عليه ووقعت بينهما معركة خارج القدس إنهزم فيها هيركانوس ولجأ إلى القدس فحاصره أخوه فيها ثم اتفقا على أن يكون أرسطوبولوس هو الملك ويكون هركانوس رئيساً للكهنة. وبعد زمن انهار الاتفاق وعادت الأمور كما كانت فاستنجد هركانوس بالملك الحارث ملك دولة الأنباط فقام الحارث بنجدته بحملةٍ عسكرية تُقدر بخمسين ألف مقاتل سار الحارث على رأسها وانتصر على أرسطو بولوس وحاصر القدس وكان معه هركانوس ولكنهما لم يتمكنا من احتلالها فطال حصارها واتصلت الحروب وعظمت الفتن بمحيط القدس وغادر الكثير من اليهود إلى مصر. وكانت الدولة السلوقية على حافة الإنهيار الشامل عندما كان القائد الروماني بومبي يجوب شواطئ مدن الساحل السوري ويُخضع مدنها واحدة بعد الأخرى. ودخل بسهولة إلى سوريا فأرسل جيشه بقيادة إسكارس نائب بومبي إلى يهوديّا، وكانت المشكلة بين الأخوين ما زالت مستمرةً، فقام كلٌّ منهما بخطب ودّه فناصر إسكارس أرسطو بولوس بعد أن رشاه الأخير، فأمر هركانوس ومن معه بالابتعاد عن مدينة القدس.

وعاد الحارث بجيشه مناصراً هيركانوس لكن أرسطو بولوس كان قد امتلك سنداً رومانياً جعله يهزم قوات الأنباط عام 64 ق. م ولكن النزاع بينهما ظلّ مستمراً.

وبينما كان بومبي يسيطر على كل سوريا في 64 ق. م وكان في دمشق قدم عليه كلٌّ من الأخوين المتنازعين وقدّما له الهدايا ورفعا دعواهما إليه بالمُلك فلم يسمح لأحدهما بذلك بل أمرهما بالخضوع له أولاً ثم دعاهما لحل مشاكلهما في القدس نفسها.

وتهيأ بومبي للذهاب إلى القدس وقبل أن يصل إليها اعتقد أرسطوبولوس أن بومبي قد يميل إلى أخيه هركانوس فجهز جيشه واستعدّ لمغامرةٍ غير محسوبة في مقاومة بومبي، وتقدم إلى القدس عام 63 ق. م وقضى على مقاومة أرسطو بولوس الذي سلّم إليه المدينة، لكنّ الكهنة اليهود رفضوا هذا التسليم ولاذوا بالهيكل وتحصنوا فيه فحاصره بومبي وضربه بالمنجنيقات وقصفَ الأسوار واستمر الحصار لمدة ثلاثة أشهر[48].

ولما عجز بومبي عن ذلك اختار يوم السبت للهجوم على اليهود بعد أن أحدثت المنجنيقات ثقوباً في الأسوار ودخل الرومان إلى الهيكل وقتلوا من كان فيه ونصّب هركانوس رئيساً للسلطة والكهنة في القدس وعلى يهوديّا.

9. هيركانوس الثاني (63-48) ق. م

قام بومبي بتنصيبه وأشرك معه أنتيباتر وجعل معه قائداً على رأس الحامية الرومانية وفرضَ على اليهود جزية سنوية ثم غادر إلى روما وأخذ معه أرسطو بولوس وأبناءه الأسرى.

وبدأت يهوديّا والقدس عهداً جديداً هو العهد الروماني الذي سيستمر لأكثر من سبعة قرون وهو ما سنبحثه في كتاب آخر.

لكننا نودّ أن نكمل صورة الأسرة الحاشمونية مع آخر ملوكها وكهنتها الكبار هيركانوس الثاني الذي ظنّ أنه سيصبح آمناً تحت الحماية الرومانية وفي ظل غياب أخيه أرسطوبولوس سجيناً في روما.

في عام 57 ق. م استطاع أحد أبناء أرسطو بولوس ويدعى (إسكندر) الهرب من روما والعودة إلى القدس، وكان هركانوس ومستشاره انتيباتر مشغولين في حرب القبائل العربية إلى جانب القوات الرومانية. واستطاع (إسكندر) إغواء اليهود في القدس فنصبّوه ملكاً عليهم فلمّا عاد هيركانوس وانتيباتر خرج عليهم إسكندر وحاربهم وهزمهم وقتل منه الكثير، ثم التفت إلى المناطق المجاورة لضمها إلى ملكه. قام (جافينوس) والي سوريا الروماني بالتصدي لإسكندر وأسره ثم قام بإرجاع هيركانوس رئيساً على يهوديّا. وقام في الوقت نفسه بتقسيم يهوديّا إلى خمسة أقاليم تحكم حكماً ذاتياً وذات سلطات قضائية وإدارية وهي :

القدس، أريحا، جازر، الجليل الأعلى، شرق الأردن.. وكان هدف جافينوس هو تفتيت يهوديّا سياسياً وإعادة الصبغة الهيلينية التي كان المكابيون والحشمونيون قد هودّوها بالقوة [49].

لكن قصة أرسطو بولوس لم تنته بعد فقد تمكن من الهرب مع إبنـه الثـاني (أنتيغـونس) وجـاء إلى يهوديّـا ونظّما اليهود لصالحهما ورمما الحصون واستحكما بها، لكن فابينوس عرف بأمرهما وتصدى لهما وأرسلهما ثانيةً إلى روما. وكانت روما آنذاك تشهد الصراع الدامي بين يوليوس قيصر وبومبي فلما صار قيصر القنصل الأول فيها أطلـق سراح أرسطو بولوس وإبنه ثم جعلهما مع قائدين رومانيين في إثني عشر ألفاً وأمرهم بالتوجه إلى القدس لاحتلالهـا وكانت القدس قد وقعت تحت نفوذ بومبي، فلما علم بـومبي بـذلك أرسـل لأنتيبـاتر ليـدبر لـه أمـراً يخلّـصه مـن أرسطو بولوس، فقام هذا بإرسال مجموعة من أعيان اليهود ليفاوضـوه في بـلاد الأرمـن ودسّـوا لـه الـسمّ في شرابـه فمات. وعندما انتصر قيصر على بومبي وانفرد بحكم روما عام 49 ق. م عزم على توطيد سيطرة الرومان في الـشرق فوصل على رأس حملةٍ عسكرية إلى عسقلان فهرع هيركانوس وأنتيباتر على رأس قوات عسكرية وانضما إليه وسارا معه إلى مصر التي وقفت إلى جانب بومبي، وعندما دخلوا إلى الإسـكندرية وسـيطر قيـصر عـلى ملكهـا بطليمـوس الثالث وأخته كيلوباترا قام قيصر بتعيين أنتيباتر نائباً له في يهوديّا عام 48 ق. م مع أنه أبقى هيركانوس كبير الكهنة في ظاهر الأمر[50].

وبتولي انتيباتر الحكم في القدس نكون قد وصلنا إلى بدء حكم العائلة الهيرودية لأن أنتيباتر (48-43) ق. م هو أب هيرودس الأكبر الذي دشّن مرحلةً جديدة من مراحل دولة يهوديّا الخاضعة للنفوذ الروماني.

العالم الهيلنستي وأثره في صياغة الدين اليهودي

إذا كان العالم البابلي هو الرحم الأول الذي خرجت منه الديانـة اليهوديـة حيـث عكـف الأنبيـاء والكهنـة الكبار من سبي يهوذا (وأهل القـدس بـشكل خـاص) عـلى وضـع أول صـياغةٍ للديانـة اليهوديـة مـن خـلال كتابـة المرويات التوراتية اعتماداً على التراث الشعبي الفلسطيني / الكنعاني بشكل خاص والسامي بشكل عام، فإن العـالم الفارسي كان هو الرحم الثاني الذي قام فيه عزرا، بين بابل والقدس،بالصياغة الثانية للكتاب المقدس لليهود وإعـلان ظهور الديانة لأول مرة. أما العالم الهيلنستي فقد كان الرحم الثالث الذي تمت فيه الولادة النهائية للدين اليهـودي من خلال الأمور الآتية:

1. الترجمــة الــسبعونية للأســفار اليهوديــة المقدســة التــي أتاحــت لليهــود الجمــع المــنظم لمــادة الكتــاب

المقدس اليهودي والذي سُمي بكتاب (الشريعة) وشمل، في الغالب، مادة التوراة الأساسية التي ضمت الأسفار الخمسة الأولى بشكل خاص.

2. كتابة الأسفار الإضافية مثل سفر دانيال وحزقيال والأمثال والمزامير والأسفار المحذوفة مثل أخنوخ وطوبيا.. الخ

3. مثّل سفر الجامعة المناخ الهيلنستي الواضح والذي نتج عن ما نسميه بهلينة اليهود أثناء حكم البطالمة أولاً ثم السلوقيين " ذلك أن الإغريق واليهود كانوا جميعاً يتطورون في عالم واحد، ومنهم من كانوا يتطورون في نفس الطريق. وكان الأمر كما هو اليوم تماماً، فكانت هناك مجموعة من الأفكار تملأ الجو، وهو شئ تستطيع أن تسميه (روح العصر) أو أي شئ آخر يرضيك ولاشك أنه كان يؤثر في الناس لا شعوريا " [(51)].

4. قامت الكتابات الهيلنستية في ذلك الوقت بإظهار خصوصية اليهود وجعلهم أصحاب شأن خاص في الدين مثل ما قام به بولهيستور ودمتيروس ويوبوليموس وأرطبانوس وكليوديموس وثيودوتس مؤلف النبوءات السبيلينية الذي كتبه أرستوبولوس المشائي.

5. تأليف سفر الرؤيا الذي تضمن توقع ظهور المسيح من بيت لاوي وهارون لا من بيت داود "إن ذلك الجليلي الذي ألفّ ذلك الأثر الخالد في عهد هيركانوس، إلا وهو وصايا الآباء الاثنى عشر، بما احتوت عليه من توقعات رفيعة جاءت في عظة الجبل، قد خيل اليه أن هيركانوس وهو النبي والكاهن والملك (الملك في الحقيقة والواقع وإن لم يتلقب باللقب) قد تحقق في شخصه الأمل المسياني المرجوني ظهور مسيح، وإليه وجّه الكاتب ترتيلتين مما يُنشد للمسيح" [(52)].

6. ساهمت الهيلينية بشكليها الإيجابي في التفاعل بين الإرثين الهيليني واليهودي عن طريق الحزب الهيليني، والسلبي في مقاومة الهلينة عن طريق حزب القديسين والمحافظين والحسديم. وساهمت هذه الثقافة في بلورة وصياغة ما نستطيع أن نسميه بالشكل المزدوج لليهودية: الدين العالمي والدين الخاص، العقيدة الدينية الشمولية والمكبلة بخصوصية الشعب المختار. وهو الوصف الدقيق لليهودية في هذا الزمن.

7. كان فيلون الإسكندري (20 ق. م-50 م) أوضح صورة للتفاعل بين اليهودية والهيلينية فقد كان الفيلسوف اليهودي المتهلين والذي حشر اليهودية في الفلسفة الإغريقية وحشر الفلسفة الإغريقية في الدين اليهودي فكان أكبر من عبر فكرياً عن العالم اليهودي

والهيليني معاً، إنه نتاج كل تلك الفترة الملتهبة بالأخذ والرد بينهما وكان يلقب بـ(إفلاطـون اليهـودي) لأن فلسفته قامت على فلسفة إفلاطون ولكي يصل إلى غرضه هذا لجأ إلى المبـدأ القائـل أن جميـع الحادثـات والأخلاق والعادات والشرائع المنصوص عليها في العهد القديم ذات معنيين أحدهما مجـازي والآخـر حـرفي وأنها ترمـز إلى حقـائق أخلاقيـة أو فلـسفية وتمثـل فلـسفته أهـم محاولـةٍ للتوفيـق بـين الـدين اليهـودي والفلسفة اليونانية وتميزت باستعمال التأويل الرمزي والمجازي للتوراة [53].

المرجعية الآثارية

هذا ما كان من تبدلات وعمليات تكوين الدين والعقائد اليهودية التي كانت القدس بؤرة لها.. أما ما كان من مدينة القدس في المرحلة الهيلنستية فمن المؤكد أن المدينة شهدت انتعاشاً عمرانياً واضحاً ودخلـت في عمارتهـا العناصر الإغريقية المعروفة بل والأبنية العمرانية الدنيوية بشكل خاص مثل الجمنازيوم (نادي الرياضة) والشوارع المدرجة والقصور والمنازل وغـير ذلـك. وقـد توسـعت المدينـة فخرجـت عـن إطارهـا الـسابق المحـصور في المدينـة اليبوسية في بداية العصر الحديدي لتمتد إلى الأعلى نحـو جبـل الأوفـل ومورّيـا والى الغـرب مـن المدينـة اليبوسـية فيتوسع السكن فيها وتظهر المدينة العليا المتاخمة لوادي هنوم من الأعلى. والمدينة السفلى اللصيقة بمدينة يبـوس القديمة.

ولا شك أن المدينة انتعشت أكثر في ظل حكم الأسرة المكابية والأسرة الحشمونية وربما طـال ذلـك (هيكـل يهوا) الذي تعرض للإهمال والتهميش في الفترة البطلمية والسلوقية.

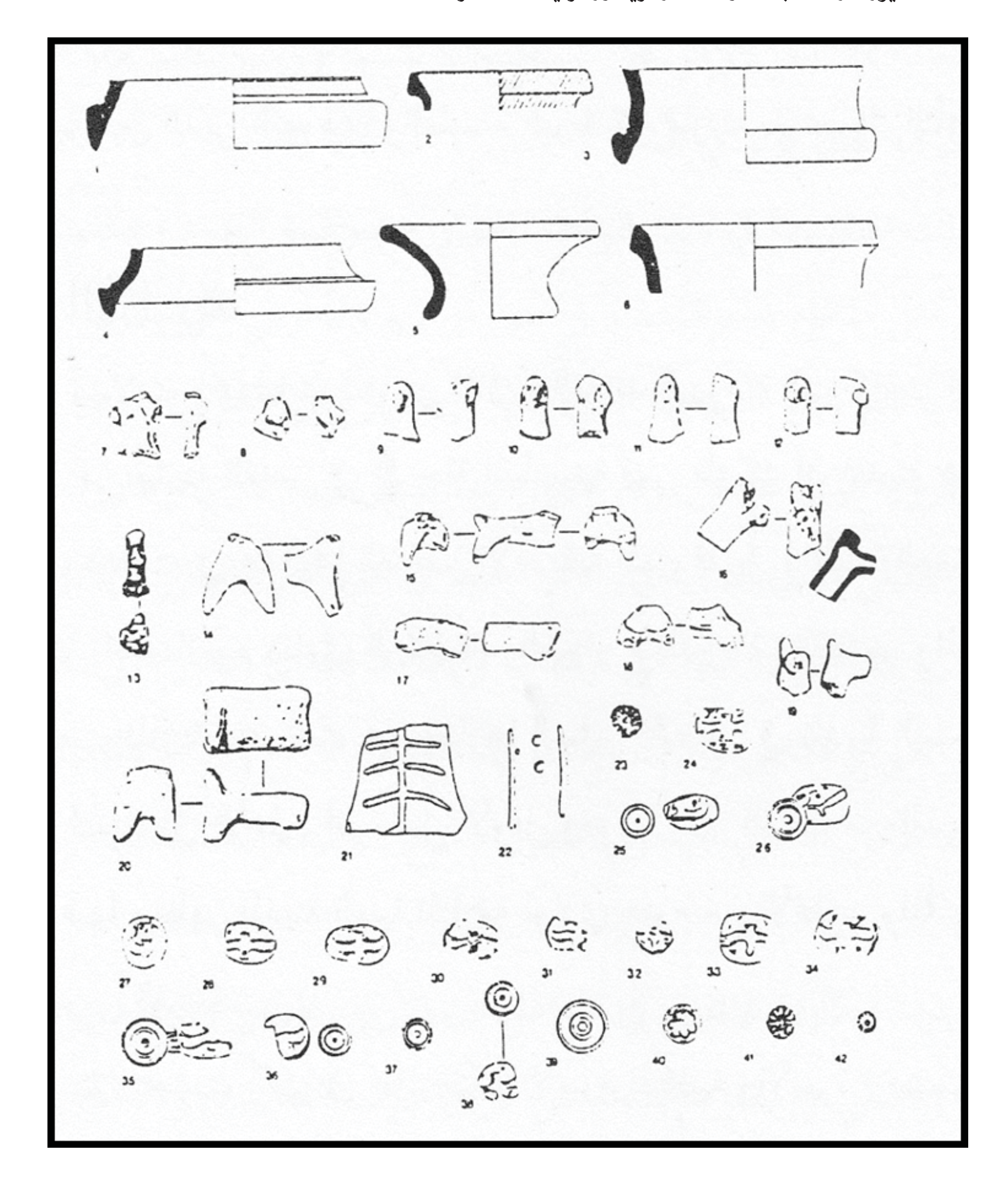
أما الآثار المنقولة التي عثر عليها في القدس في العصر الحديدي وحتـى نهايـة العـصر الهيلنـستي فيمكننـا تصنيفها كما يلي:

الفخاريات

وهي الأدوات والأواني والتماثيل الفخارية الصغيرة وبعض الفخاريات التي عثر عليها في الحشوات الخاصـة بالمباني وغيرها. وتنقسم إلى:

1. فخاريـــات الحـــشوات اليهوديـــة المبكـــرة (في نهايـــة العـــصر الحديـــدي الثـــاني) وتـــشمل بقايـــا

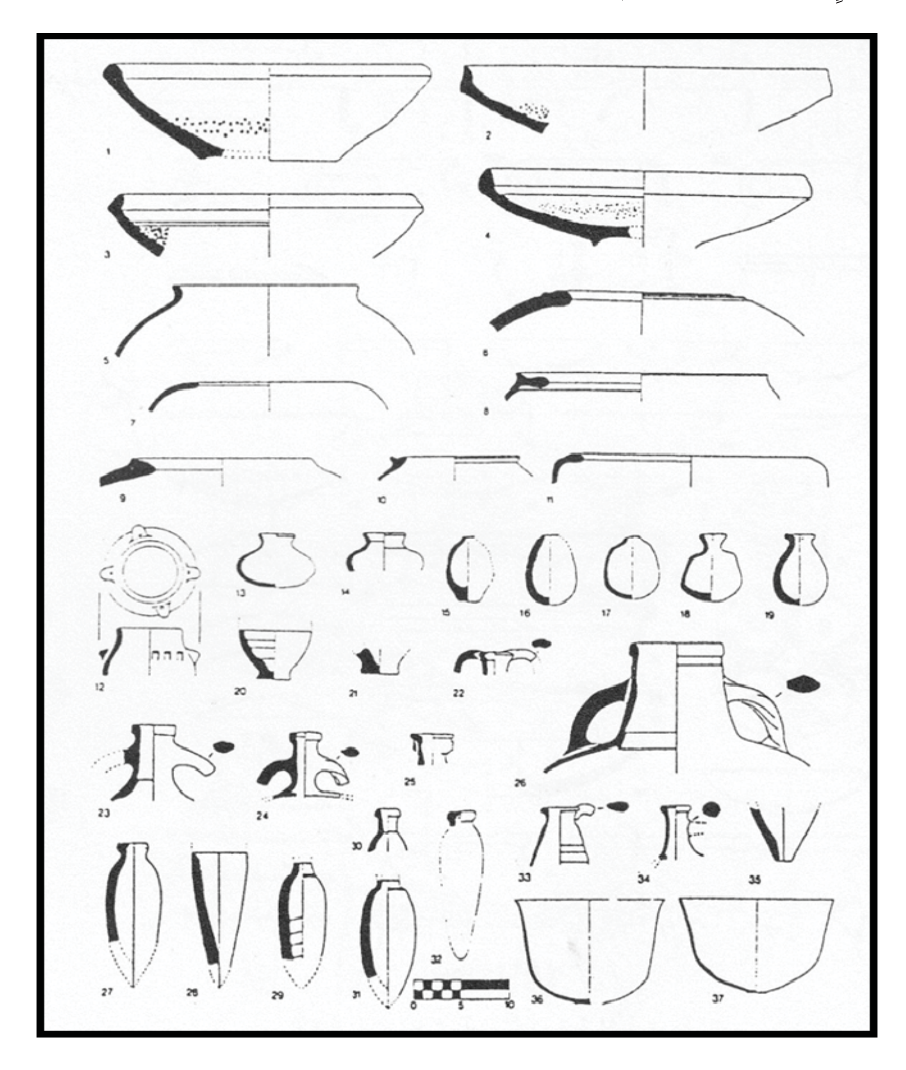
الجرار الفخارية وكسر التماثيل البشرية والحيوانية الصغيرة وبعض الأقراص الفخارية التـي رسـمت عليهـا طيور فاردة الأجنحة وأشكال زهرية وزخرفية [54]. (انظر شكل40)



شكل(40) فخاريات الحشوات اليهودية المبكرة/ نهاية العصر الحديدي الثاني

المرجع: **Tushingham1985:**36

2. فخاريات الحشوات اليهودية الفارسية: وهي فخاريات العصر الحديدي الثالث، وأغلبها قطع من جرار وأوانٍ فخارية مختلفة الأحجام، وتمتاز بدقة الصنع[55] (شكل41)



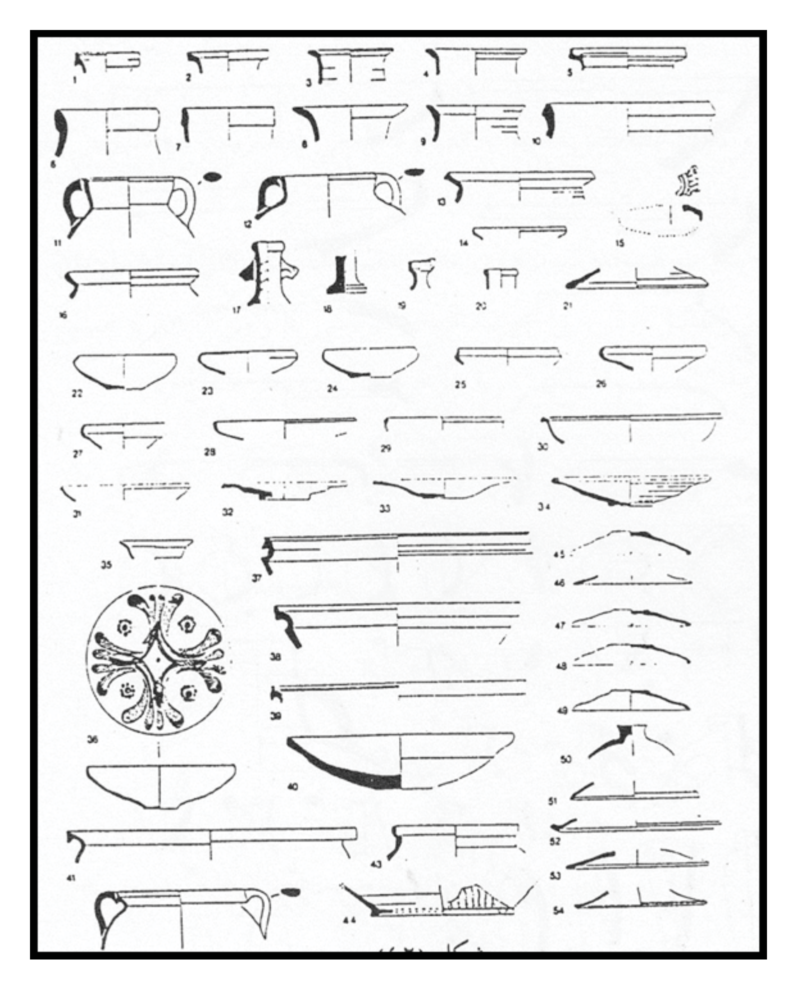
شكل(41) فخاريات الحشوات اليهودية الفارسية

الرقم 9: ربما يكون من العصر الحديدي

الرقم 24 و26 من القرن الأول ق. م أو القرن الأول الميلادي

المرجع Tushingham1985:368

3. فخاريات الحشوات اليهودية الهيلنستية والمتـأخرة: وأغلبهـا مـن الجـرار والأواني الفخاريـة وبعـضها يحمـلُ نقوشاً زهرية، وبعض أفواه الجرار ضيق والبعض الآخر واسعٌ[56] (شكل 42)



شكل (42) فخاريات الحشوات اليهودية الهيلنستية

1. الحشوات اليهودية المبكرة: الأرقام (1-2, 4, 6-12, 14, 17-21)

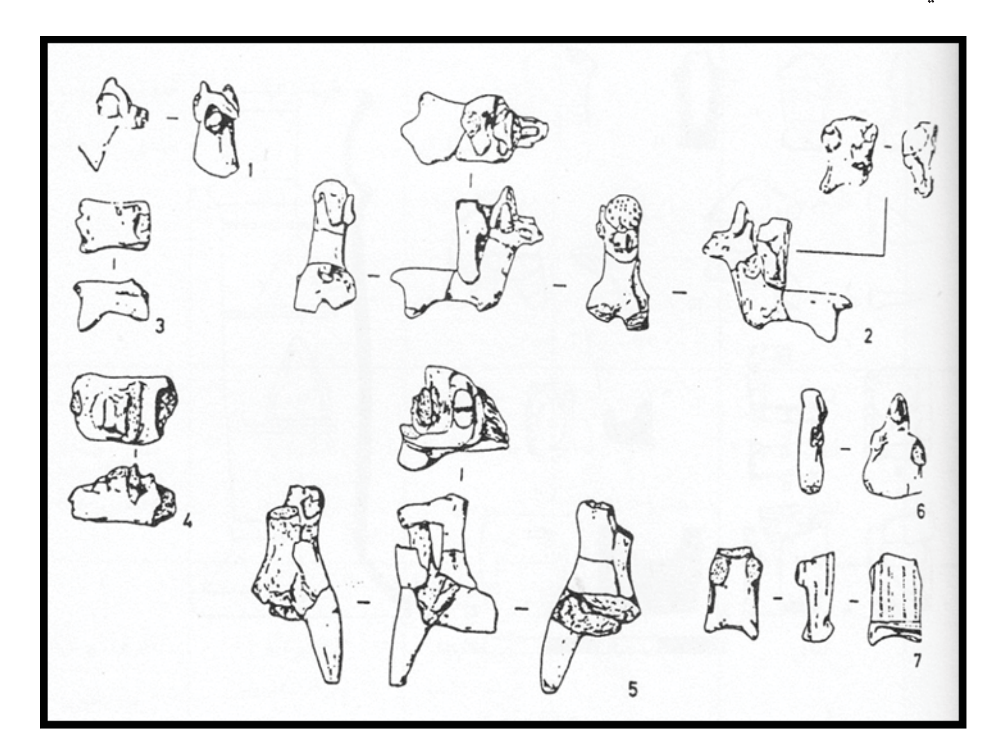
2. الأماكن اليهودية المبكرة: الأرقام (3، 5, 13, 15-16)

3. الحشوات والأماكن اليهودية المتأخرة: الأرقام (32-23, 40)

4. الحشوات اليهودية المتأخرة: الأرقام (22-31, 24-39, 41-55).

المرجع Tushingham1985:372

وهي مجموعة كبيرة من الدمى والتماثيل الصغيرة الطينية أو الحجرية الصنع ويشير بعـضها إلى حيوانـات أليفة، وبعضها الآخر إلى أشكال انثوية وقد عثر على اغلب هذه الدمى والتماثيل في كهف القدس الأول من العـصر الحديدي [57] (شكل 43)

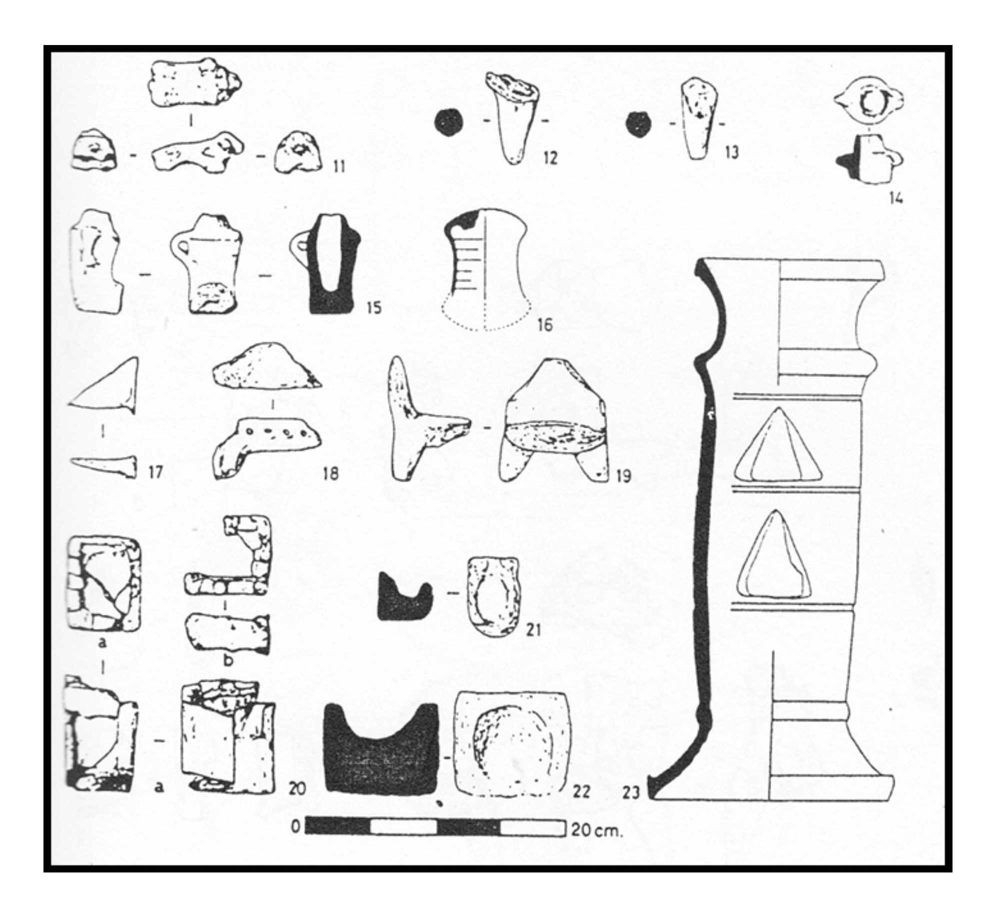


شكل (43) دمى وتماثيل صغيرة عثر عليها في كهف القدس الأول من العصر الحديدي

المرجع Holland 1985:176

الأدوات المختلفة

وهي أدوات حجرية وصخرية عثر عليها في كهف القدس الأول ومنها مصباح ومـذبح ذات نقـشين مثلثـين وحاويات حجرية وأدوات أخرى وكلها من العصر الحديدي بشكل عام [58] (شكل 44)



شكل(44) أدوات طينية حجرية مختلفة منها مصباح ومذبح وحاويات وغيرها عثر عليها في كهف القدس الأول من العصر الحديدي

المرجع Holland 1985:177

وفيما يلي خلاصة مرتبة على شكل جدول لمجمل تاريخ القدس القديم منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية العصر الروماني (جدول رقم 7)

العصور	فروع العصور	زمن العصور ق. م	أسم القدس الشائع	طبيعة القدس السكانية الغالبة وحضارتها	أهم حكامها
الحجري	القديم الأعلى	9000-40000	مستوطنات صيادين	الأحمرية	لم يظهر بعد نظام
	الوسيط	8000-19000	وفلاحين تستعمل	الكبارية والنطوفية	الحكم السياسي، ولم
	الحديث	8000	الأدوات الحجرية في	الطاحونية	تكن على أرض
	النحاسي	3300-5000	حياتها اليومية	الغسولية	القدس مدينة
					بالمعنى المعروف.
البرونزي	المبكر	2000-3300	منورتا	الأمورية	————
	المتوسط	1550-2000	أورشالم	الكنعانية	ملكي صادق
	المتأخر	1200-1550	يبوس	اليبوسية	عبدي حيبا
الحديدي	الأول	1000-1200	يبوس	اليبوسية	؟
	الثاني	539-1000	أورشليم	اليهوذية	حزقيا، يوشيّا
	الثالث	333-539	(من القرن 7ق. م)	(من القرن 7ق. م)	يهوياقين
			أورشليم	أهل السبي واليهود	زربابل،عزرا
				والأدوميون والفرس	
الهلنستي	المقدوني	323-332	أورشليم	اليهود والإغريق	يهو يا داع
	البطلمي	200-323	أورشليم	اليهود والإغريق	أونياس،طوبيا
	السلوقي	63-200	أورشليم	اليهود والإغريق	أونياس3،ياسون
	دولة يهوديا		أورشليم	اليهود والإغريق	يهوذا المكابي
	1. المكابية	106-142			
	2. الإسمونية	48-106			
الروماني	3. الهيرودية	48ق. م-44م	أورشليم	اليهود والرومان	هيرودس
	4. المقسّمة	44-70م	أورشليم	اليهود والرومان	سبعة ولاة رومان
	الاحتلال الروماني	70-628	إيليا كابيتولينا	اليهود والرومان	
	الاحتلال البيزنطي	628-636	إيليا	اليهود والمسيحيون	

جدول(7) موجز تاريخ القدس القديم منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الروماني

ضوء سريع على موقع وجغرافية القدس الطبيعية بعد الخوض في تاريخ القدس القديم نود التعرف بشكل سريع على موقع المدينة وجغرافيتها.

تقع مدينة القدس على خط طول 41َ 53ْ شرقي خط غرينتش، وعلى خط عرض 64َ 13ْ شمال خط الاستواء، وتستقر المدينة على مرتفعات يتراوح ارتفاعها عن سطح البحر ما بين 720-780 متراً وتبعد في خطوط مستقيمة عن البحر المتوسط نحو 52كم، وعن البحر الميت نحو 22كم، وعن البحر الأحمر نحو 250كم[59].

وترتفعُ المدينة اليوم على ثلاثة مرتفعات تحيطها ثلاثة وديان (أنظر الخارطة 12).

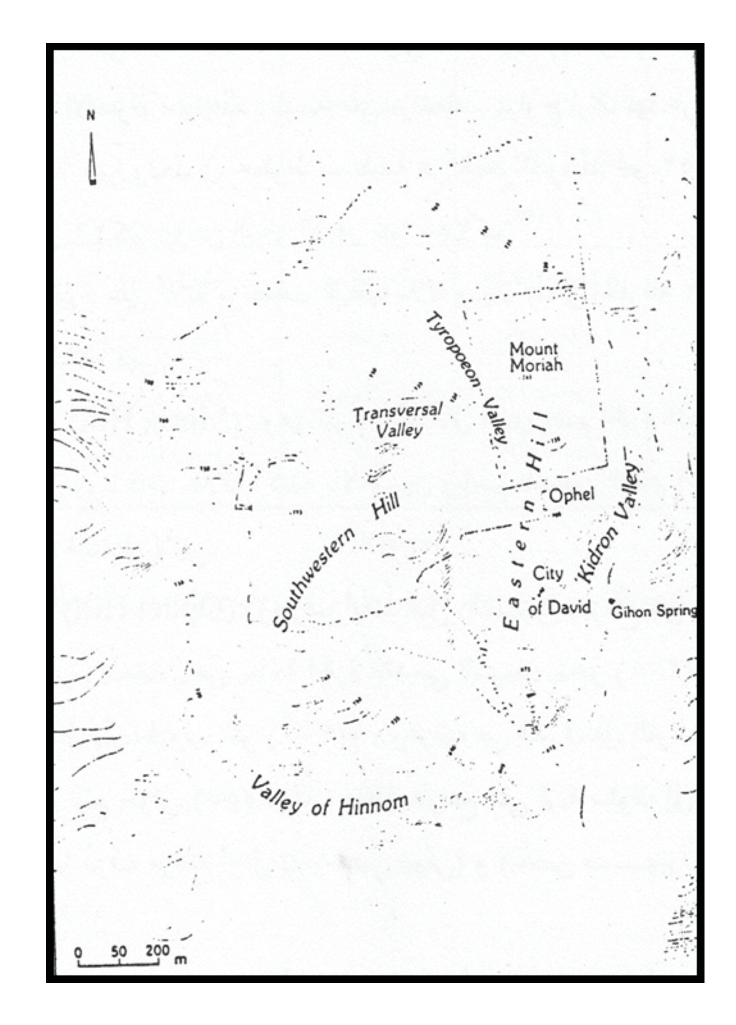
أما المرتفعات الثلاثة فهي:

1. مرتفع موريا (Moria Hill): وهو المرتفع الشمالي الذي يضم الحرم القدسي الشريف، ونرى أ، كلمة موريا ذات علاقة أكيدة بالأموريين وبإسم فلسطين القديم (موريا). ولا علاقة لهذا الاسم بأي اشتقاق لاتيني.
2. مرتفع أوفل (Ophel Hill): ويعرف أيضاً بجبل (الضهور) ويرتفع عن سطح البحر حوالي 680 متر وينخفضُ عن ساحة الحرم القدسي الشريف بنحو (200)م، ويبلغ طوله الممتد من الشمال إلى الجنوب نحو (400)م، وعرضه من الشرق إلى الغرب نحو (135)م أي أن مساحته تبلغ حوالي (55) دونماً، ويطل المرتفع على قرية سلوان إلى الجنوب الشرقي من الحرم، كما عُرف مرتفع أوفل بـ(حصن يبوس) و(حصن صهيون) و(الأكِمةِ) و(جبل صهيون)[60].

وفي أسفل المرتفع تقع عين جيحون أو عين (روجل) أو عين (القصار) أو عين (ستنا مريم) أو عين (أم الدرج) وقد سميت بالاسم الأخير لخروج العين من نبع منخفض يخرج من الصخر الصلد في الجانب الشرقي من المرتفع وينـزل إليها بدرجات يوصلها إلى كهف طبيعي عند منتصف وادي قدرون.

ونطلق على مرتفع موريا ومرتفع أوفل والمرتفع الذي أُنشأت عليه مدينة يبوس بـ(المرتفع الشرقي).

3. المرتفع الجنوبي الغربي (Southwestern Hill): وهو المرتفع الذي يقع مقابل المرتفع الشرقي وينحصر ما بين وادي تيروبيون شمالاً ووادي هنوم جنوباً.



خارطة (12) الخارطة الطوبوغرافية للقدس

المرجع Mazar 1993:699

أما الوديان الثلاثة فهي:

1. وادي قدرون (Kidron Vally): ويقع شرق المدينة ويسميه العرب وادي سلوان ووادي ستي مريم ووادي النار ووادي جهنم، ودعي في القرن الرابع الميلادي بوادي (يهو شافط).

2. وادي تيروبيون (Tyropoeon): ويقع غرب المدينة باتجاه الشمال ويلتقي بوادي قدرون على بعد 900م جنوب مرتفع أوفل فيتخذان شكل حرف V وتقع المدينة والمرتفع

بينهما. وقد دعاه يوسيفوس بهذا الاسم ومعناه (صانعو الجبن) وفسره بعضهم (وادي الروث) وهـو اليـوم ملئ بالأحجار والطوب التي ألقيت فيها على مر العصور.

3. وادي هنوم (Hinnom Vally): ويقـع إلى الجنـوب والجنـوب الغـربي مـن المدينـة ويـسمى أيـضاً (وادي الربابة) وهو يلتقي بوادي قدرون على بعد 200م من نقطة التقائه بوادي تيروبيون.

ومن خلال هذا التكوين الطوبوغرافي للمدينة نلاحـظ أنهـا كانـت متميـزة في موقعهـا ومحميـة بخطـوط دفاعية طبيعية من ثلاث جهات شرقية وغربية وجنوبية تمثلها الوديان وتجعـل اقتحامهـا مـن هـذه المنـاطق أمـراً صعباً في العصور القديمة، لكن جهتها الشمالية مكشوفة ولا توجد عوائق طبيعية فيها ولـذلك كـان شـمال المدينـة نقطة الضعف التي كان يخترقها الغزاة بسهولة.

أما مصادر المياه في القدس فكانت تأتي من قرية سِلوان وهي القرية المجاورة لسور القـدس مـن الجنـوب وفيها عيون تسمى عيون سلوان منها:

1. عين جيحون (أم الدرج): التي تبعد 300 متراً عن الزاوية الشرقية لسور الحرم وكانـت المـصدر الوحيـد لميـاه القدس منذ القدم وعدد درجاتها حوالي سبعة عشر درجة تنتهي في العمق إلى مغارة ضيقة عمقهـا ثمانيـة أمتار.
2. بركة سلوان: قبلى عين أم الدرج وعلى بعد أمتار قليلة منها وتقع غربي مرتفع أوفل (الضهور).
3. البركة التحتانية: إلى الجنوب الشرقي من بركة سـلوان وعـلى بعـد بـضعة أمتـار منهـا، وتـدعى أيـضاً البركـة الحمراء وهي التي دعاها يوسيفيوس في القرن الأول للميلاد بحيرة سليمان[61].
4. بئر أيوب: يصل عمقها إلى حوالي 125 قدماً، وظنّ بعضهم أنها عين روجل المـذكورة في العهـد القـديم، وهـي تبعد عن البركة الحمراء حوالي ألف قدم ولا نبع فيها ولا عين بل يأتيها الماء رشحاً من أم الدرج وغيرها[62].

هوامش ومراجع الفصل الرابع

1 .Flavius Josephus, The Antiquities of the Jews, Translated by William whiston, Book XI. Chap. VIII PP 323-325.

كذلك أنظر عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، حـ1، القدس 1961 ص34-35. حيث ترجمت بعض مقاطع من هذه الرواية.

2. عارف العارف، المفصل في تاريخ القدس، حـ1، القدس 1961 ص35.

3. جورج مندنهول، القدس من 1000-63ق. م، القدس في التاريخ، الفصل الثاني، حـرر الطبعة الإنجليزية وترجمها الدكتور كامـل جميل العسلي، عمان 1992، ص85.

4. عزمي عبد محمد أبو عليان، القدس بين الاحتلال والتحرير، عمان، 1993، ص100نقلاً عن سيد فراج راشد، القدس عربية إسلامية، ص31.

5. وليم وود تورب تارن، الحضارة الهيلنستية، ترجمة زكي علي، القاهرة، 1966، ص222.

6. إبراهيم نصحي، تاريخ مصر في عصر البطالمة، حـ1، القاهرة، 1976، ص67.

7. كان غزو بطليموس لسوريا عام 320ق. م، واستولى على القدس عام 319-318ق. م أي عندما كان والياً على مـصر وتابعاً للحكومة المركزية المقدونية، ولم تستقر الأمور في فلسطين إلاّ بعد أن أعلن نفسه ملكـاً عـلى مـصر عـام 305ق. م وذلك في حدود 301ق. م، وظلت فلسطين تابعة لمـصر البطلميـة قرابـة القـرن الكامـل حيـث ضـمها السلوقيون عام 198ق. م.

8. أبو عليان، عزمي، المرجع السابق، ص102.

وانظر كذلك يوسف الدبس، تاريخ سورية، حـ3، ص85-106، وانظر عارف العـارف، المفـصل في تـاريخ القـدس، حـ1 ص35.

9. مصطفى كمال عبد العليم، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، بنغازي، 1966، ص171.

وانظر كذلك:

Josephus, F. , Contra Apionem, Books 1-II , volume 1, Translated By H. ST. J. Thackeray (L. C. L) London 1956. P44-48 .

10. مصطفى العبادي، العصر الهيلنستي- مصر-، بيروت، 1981، ص112.

11. عبد العليم، المرجع السابق، ص71.

12. نفسه ص7.

وانظر كذلك:

N. Slousch, "Jewish and Judaism in Ancient Cyrenaica" Being and Appendix to the Report on the work of the Commission sent out by the Jewish territorial Organization (=ITO) for the Purpose of a Jewish Settlement in Cyrenaica. ITO offices, London , 1909.

13. العبادي، المرجع السابق، ص41.

14. العارف، المرجع السابق، ص41.

15. تارن، المرجع السابق، ص224.

16. نصحي، المرجع السابق، ص118.

17. العبادي، المرجع السابق، ص113.

18. تارن، المرجع السابق، ص236.

19. نفسه.

20. العبادي، المرجع السابق، ص113.

21. أبو عليان، المرجع السابق، ص113.

وانظر كذلك: ابن العبري، تاريخ مختصر الدول، ص60، وهارفي بورتر، النهج القويم ص335-336، ويوسف الدبس، تاريخ سورية، جـ3، ص123.

22. تارن، المرجع السابق، ص224.

23. أبو عليان، المرجع السابق، ص102.

24. تارن، المرجع السابق، ص225.

25. فيلون اليهودي (30ق. م- 50م) وهو أكبر ممثلي التيار اليهودي الهيليني في ذلك العصر ولد في الإسكندرية من أسرة يهودية معروفة وكان يلقب بـ(إفلاطون اليهودي) لأن فلسفته قامت على فلسفة أفلاطون والمذاهب الإفلاطونية بصفة عامة فضلاً عن تأثرها ببعض الأفكار الشرقية القديمة، وكانت غاية فيلون التوفيق بين أسفار التوراة والفلسفة الإغريقية وهو يرى أن جميع الأحداث والأفكار والشرائع الموجودة في التوراة ذات معنيين أحدهما ظاهر حرفي والآخر مجازي يشير إلى حقائق أخلاقية أو فلسفية عرفتها الفلسفة الإغريقية.

26. تارن، المرجع السابق، ص238.

27. نفسه ص226.

28. أبو عليان، المرجع السابق، ص104.

29. نفسه.

30. نفسه.

31. إلمسلي، "سقوط أورشليم وأهميته العالمية، تاريخ العالم للسيرجون أ. هامرتون، المجلد الثالث، الفصل التاسع والستون، ترجمة إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية، القاهرة، ب. ت، ص650.

32. سفر المكابيين الأول 6: 28-63.

33. نفسه 7: 1-30.

34. نفسه 7: 30-50.

35. نصحي، المرجع السابق، ص204.

36. نفسه، ص205.

37. سفر المكابيين الأول 12: 39-53.

38. أبو عليان، المرجع السابق، ص110.

39. نفسه، ص111.

40. كمال الصليبي، البحث عن يسوع، 1999، ص40.

41. نفسه، ص41.

42. تارن، المرجع السابق، ص244.

43. نفسه، ص246.

44. نصحي، المرجع السابق، ص229.

45. أبو عليان، المرجع السابق، ص111.

46. نصحي، المرجع السابق، ص232.

47. نفسه، ص233.

48. أبو عليان، المرجع السابق، ص115.

49. نفسه، ص116.

50. نفسه.

51. تارن، المرجع السابق، ص245.

52. نفسه، ص250.

53. محمد علي أبو ريـان وحربي عباس عطيتو، دراسات في الفلسفة القديمة والعصور الوسطى، القاهرة، 1999، ص248.

54. Tushingham, A. D, Excavation in Jerusalem 1961-1967 Volume I, Toronto, 1985, P. 361.

55. IBID. P. 368.

56. IBID. P. 372.

57. Holland, T. A., "A study of Palestinian Iron Age Baked Clay Figurines with special references to Jerusalem Cave 1", the Iron Age Cave Deposits on the South-east hill and isolated burials in cemeteries Elsewhere, London , 1985, P. 176.

58. IBID. P. 177.

59. أبو عليان، المرجع السابق، ص46.

60. نفسه.

61. شفيق جاسر أحمد محمود، تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها. الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية، عمّان 1984، ص31.

62. نفسه.

الفهارس

1. فهرس المصادر والمراجع.
2. فهرس الأشكال والصور.
3. فهرس الخرائط.
4. فهرس الجداول.

فهرس المصادر والمراجع

أ. المراجع العربية

1. إبراهيم، معاوية ، "تاريخ فلسطين القديم" الموسوعة الفلسطينية، المجلد الثاني، القسم الثاني، بيروت، 1990.
2. أرمسترونج، كارين ، القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث، ترجمة د. فاطمة نصر ود. محمد عناني، عمّان، 1988.
3. إلمسلي، و. ، "سقوط أورشليم وأهميته العالمية"، تاريخ العالم للسيرجون. أ. هامرتون، المجلد الثالث، الفصل التاسع والستون، ترجمة إدارة الترجمة بوزارة المعارف العمومية مكتبة النهضة المصرية، القاهرة،ب. ت.
4. إلياد، مرسيا ، المقدّس والمدنّس، ترجمة عبد الهادي عباس المحامي، دار دمشق للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1988.
5. إيمار، أندريه وجانيين أبواويه ، الشرق واليونان القديم، ترجمة فريد. م. داغر وفؤاد. ج. أبوريحان، الطبعة الثانية، منشورات عويدات، بيروت- باريس، 1981.
6. برستد، جيمس هنري ، تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسي، ترجمة الدكتور حسن كمال، وزارة المعارف المصرية، القاهرة، 1929.
7. بوب، م. هـ و. ف. رولينغ ، "قاموس الآلهة والأساطير في الحضارة السورية"، قاموس الآلهة والأساطير، ترجمة محمد وحيد خياطة، مكتبة سومر، حلب، 1987.
8. تارن، وليم وود تورب ، الحضارة الهلينستية، ترجمة زكي علي، القاهرة، 1966.
9. توكاريف، سيرغي أ. ، الأديان في تاريخ شعوب العالم، ترجمة د. أحمد. م. فاضل، الأهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 1988.

10. جاردنر، سير ألن ، مصر الفراعنة، ترجمة دكتور نجيب ميخائيل إبراهيم. مراجعة دكتور عبد المنعم أبو بكر، الطبعة الثانية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987.

11. جوردن، سيروس هـ ، "الأساطير الكنعانية"، أساطير العالم القديم، ترجمة د.أحمد عبد الحميد يوسف، مراجعة د. عبد المنعم أبوبكر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1977.

12. حتّي، فيليب ، تاريخ سورية ولبنان وفلسطين، ترجمة د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، 1958.

13. الدباغ، تقي ووليد الجادر ، عصور ما قبل التاريخ، منشورات جامعة بغداد، بغداد، 1983.

14. أبو ريان، محمد علي وحربي عباس عطيتو ، دراسات في الفلسفة القديمة والعصور الوسطى، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، 1999.

15. سليمان، توفيق ، دراسات في حضارات غرب آسيا القديمة (من أقدم العصور إلى عام 1190ق. م)، دار دمشق للطباعة والنشر، دمشق، 1985.

16. السوّاح، فراس ، دين الإنسان- بحث في ماهية الدين ومنشأ الدافع الديني، منشورات علاء الدين، دمشق، 1994.

17. سوسه، أحمد ، العرب واليهود في التاريخ، الطبعة الرابعة، العربي للإعلان والنشر والطباعة والترجمة، بيروت، 1975.

18. شوفاني، الياس ، الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، الطبعة الثانية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1988.

19. الصليبي، كمال ، البحث عن يسوع (قراءة جديدة في الأناجيل)، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، 1999.

20. طوقان، فوّاز ، "دراسة عن اللغة المؤابية وترجمة نقش الملك ميشع" حولية الآثار الأردنية رقم (15)، عمّان، 1970.

21. طومسون، توماس ل ، التاريخ القديم للشعب الإسرائيلي، ترجمة صالح علي سوداح، بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، 1995.

22. العارف، عارف ، المفصل في تاريخ القدس، حـ1، منشورات فوزي يوسف، مكتبة الأندلس في القدس، القدس، 1961.

23. العبادي، مصطفى ، العصر الهيلنستي. مصر، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1981.

24. عبد الحكيم، شوقي ، موسوعة الفولكلور والأساطير العربية، دار العودة، بيروت، 1982.

25. عبد الحليم، نبيلة محمد ، معالم العصر التاريخي في العراق القديم، دار المعارف، القاهرة، 1983.

26. عبد العليم، مصطفى كامل ، دراسات في تاريخ ليبيا القديم، منشورات الجامعة الليبية، بنغازي، 1966.

27. أبو عساف، علي ، الآراميون تاريخاً ولغةً وفناً، دار أماني للطباعة والنشر والتوزيع، طرطوس، 1988.

28. أبو عليان، عزمي عبد محمد ، القدس بين الاحتلال والتحرير، مؤسسة باكير للدراسات الثقافية، عمّان، 1993.

29. غريمال، بيار ، الميتولوجيا اليونانية، ترجمة هنري زغيب، منشورات عويدات، بيروت. باريس، 1982.

30. غوشة، محمد هاشم موسى ، القدس اليبوسية، مطابع شركة القادسية- القدس-الرام، القدس، 1996.

31. فرانكن، هـ ي ، "القدس في العصر البرونزي"، القدس في التاريخ، ترجمة د. كامل جميل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمّان، 1992.

32. فخري، أحمد ، مصر الفرعونية (موجز تاريخ مصر منذ أقدم العصور حتى عام 332ق.م)، القاهرة، 1995.

33. فرح، كمال ، "منذ فجر التاريخ والقدس هنا"، القدس دراسات فلسطينية إسلامية ومسيحية، مركز اللقاء للدراسات الدينية والتراثية في الأرض المقدسة، القدس، 1996.

34. فريحة، أنيس ، ملاحم وأساطير من أوغاريت (رأس الشمرة)، دار النهار للنشر، بيروت، 1980.

35. الفني، إبراهيم ، القدس عبر الحضارة والتراث منذ ستة آلاف عام، منشورات وزارة الإعلام، عمّان، 1997.

36. الكتاب المقدس ، العهد القديم، أسفار (التكوين، الملوك الأول، الملوك الثاني، عزرا، نحميا، إشعيا، إرميا، مراثي إرميا، حجّي، زكريا، المكابيين)، دار المشرق، بيروت، 1986.

37. كوفان، جاك ، ديانات العصر الحجري في بلاد الشام، ترجمة د.سلطان محيسن، دار دمشق للطباعة، دمشق، 1988.

38. الماجدي، خزعل ، الآلهة الكنعانية، دار أزمنة للنشر والتوزيع، عمّان، 1999.

39. الماجدي، خزعل ، المعتقدات الكنعانية، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمّان، 2001.

40. محمود، شفيق جاسر أحمد ، تاريخ القدس والعلاقة بين المسلمين والمسيحيين فيها منذ الفتح الإسلامي حتى الحروب الصليبية، دار البشير للتوزيع والنشر، عمّان، 1984.

41. محيسن، سلطان ، بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ-الصيادون الأوائل، الأبجدية للنشر- مطابع ألف باء الأديب، دمشق، 1989.

42. مندنهول، جورج ، "القدس من 1000-63ق. م" القدس في التاريخ، ترجمة د. كامل جميل العسلي، عمّان، 1992.

43. ميديكو، هـ ي. ديل ، اللآلئ (من النصوص الكنعانية) بقلم كبير كهنة أوغاريت إيلي ميليكو، ترجمة وتعليق مفيد عرنوق، منشورات مجلة فكر، بيروت، 1980،

44. نصحي، إبراهيم ، تاريخ مصر في عصر البطالمة، الجزء الأول، مطبعة جامعة القاهرة، الطبعة الرابعة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1976.

45. نعناعة، محمود ، المشكلة اليهودية وهل تحلّها إسرائيل؟، الجزء الأول، القاهرة، 1972.

46. النور، أسامة عبد الرحمن وأبو بكر يوسف شلابي ، تاريخ الإنسان حتى ظهور المدينات، منشورات ELGA، فاليتا- مالطا، 1995.

47. هبّو، أحمد ، تاريخ الشرق القديم 1. سورية، ط2، دار الحكمة اليمانية للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، صنعاء، 1999.

48. وايتلام، كيث ، تلفيق إسرائيل التوراتية: طمس التاريخ الفلسطيني، ترجمة ممدوح عدوان، مراجعة زياد منى، قدمس للنشر والتوزيع، دمشق، 2000.

ب. المراجع الأجنبية

1. Ahlstrom, Gosta W. , The History of Ancient Palestine, Frotress press, Minneapolis, 1993 .

2. Allbright, W. F. , The Amarna Letters. ANET (Ancient Near East Texts Relating to the old Testament by James B. Pritchard) 3rd Edition, New Jersey, 1969 .

3. Geva, Hillel , "Jerusalem. The early periods and the first Temple period" The new Encyclopedia of Archaeology Excavations in the Holy

Land, Volume2, The Isreal exploration society, Carta Jerusalem, 1993.

4. Gray, John , A History of Jerusalem , London , 1969 .

5. Holland , T. A , "A Study Of Palestinian Iron Age Baked Clay Figurines With Special References to Jerusalem: Cave 1" The Iron Age Cave Deposits on the south-east hill and isolated Burials in cemeteries Elsewhere. Eshel and K. prag, London 1985 .

6. Josephus , Flavius, , Contra Apionem , Books 1-II , Volume 1 , Translated by H. ST. J. Thackeray (L. C. L) , London , 1956 .

7. Josephus , Flavius , The Antiquities of the Jews, Translated by william whistrn, Book XI. Chap. VIII .

8. Kenyon , Kathleen. M , Digging up Jericho, New York, 1957

9. Kenyon , Kathleen. M , Jerusalem. Excavating 3000 Years of history , Thames and Hudson, London 1967 .

10.Kenyon , Kathleen. M , Royal Cities of the old Testament. Barrie and Jenkis, London, 1971 .

11. Kundtzon, J. A and O.Weber , Die El-Amarna Tafeln , Leipzig, 1915 .

12. Mare, W. Harold , The Archaeology of the Jerusalem , Baker Book house , Michigan , 1987 .

13. Mazare, Benjamin , The Mountain of the Lord, Garden City, Double day, New York, 1975 .

14. Mazare, Benjamin , "Jerusalem. The early periods and the first Temple period" The New Encyclopedia of Archaeology Excavation in the Holy Land , Volume2 , The Israel exploration Society , Carta , Jerusalem , 1993 .

15. Mercer, S. A. B , The Tell el-Amarna Tablets, Toronto. 1939 .

16. Michel, E , "Die Assur:Texte Salmanassars III 858-824 B. C , Die welt Des Orients, 1947.

17. Rahmani, L. Y , "Ancient Jerusalem's Funerary Custome and Tombs", part two , Biblical Archaeologist, 1981.

18. Shiloh, Yigal , "Jerusalem. The early periods and the first Temple period", The New Encyclopedia of Archaeology Excavations in the Holy Land, Volume2, The Israel exploration Society; Carta, Jerusalem, 1993.

19. Slousch, N . , "Jewish and Judaism in Ancient Cyrenaica" Being and Appendix to the Report on the work of the Commission sent out by the Jewish Territorial Organization (ITO) for the purpose of a Jewish Settlement in Cyrenaica, ITO offices, London, 1909.

20. Stoltz, F . , "Strukturen und Figuren 1m Kult Von Jerusalem" BZAW,* 118,Berlin , 1970 .

21. Terrien, S . , The Omphalos Myth and Hebrew , VT , XX , 1970 .

22. Tushingham , A. D , Excavation in Jerusalem 1961-1967, Volume I, Royal Ontario Museum, Toronto, 1985 .

*BZAW = Beihefte Zur Zeitschrift fur die Altte tamentlische Wissenschaft.

فهرس الأشكال والصور

صفحة

صفحة

فهرس الخرائط

فهرس الجداول

هذا الكتاب

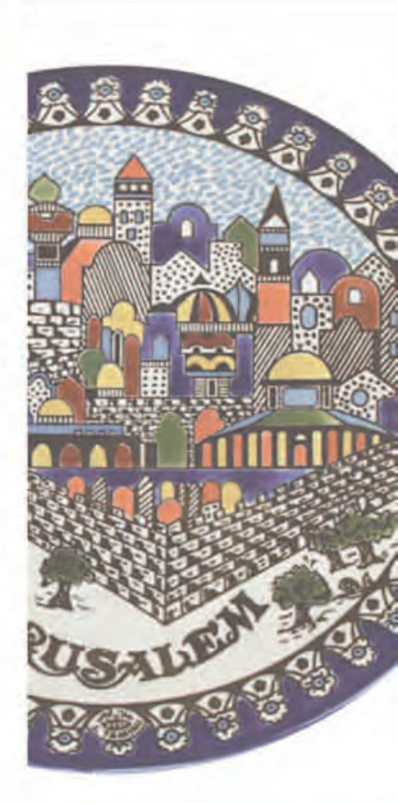


يأتي كتابنا هذا ضمن محاولة متواضعة لكتابة تاريخٍ حقيقي لـسيرة مدينـة القـدس منـذ ظهورهـا وحتـى الاحتلال الروماني لها. ونعني بكلمة (تاريخ حقيقي) استبعاد كل المؤثرات الدينية التوراتية للتحكم بمسرى الأحداث وتوجيهها.. وخصوصاً تلك التي لها علاقة بنشوء المدينة ونموها في العصرين البرونزي والحديدي، أي خلال ما يقرب من ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد.

لقد كان منهجنا في البحث التاريخي، في هذا الكتاب، معتمداً على علـم الآثـار وعـلى مـا جـادت بـه أرض القدس من الآثار المنقولة والثابتة، مع محاولات استقرائية هنا وهناك تحـاول كـشف مـا تخفيـه الآثـار والأحـداث التاريخية وتجيب على بعض الأسئلة المعلّقة والحساسة.

كانت الآثار مرجعيتنا الكبرى في كتابة تاريخ القـدس القـديم حرصـاً منـا عـلى اتخـاذ الطريـق العلمـي في تدوين التاريخ، ولذلك سيكون كتابنـا مفاجئـاً للـذين ينتظـرون بعـض البـديهيات التـي كرّسـها البحـث التـاريخي المشحون بخلفيـة توراتية والتي استبعدناها لأنها لا تمس الحقيقة بشيء.

من مقدمة المؤلف





دار غيداء للنشر والتوزيع

تلاع العلي - شارع الملكة رانيا العبدالله
تلفاكس : 5353402 6 962+
ص.ب : 520946 عمّان 11152 الأردن
www.darghaidaa.com

مجمع العساف التجاري - الطابق الأول
خلــــوي : 95667143 7 962+
E-mail: darghidaa@gmail.com
E-mail: info@darghaidaa.com

9 789957 962913